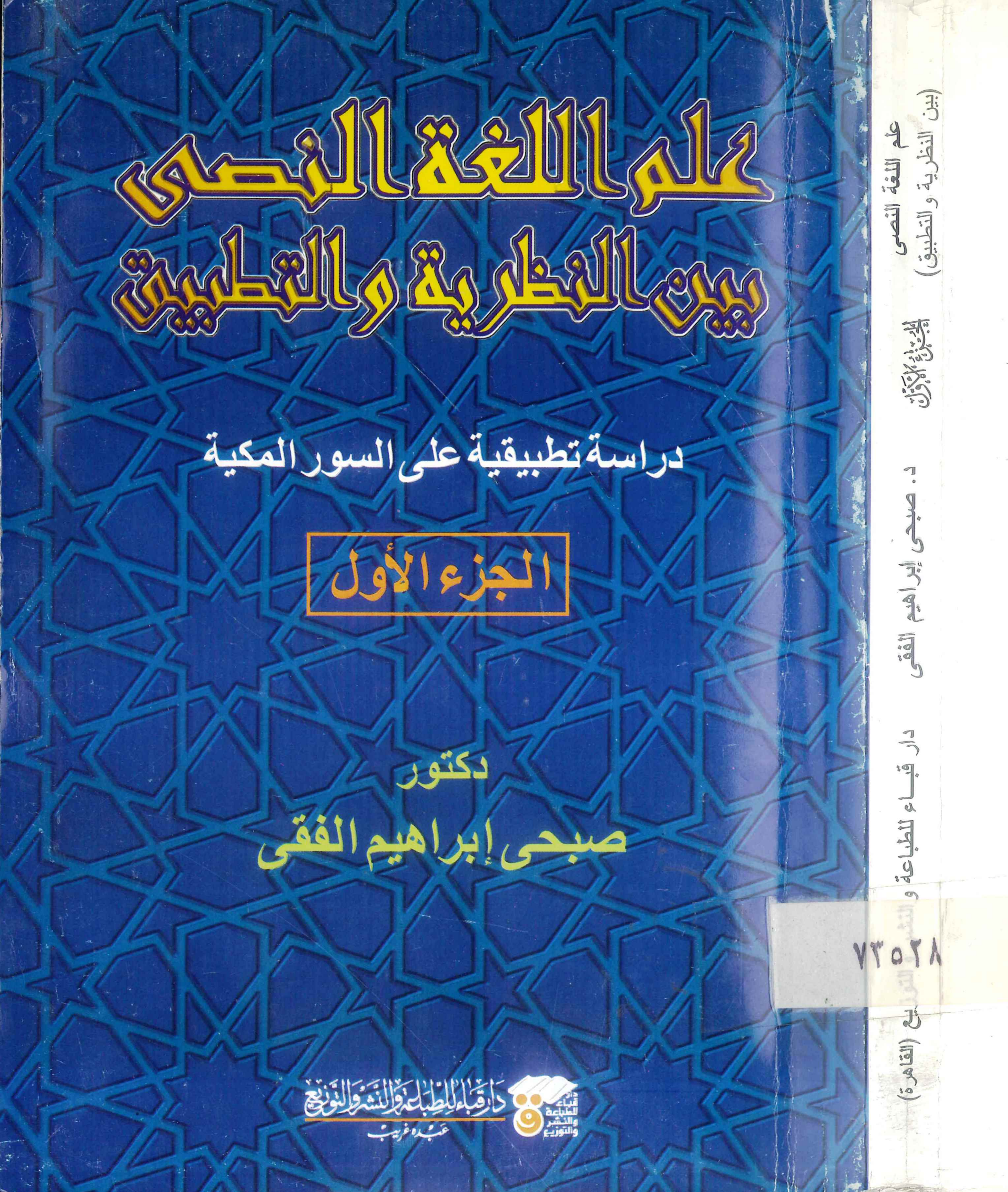


هذا الكتاب

لقد تطورت الدراسات اللغوية فى السنوات الأخيرة تطورات سريعة، أفرزت من خلالها العديد من المدارس اللغوية، وأحدث هذه المدارس، مدرسة علم اللغة النصى Text Linguistics. التى أعلت من شأن النص بجعله الوحدة اللغوية الأكبر فى التحليل اللغوى.

وقد افتقرت المكتبة العربية إلى مثل هذه الدراسة التى تضع علم اللغة النصى بين يدى القارئ العربى بصورة تجمع بين جانبى النظرية والتطبيق، خاصة التطبيق على النص القرآنى الكريم.

ولمَّا كان التماسك النصى أبرز أهداف التحليل النصى، بل عُدَّ المميز بين النص واللا نص، فقد ركزت هذه الدراسة، إلى حد كبير، على الوسائل التى تحقق ذلك التماسك.

ولم تغفل الدراسة، فى جوانبها كلها، الإسهامات التى أفرزتها عقليات علماء العربية فى هذا المجال.

أحمد غريب

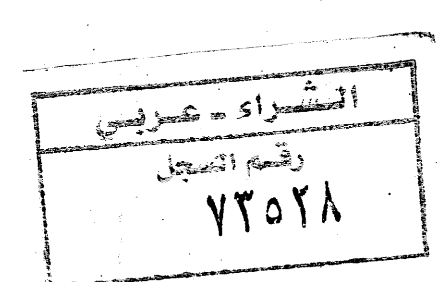
علم اللغة النصي

بين النظرية والتطبيق

علم اللغة النصى بين النظرية والتطبيق

دراسة تطبيقية على السور المكية

الجزء الأول



دكتور

صبحي إبراهيم الفقي

مدرس العلوم اللغوية

كلية الأداب - جامعة طنطا

الناشـر

دار قبـاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الكتـــــاب: علم اللغة النصى بين النظرية والتطبيق
المـؤلـــف : د. صبحى إبراهيم الفقى
رقــم الإيــداع : ١٨٠٣١/ ٩٩
الترقيــم الدولى : ISBN
977 - 303 - 324 - 8
تاريخ النشر: ٢٠٠٠

الناشـر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع(عبده غريب)
شركة مساهمة مصرية
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون - الدور الأول - شقة ٦
☏ ٢٤٦٢٥٦٢ - فاكس/ ٢٤٧٤٠٣٨
التوزيــــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
☏ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)
المطابـــع : مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)
☏ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

رئيس مجلس الإدارة / أحمد غريب


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾
صدق الله العظيم



❁ إلى أستاذي الكريمين :

الأستاذ الدكتور/ عبده علي الراجحي

والأستاذ الدكتور/ محمود سليمان ياقوت

❁ إلى نبع الحنان وفيض الحب ووافر العطاء بلا انتظار لمقابل، أمي الحبيبة

❁ إلى من عانت معي مخاض هذا البحث وميلاده، زوجتي

❁ إلى زهرتي حياتي محمد وإسراء

الفهرست

تابع الفهرست

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله رب العالمين، نحمده حمد الحامدين، ونشكره شكر الشاكرين، ونتضرع إليه تضرع المتضرعين، أن يلهمنا الصواب والتوفيق، وأن يجعل عملنا كله خالصاً لوجهه الكريم.والصلاة والسلام على خير من نطق العربية، بلسان عربى مبين، لا ينطق عن الهوى.ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فاللغة المنطوقة أو المكتوبة، تعد واحدة من أهم وسائل الاتصال والتواصل بين بنى الإنسان.ومن ثم فقد حظيت بنصيب وافر من الاهتمام والدراسة منذ عشرات القرون.وظهرت مدارس عديدة عبر هذه الفترات الزمنية، وقد كان مِن أحدثها "المدرسة النصية".تلك المدرسة التى تعدَّت فى تحليلاتها اللغوية، النُظمَ التى اتبعتها المدارسُ الأخرى التى انصب اهتمامها على الجملة بوصفها الوحدة اللغوية الكبرى.تعدت ذلك لتصل إلى وضع "النص" ليمثل الوحدة اللغوية الكبرى.وذلك لأن تحليل الجملة، يُعد قصوراً فى الدراسة اللغوية؛ إذ لا يمكن دراستها منفصلة عن سياقها اللغوى المتمثل فى البنية اللغوية الكبرى "النص".

أسباب اختيار الموضوع

ولندرة الأعمال اللغوية النصية، خاصة فى المكتبة العربية، وللحاجة الماسة للتعريف بهذه النظرية، وتأصيلها، ثم تحليل أقدس النصوص العربية، تحليلاً نصيًّا معاصراً يساير ما وصلت إليه هذه النظرية من تحليل نصى معاصر، طُرحت أسئلة مهمة: ما طبيعة هذه النظرية ؟ وما أهدافها ؟ وكيف يمكن تحليل النصوص من خلالها؟ وما الجديد الذى أسهمت به دون غيرها

من المدارس السابقة؟ وما أهم جوانبها؟ وهل هناك جذور لها فى التراث العربى؟ ... وغيرها من الأسئلة التى دفعت فضول الباحث إلى محاولة الإسهام فى الإجابة عنها عبر هذا الكتاب.

وفك شفرة النص عامة، والنص القرآنى خاصة، عبر التحليل النصى المعاصر، من أهم الأسباب التى دفعت الباحث إلى تقديم هذا البحث من أجلها؛ فالنظرة الكلية إلى النص، ثم الحكم على تماسكه، والأدوات التى أسهمت فى تحقيق هذا التماسك، والتواصل بين قائل النص، والنص، والمتلقى، والضوابط التى تتحكم فى هذا كله، إضافة إلى الأهمية الكبرى للسياق فى التحليل النصى. هذه كلها أمور تُعد أسباباً لاختيار هذا الموضوع.

ولمَّا كان المجال التطبيقى للتحليل النصى – خاصة فى الإسهامات الغربية – لم يتعد النصوص الصحفية، أو المقالات، أو من قريحة مؤلفى هذه الكتب.كانت الحاجة القصوى لاختيار نص أدبى من ناحية، ومقدس من ناحية أخرى، وفصيح من ناحية ثالثة.وأهم نص تتوفر فيه هذه الشروط "القرآن الكريم".ومن ثم كان من أسباب اختيار هذا الموضوع كذلك حاجة المكتبة إلى تطبيق أصول هذه النظرية الحديثة على نص مقدس.

ولمَّا كان التطور سنة من سنن الحياة، ومواكبة ركب هذا التطور، فى غير انفصال عن القديم، تُعدُّ من الواجبات المنوطة بالباحثين، لكشف اللثام عن الإسهامات القديمة، والحديثة، لتقديم نظرية متكاملة.لما كان الأمر كذلك حرص الباحث على اختيار هذا الموضوع.واختيار السور المكية يرجع إلى وحدة موضوعها، حيث الحديث عن قضية العقيدة ومتطلباتها، وأيضاً لوحدة مكان نزولها وزمانه، والمكان والزمان من عناصر السياق المحيط بالنص.وأيضاً لأن التطبيق على السور المدنية مع المكية أمر على درجة كبيرة من الخطورة والصعوبة من حيث المنهج والحجم وعلمية البحث.

ومن الأسباب أيضاً ما ذكره الباقلانى بقوله:

" فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورَصْفُه، فإن العقول تتيه فى جهته، وتحار فى بحره، وتضل دون وصفه ٠٠.واعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه٠٠٠"(١).

أهمية هذا الموضوع وهدفه

وترجع أهمية هذا النمط من الأبحاث إلى عدم الاكتفاء بالجملة فى التحليل اللغوى، نعم هى نواة النص، لكنها ليست البنية الكبرى للتحليل اللغوى.ومن ثم كان من الواجب تخطى بنية الجملة إلى بنية النص٠

وبما أن اللغة تواصل بين المتحدث / الكاتب والمستمع/ القارئ، فقد أكدت هذه النظرية دور المتلقى، وأعلت من شأنه؛ ليصبح المنتج الثانى للنص أو المبدع الثانى له؛ فالعملية اللغوية كلها تُعد حواراً متصلاً بين المبدع والنص والمتلقى؛ فالأخير، دائماً، فى حالة طرح لأسئلة عديدة على النص، والنص بدوره يجيب عن هذه الأسئلة.إضافة إلى أن المتلقى هو الجهة المتفردة بالحكم على "تماسك النص"، هذا التماسك الذى يمثل صُلب النظرية النصية والذى تدور فى فلكه أغلب جوانب التحليل النصى المعاصر٠

ومهمة الروابط النصية، أو الروابط عامة، كانت محصورة – فى الغالب – على مستوى الجملة، باستثناء بعض الإشارات إلى اتساع هذه المهمة. أما علم اللغة النصى، فإن هدفه الأساسى هو تحليل النص كاملاً، ومن ثم أصبح هذا الاتساع لمهمة الروابط من أهم ما يميز هذا التحليل؛ فقد تربط الأداة بين كلمتين أو عبارتين أو جملتين أو فقرتين أو عدة فقرات مكونة للنص، أو عدة فصول مكونة لكتاب كامل.ويتضح ذلك جليًّا فى باب الضمائر "الشخصية – الإشارية – الموصولة"، والتوابع مثل العطف خاصة،

(١) الباقلانى: إعجاز القرآن، ص ١٨٣ – ١٨٤.

والمناسبة، والحذف، والتكرار، وغيرها من الأدوات التى وُجد أن أبواب النحو العربى، أغلبها، يقوم على فكرة الإسناد، ومن ثم التماسك بين المسند والمسند إليه. فقد يكون المسند إليه واحداً، لكن ما يُسند إليه قد يتمثل فى عدد كبير من الجمل وهكذا.

ولمّا كانت دلالة الكلمة جزئية بالنسبة للجملة، كانت الحاجة إلى الأخيرة ليتم التماسك بين معاني كلمات الجملة الواحدة.وأيضاً لمّا كانت دلالة الجملة المنفصلة عن نصّها، تُعد دلالة جزئية غير كاملة، فى الغالب، كانت الحاجة لإتمام الدلالة الكاملة، ومن ثم تأكدت أهمية التحليل النصى، لإدراك الدلالة التامة للنص، وذلك من خلال الصلة الواجب توفرها بين هذه الجمل التى تمثل الدلالات الجزئية للنص.إذن تتضح أهمية هذا الموضوع فى عرض الوسائل التى يمكن من خلالها إدراك دلالة النص الكاملة لا الجملة المنفردة.

وتكمن أهميته أيضاً فى أنه قد اختْير نصٌّ مقدس وفصيح وأدبى وليس من إنتاج بشرى قابل للرد والتعديل.وهذا النص "السور المكية" خاصة، لأنها تحمل وحدة دلالية كلية تتمثل فى أنها تتحدث كلها عن قضية "العقيدة"؛ الألوهية والربوبية والعبودية وما يتعلق بها من ذكر آلاء الله، والجنة، والنار، والقصص،...وغير ذلك.والوحدة الدلالية هذه تمثل "التماسك النصى" فى أعظم صورة له.ومن ثم كان هدف الدراسة إثبات دور أدوات التماسك النصى فى تحقيق هذه الدلالة، انطلاقاً من مراعاة التماسك بين الكلمات المكونة للجملة، إلى مراعاة التماسك بين السور المكونة للنص المكى كله.

وأثناء هذا الإثبات تمت معالجة دور المتلقى، والسياق، والتناص بذكر قصص داخل نص السورة ليتلاحم مع موضوع السورة الأساسى وعنوانها لتحقيق الهدف منه، من هذا القصص، فلم يكن هذا الاستدعاء للقصص لذاتها، بل لموضوعها، وكيفية إسهامها فى ترسيخ ما تهدف السورة إليه، فلم يكن

هذا القصص منفصلاً عن السورة، وهذه الأمور هى الممثلة لعناصر التحليل النصى المعاصر الذى تهدف إليه الدراسة.

وهذا الهدف انعكس على منهجية البحث كما يلى :

منهجية الكتـــــاب

هذا العلم يمثل أحدث المدارس اللغوية فى التحليل، ومن ثم تتضح الحاجة إلى تأصيل هذا العلم وتنظيره.وعليه اشتملت الدراسة على المقدمة التى نحن بصددها، والفصل التمهيدى الذى تحدث عن التعريف بالنص وعلم اللغة النصى وأهم المصطلحات التى أفرزها هذا العلم.ثم العرض لأهمية التحليل النصى وطبيعته وموقف القدماء من هذا التحليل.

ولمَّا كان التماسك النصى أهم مظاهر التحليل النصى، بل هناك من رأى أنه القضية الأساسية للتحليل النصى، ولما كان اعتماد الدراسة -بشكل كبير - على هذا التماسك، أصبح من الضرورى إفراد فصل خاص به.ومن ثم كان عنوان الفصل الثانى "التماسك النصى"، وعُرض فيه لمفهومه، ورَأْى الباحث فى المفاهيم المتعددة، وكيفية التنسيق بينها.وعُرض أيضاً لأهمية التماسك النصى فى قضية التحليل المعاصر.ثم الصلة بين التماسك والسياق والمتلقى، وكيف أن التماسك يعتمد -بدرجة كبيرة - على السياق، وأن إدراكه -أى التماسك - قائم على كاهل المتلقى، وأن المتلقى لا يمكن أن يوجد منفصلاً عن النص، بل هو جزء أساسى من العملية النصية.وعُرض أيضاً لأهم الأدوات التى تسهم فى تحقيق التماسك النصى، فقد أثبتت الدراسة أدوات كثيرة لتحقيق التماسك النصى، غير أن طبيعة الدراسة يصعب اشتمالها على الأدوات كلها، لأن هذا يتطلب العرض لأغلب أبواب النحو، مما يمثل عبئاً كبيراً على منهجية الكتاب وحجمه.ولمَّا كان التأصيل فى حاجة إلى ذكر جذور هذا التحليل فى التراث العربى، إن وُجدت، خصَّصت الدراسةُ المبحثَ الأخير من هذا الفصل لنظرة القدماء للتماسك النصى.

ثم يأتى الشق الثانى من الدراسة؛ الشق التطبيقى، وذلك بتفصيل دور أهم أدوات التماسك النصى فى إيضاح التحليل النصى المعاصر.فكان عنوان الفصل الثالث "الضمائر" وعُرض فيه لأهميتها بين علماء العربية والنصية بإيجاز، ثم التحليل النصى للنماذج المختارة من السور المكية لتأكيد مهمة المرجعية الداخلية بفرعيها السابقة واللاحقة، والخارجية، ومهمة السياق فى بيان المرجعية فى حالة الغموض المرجعى لها، وأن إدراك هذا السياق يناط إلى المتلقى؛ إذ إن إدراك السياق من الشروط الواجب توفرها لدى المتلقى.

ويأتى الفصل الرابع من الدراسة ليعالج إسهام التوابع، بوصفها أداة من أدوات التماسك النصى، وقد أثبتت الدراسة أن النعت والتوكيد يسهمان أيضاً فى تحقيق التماسك وهذا لم يذكره النصيون، بل اكتفوا العطف والإبدال فقط.وعُرض فى هذا الفصل لرؤية كل من علماء العربية والنصية فى مهمة التوابع فى تحقيق التماسك النصى.ثم عُرض لهذه المهمة بالتطبيق على نماذج من السور المكية، وهذه النماذج تم اختيارها على أسس منها الطول والقصر، واحتواء بعضها على القصص، واختيار بعضها من العشرة أجزاء الأولى، وبعضها من العشرة الثانية، والبعض الثالث من العشرة الثالثة.

ولمَّا كان التكرار من الوسائل المهمة التى تربط بين عناصر النص، بل بين نصوص الكتاب خُصّص الفصل الخامس لعرض دوره فى تحقيق التماسك النصى، وذلك بعرض رؤية كل من القدماء والمحدثين له، وعرض أنواعه وأغراضه بإيجاز شديد. ثم الوصول إلى الجانب التطبيقى لنماذج السور المكية.والتكرار أيضاً من بين الأمور التى يتوقف اكتشافها على إدراك المتلقى؛ فالتكرار ليس باللفظ نفسه فحسب، بل بالترادف، والمعنى، والضمائر.

والإضافة الجديدة أيضاً فى هذه الدراسة تتمثل فى ذكر أداة على درجة كبيرة من الأهمية فى تحقيق التماسك النصى، ولها دور واضح فى التحليل النصى، ومع ذلك لم يذكرها علماء النصية، وهى "المناسبة"، وهذا يرجع

لطبيعة النصوص التى قاموا بتحليلها.وهذه الأداة نالت اهتماماً كبيراً من علماء العربية أمثال الرازى والبقاعى والسيوطى.غير أنهم لم يضعوها فى صورة نصية، بمعنى إدراك صلتها بالتماسك النصى.وقد قُسّم الفصل إلى جزء تاريخى، وأنواع المناسبة، وأهميتها وصلتها بالتماسك، ثم التطبيق، ونماذجه هنا اختلفت عن نماذج السور المذكورة فى الفصول الأخرى، وذلك لطبيعة هذه الأداة؛ فمن جوانبها - على سبيل المثال - المناسبة بين آخر السورة وأول ما تليها، وبين مفاتيح السور، وهذا - فى الغالب - يتطلب سوراً متجاورة، وهذا أدى بالدراسة إلى تغطية عدد كبير من السور المكية يزداد كثيراً عن العدد المتاح فى الفصول الأخرى.والمناسبة إما أن تكون على مستوى السورة المفردة مثل: مناسبة اسم السورة لمضمونها، ومناسبة أول السورة لآخرها، ومناسبة آيات السورة لبعضها البعض. أو على مستوى أكثر من سورة مثل: مناسبة فواتح أكثر من سورة، ومناسبة خاتمة السورة لفاتحة ما تليها، ومناسبة السورة بأكملها لسورة أخرى، ومناسبة ذكر القصة الواحدة فى أكثر من سورة، ومناسبة الإجمال والتفصيل بين الآيات فى أكثر من سورة.

وإذا كانت الفصول السابقة عرضاً للأدوات المذكورة لفظاً، فإن هناك أداة غير مذكورة لفظاً، مع ذلك تسهم فى التحليل النصى، وفى تحقيق التماسك، وهى "الحذف" ومن ثم خُصص الفصل السابع والأخير لها، وذلك بعرض مفهوم الحذف، وأنواعه وعلاقته بالإبدال والمرجعية، وضرورة وجود الدليل على المحذوف، وصلة ذلك بالتماسك.ولمَّا كان إدراك المحذوف فى حاجة إلى تفكير كثير، وإدراك للسياق، وقواعد اللغة، كان هذا الفصل من أكثر الفصول إعلاء من شأن المتلقى، ولذا خُصص المبحث الرابع منه عن مهمة المتلقى.والخامس عن كيفية حدوث التماسك من خلال الحذف.ثم التحليل النصى للسور المكية.



الفصل الأول

الفصل التمهيدى

❁ **المبحث الأول:** التعريف بالنص وعلم اللغة النصى وأهم المصطلحات.

ويتكون من :

أولاً : التعريف بالنص وعلم اللغة النصى.

ثانياً: التعريف بأهم المصطلحات.

❁ **المبحث الثانى:** أهمية الدراسة النصية.

❁ **المبحث الثالث:** طبيعة الدراسة النصية.

❁ **المبحث الرابع:** موقف القدماء من التحليل النصى.

المبحث الأول

التعريف بمصطلح النص وعلم اللغة النصى

وأهم المصطلحات



تبرز أهمية هذا المبحث فى أن مصطلح النص"Text " وعلم اللغة النصى "Textual Linguistics"، قد تشعبت تعريفاتهما واختلفت، ولم يستقر علماء النص – فيما قرأت – على تعريف محدد، خاصة تعريف مصطلح " النص" كما سنرى.

وهذا أمر يفرض على البحث – فى أولى خطواته – العرض الموجز لأهم التعريفات، وذلك ليتسنى لنا الإلمام بها من ناحية، ومحاولة الوقوف على تعريف واحد نعتمده فى البحث من ناحية أخرى.

وقبل الشروع فى الحديث عن هذه المفاهيم، نشير بإيجاز إلى أهم من تحدثوا فى هذا العلم فى العصر الحديث منذ بداية النظرية.

تاريخ التحليل النصى "نظرة موجزة لتاريخ التحليل النصى"

فى الوقت الذى كان أعظم اهتمام لعلم اللغة بالجملة المفردة أو الجمل المفردة نشر زيلنج هاريس "Zelling Harris" بحثاً بعنوان "تحليل الخطاب" "Discourse analysis" 1952. واهتم بتوزيع العناصر اللغوية فى النصوص، والروابط Links بين النص وسياقه الاجتماعى. وقد لقى هذا البحث اهتماماً كبيراً حتى اليوم ... ثم دراسة دل هيمز "Dell Hymes" 1960، الذى ركز على الحدث الكلامى فى مواقفه الاجتماعية. ثم جاء فلاسفة اللغة مثل Ausim 1962، Searle 1969، Grice 1975 ... ثم هاليدى M.A.K. Halliday 1973 الذى قدم أعظم عمل فى تحليل الخطاب البريطانى وغير مفاهيم كثيرة فى المدرسة اللغوية ... ثم Sinclair and Coulthard 1975 ... ثم ظهرت أسماء كثيرة فى العلم مثل 1976 Goffman، 1979، Sacks and Jefferson 1974 ... و Van Dijk 1972 ... ثم تطور التحليل النصى كثيراً ليتعامل مع ما فوق الجملة، ويهتم

بالسياقات والمؤثرات الثقافية التى تؤثر فى اللغة المستعملة ثم الاهتمام بعلم اللغة التطبيقى وتعليم اللغة الثانية...."(١).

وجدير بالذكر أن الاختلاف فى التعريف بمصطلح "النص" ليس بدعاً فى الدراسات اللغوية، بل فى العديد من العلوم، خاصة فى بداية نشأتها، وهذا أمر طبيعى، أمر عدم الاستقرار على التعريف بالمصطلحات، وطبيعة العلوم، وأهدافها، ... وغيرها من الجوانب المتعلقة بكل علم.

والتعدد فى التعريف لمصطلح "النص" كما سيتضح، كان موجوداً كذلك فى التعريف لمصطلح الجملة"(٢).

وهذا التعدد يفرض علينا سؤالاً مؤداه: ما مدى استقرار مفهوم النص "واستقرار المصطلحات التى تنطوى تحت "علم اللغة النصى"؟

صعوبة تحديد مفاهيم علم اللغة النصى

إن أبرز دليل على هذه الصعوبة هو التعدد الهائل للتعريفات بهذا المصطلح "النص" ومن بعده مصطلح "علم اللغة النصى" غير أن الاختلاف يبرز أكثر فى تعريفات المصطلح الأول.

فقد ذكر أحد الباحثين، بعد ذكره لحوالى أربعة عشر مفهوماً لمصطلح النص، أنه "لا توجد مصاعب تواجه علماً من العلوم مثلما هى الحال بالنسبة لعلم لغة النص، حيث إنه، حتى الآن، وبعد مرور ما يربو على ثلاثة عقود

---

(١) انظر التفصيل:

Michael McCarthy "1993", Discourse Analysis for Language Teachers, Cambridge university Press, Great Britain, pp. 5 - 7.

(٢) عن مصطلح الجملة وتطوره، انظر: د. محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م، ص ١٨: ٢٨.

وعن مشكلة مصطلحات علم اللغة، انظر: د. / أحمد مختار عمر: المصطلح الألسنى العربى وضبط المنهجية، مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث (الألسنية)، ١٩٨٩، ص ٥: ٢٤.=

على نشأته الفعلية، لم يتحدد بدرجة كافية، بل إنه مسمى لاتجاهات وتصورات غاية فى التباين. ونتيجة لذلك فإنه لا يسود حول مقولاته وتصوراته ونظرياته الأساسية أى اتفاق بين الباحثين إلا بقدر ضئيل للغاية... وأبسط مثال يضرب فى هذا المقام عدم وجود قدر مشترك من ملامح التوافق حتى حول مصطلح "النص" ذاته، بل إننا نجد لدى باحث واحد بعينه، فى عمل واحد بعينه، فى أكثر من موضع عدداً من التعريفات، ويختلف محتوى كل تعريف عن الآخر ... "(١).

ومن المعروف أن التواصل بين العلوم أصبح سمة من سمات العلم، بصفة عامة، وعلم اللغة بصفة خاصة؛ فقد أصبح هناك تواصل بين علم اللغة وعلوم أخرى كثيرة مثل علم الاجتماع، وعلم الأجناس البشرية، وعلم الوراثة، وعلم الحياة العام، وعلم وظائف الأحياء ... إلخ. وكذلك علم اللغة النصى اتصل بدوره بعلوم الأدب والبلاغة والشعر والأسلوب وعلوم النفس والاجتماع والفلسفة وغيرها(٢).

= عرض فيه لمصطلح الألسنية، وواقع المصطلح الألسنى العربى، والاتجاهات السائدة لصوغ المصطلح، ووسائل ضبط المنهجية، وتوحيد المصطلح.

وانظر: د. / محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربى، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ص ٢٦: ٣٦.

(١) د. / سعيد بحيرى: علم لغة النص، مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة أولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ص١١٣.

(٢) عن العلاقة بين علم اللغة وغيره من العلوم، انظر: أ. د/ محمود السعران: المصدر السابق، ص ٧٣: ٧٥.

ب - د. / عبده الراجحى: النحو العربى والدرس الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨م، ص١٦١.

ج - د. / محمود فهمى حجازى: (١) مدخل إلى علم اللغة، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٢٩: ٣٠

(٢) علم اللغة العربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت، ص٥٧ .

د - د. / سعيد بحيرى: المصدر السابق، المقدمة، ص٤، ص٩٩.

وقد كان هذا الاتصال بين علم النص وهذه العلوم سبباً من أسباب صعوبة تحديد هذا العلم؛ فقد " شكلت تلك السمة الجوهرية حاجزاً مانعاً يصعب اختراقه، فلم يستقر بعد حول مفاهيمه أو تصوراته أو مناهجه .... ومما لا شك فيه أن تشعب اتجاهات البحث فى علم النص قد جعل مهمة تحديد ما توصل إليه هذا الفرع الجديد مهمة صعبة ...... وأكثر المشكلات وضوحاً مشكلة المصطلح الجوهرى الذى يقوم عليه ...."[١].

وقد لمسنا هذه المشكلة فى كثير من الأحيان؛ فاختيار مفهوم من بين عشرات المفاهيم غاية فى الصعوبة. وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد؛ فقد امتدت الصعوبة كذلك إلى المعايير التى تتحقق بها النصية؛ فالبعض يذكر معايير معينة، والبعض الآخر يذكر معايير أخرى. وكذلك تمثلت الصعوبة فى المنهج النصى نفسه ..... وهكذا.

فتعريف النص إذن، كما ذكر د. الأزهر الزناد، "مثل كل تعريف، أمر صعب، لتعدد معايير هذا التعريف، ومداخله، ومنطلقاته، تعدد الأشكال والمواقع والغايات التى تتوافر فيما نطلقه عليه اسم "نص""[٢].

والصعوبة لم تتمثل فى هذه الأمور التى ذكرها د. سعيد بحيرى، ود. الأزهر الزناد، بل تتمثل فى أمر آخر وهو أن نحويات النص "Grammars of the text" لم يكتمل تطويرها بعد[٣]. وهذا أمر آخر يجعلنا على درجة كبيرة من الدقة فى اختيار التعريف والمنهج، فعلى هذا الاختيار سوف يكون العمل التطبيقى فيما بعد.

---

(١) د. / سعيد بحيرى: المصدر السابق ، ص٤.

(٢) الأزهر الزناد: نسيج النص، المركز الثقافى العربى، بيروت، لبنان، طبعة أولى، ١٩٩٣م، ص١١.

(٣) جزيل فالانسى: النقد النصى، ترجمة د. / رضوان ظاظا، مجلة عالم المعرفة، الكويت، مايو ١٩٩٧م ص٢٤٧.

إذاً يكمن السر فى عدم استقرار مفاهيم النص وعلم اللغة النصى إلى عدة أمور:

أولاً: التماس بين علم اللغة النصى وغيره من العلوم. وإن كنا نرى أن هذا التماس الذى عُد سبباً من أسباب عدم الاستقرار، نراه ركناً أساسياً فى الدراسة النصية؛ فالنص يصدر عن نفسية معينة، ووسط مجتمع، وبرأى معين، وعبر وسط فيزيائى معين، وللتعبير عن مشاعر معينة أو رأى ما اتجاه قضية معينة ...ومن ثم وجب ارتباطه بعلوم النفس والاجتماع والفلسفة والفيزياء والأدب .... إلخ.

ثانياً: تعدد معايير هذا التعريف. هل هى معايير شكلية، أم معايير دلالية، أم شكلية، ودلالية معاً ... وغيرها من المعايير.

ثالثاً: عدم اكتمال تطوير نحويات النص؛ لأن عدم الاكتمال يعنى عدم اكتمال العلم. مع الإشارة إلى أن الكلمة الأخيرة فى أى علم من العلوم أمر صعب الحسم به. ولكن نقول على وجه التقريب لا الحسم النهائى بالكلمة الأخيرة.

ويمكننا بعد عرض هذه الأسباب أن نتعرض لبعض من مفاهيم مصطلح"النص" و"علم اللغة النصى" حتى نتمكن من اختيار مفهوم. يتلاءم مع طبيعة العلم بصفة عامة، وطبيعة، بحثنا بصفة خاصة.

أولاً : مفاهيم النص وعلم اللغة النصى

بادئ ذى بدء نشير إلى أن مصطلحات علم اللغة - فى الغالب - يقترب معناها اللغوى من معناها الاصطلاحى؛ إذ يدور الأول حول مجالات دلالية معينة يمكن من خلالها التقريب بينها وبين المعنى الإصطلاحى.

ومصطلح "النص" من بين مصطلحات علم اللغة، وأيضاً وجدنا معناه اللغوى يدور فى مادة " ن ص ص" حول الأمور التالية:

"النص: رفعك الشيء. نص الحديث ينص نصاً: دفعه. وكل ما أظهر، فقد نص، ونصت الظبية جيدها: رفعته. ووضع على المنصة أى على غاية الفضيحة والشهرة والظهور. والمنصة: ما تظهر عليه العروس لترى... ونصصت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض ... وأصل النص أقصى الشيء وغايته ... ونص كل شيء منتهاه ...[1] والنص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها ... ونص الحقاق منتهى بلوغ العقل...[1]." والنص هو صيغة الكلام الأصلية التى وردت من المؤلف (مو)[2].

من الملاحظ أن المعنى يدور حول محاور هى:

١- الرفع.
٢- الإظهار.
٣- ضم الشيء إلى الشيء.
٤- أقصى الشيء ومنتهاه.

ولا نريد أن نحمل النص أشياء لا ينطق بها، ولكننا نلاحظ أن الرفع والإظهار يعنيان أن المتحدث أو الكاتب لابد له من رفعه وإظهاره. لنصه كى يدركه المتلقى (المستمع أو القارئ) . وكذلك ضم الشيء، نلاحظ أن النص – فى كثير من تعريفاته – هو ضم الجملة إلى الجملة بالعديد من الروابط كما سنرى. وكون النص أقصى الشيء ومنتهاه، هو تمثيل لكونه أكبر وحدة لغوية يمكن الوصول إليها؛ إذ نعد النص ممثلاً للمستوى السادس من مستويات علم اللغة المتعارف عليها[3].

وقبل الدخول فى المفهوم الاصطلاحى " للنص" نقول إن هذه المفاهيم لا تخرج عن أحد المعايير التالية:

---

(١) و(١) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، مصر، د. ت ، مادة " ن ص ص".

(٢) مجموعة من علماء مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، د. ت، ٢/ ٩٢٦.

(٣) المستويات المتعارف عليها هى: الصوتى – الصرفى – المعجمى – النحوى – الدلالى، المستوى السادس الذى يقترحه الباحث يتمثل فى المستوى النصى Textual level. ss

- كون النص منطوقاً أو مكتوباً أو كليهما.

- مراعاة الجانب الدلالى.

- مراعاة التحديد الحجمى (طول النص).

- مراعاة الجانب التداولى.

- مراعاة جانب السياق، وهو متعلق بالمعيار السابق.

- مـــراعاة جـــانب التماســـك، وهو أهم المعايير التى يقوم عليها التحليل النصى.

- مراعاة الجانب الوظيفى للنص.

- مراعاة التواصل بين المنتج والمتلقى.

- الربط بينه وبين مفاهيم تحويلية، مثل الكفاءة والأداء.... وغيرهما.

- إبراز كونه مقيداً.

ونعد هذه المعايير سمات للنص الكامل، وإذا اختلت سمة من هذه السمات يمكن أن نطلق عليها نصاً ناقصاً. ولذا يمكن أن نعدها شروطاً ينبغى توفرها حتى يمكن أن نطلق عليه نصاً كاملاً.

ولحرص علماء اللغة على هذا الأمر، أكدوا التعريفات التالية للنص:

يرى هاليدى ورقية حسن أن "كلمة النص تستخدم فى علم اللغة للإشارة إلى أى فقرة Any passage ، منطوقه أومكتوبة Spokenor written، مهما طالت أو امتدت .... والنص هو وحدة اللغة المستعملة، وليس محدداً بحجمه ..... والنص يرتبط بالجملة بالطريقة التى ترتبط بها الجملة بالعبارة ... والنص لا شك أنه يختلف عن الجملة فى النوع.

وأفضل نظرة إلى النص أنه وحدة دلالية A Semantic Unit، وهذه الوحدة ليست شكلاً Form لكنها معنى Meaning. لذا فإنه – أى النص –

ويؤكد ديفيد كريستال David Crystal، فى تعريفه للنص، على الامتداد، وكونه منطوقاً أو مكتوباً، ثم يؤكد الوظيفة الاتصالية Communi Cative Function، ثم يذكر نماذج للنص مثل التقارير الإخبارية والقصائد، وإشارات الطريق وغيرها(١).

ويلاحظ أنه مثل للنصوص الطويلة بالتقارير الإخبارية والقصائد، ومثل للنصوص ذات الكلمة الواحدة، لكنها تحمل دلالة كاملة مثل النص الطويل، وذلك فى إشارة التحذير.

والتأكيد على السمة التواصلية للنص أمر طبيعى، وذلك لأن التواصل هو من خصائص اللغات بصفة عامة بين المرسل والمستقبل. وإن كانت اللغة ليست الوسيلة الوحيدة للاتصال بين بنى البشر(٢). والنص كذلك " هو التسجيل الحرفى للحدث التواصلى(٣).

ثم نرى أحد الباحثين قد جمع فى ثنايا أحد كتبه أكثر من أربعة عشر مفهوماً للنص، أغلبها يدور فى فلك التعريفات السابقة، بيد أن بعضاً منها يؤكد أموراً غير موجودة فيما سبق ذكره. منها نقله لتعريف هارفج بأن النص "ترابط مستمر للاستدالات السنتجميمية، التى تظهر الترابط النحوى فى النص" وهو بذلك يحدد خاصية الامتداد الأفقى للنص من خلال ترابط تقدمه وسائل لغوية معينة ... أما سميث فيشترط وحدة الموضوع الذى يدور حوله النص ... وفايفريش (...) يذكر أنه تكوين حتمى يحدد بعضه بعضاً(٤) ...

---

(2) David Crystal (1987), The Cambridge Encyclopedia of Language, Cambrdge university press, Cambridg, New - york, p.432.

(٢) نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، الكويت، الطبعة الثانية، نوفمبر ١٩٧٩، ص٣١.

(4) Gillian Brawn & Geargeg yule (1983), Discourse Anaysis, Cambridge university press, London & New york, p.19 ..

وانظر كذلك د. سعيد بحيرى: علم لغة النص، ص ١٠٦.

فالنص كل تترابط أجزاؤه ... وحده برينكر Brinker بأنه تتابع متماسك من علامات لغوية(٥) .... ويحاول برينكر فى تعريف آخر أن يدخل عنصر التماسك التداولى للنص ... (٦) ويعرفه آخر من خلال تركيب النص من عدة نصوص ... وهذا ما تحدثه عملية التناص Intertextuality إذ يمثل النص عملية استبدال من نصوص أخرى(٧).(١)

فقد أكدت هذه التعريفات الأخيرة ضرورة توفر عناصر الترابط بين أجزاء النص، وهذا ما سنناقشه فى الفصل الثانى. وأكدت وحدة الموضوع. ونتساءل: إذا كان النص يشتمل على عدة موضوعات، أيكون نصاً أم ماذا؟. وقد أكدت كذلك الناحية التداولية أو التماسك التداولى؛ بمعنى مراعاة صلة النص بالموقف متضمناً المرسل والمستقبل وقناة الاتصال. ثم التأكيد على الاستبدال من نصوص أخرى، وهو ما يسمى بالتناص.

ومن التعريفات الجامعة ذلك التعريف الذى نقله كل من د. سعد مصلوح ود. سعيد بحيرى عن "روبرت آلان دى بيوجراند" (...) و "الفجانج دلايسلار. أنه " حدث تواصلى يلزم لكونه نصاً أن تتوفر له سبعة معايير للنصية مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير:

١- السبك Cohesion أو الربط النحوى.

٢- الحبك Coherence أو التماسك الدلالى. وترجمها د. تمام حسان بالالتحام.

٣- القصد Intentionality أى هدف النص.

٤- القبول أو المقبولية Acceptability وتتعلق بموقف المتلقى من قبول النص.

٥- الإخبارية أو الإعلام Informativity أى توقع المعلومات الواردة فيه أو عدمه.

(١) (٤،٥،٦،٧) السابق، ص١٠: ١١٥.

٦- المقامية Situationality وتتعلق بمناسبة النص للموقف.

٧- التناص Intertextuality[(١)].

فهذه المعايير تركز على طبيعة كل من النص ومستعمليه (المتحدث والمتلقى) والسياق المحيط بالنص والمتحدثين. وهذا التعريف يجمع فى طياته - فيما نرى - أغلب مفاهيم النص السابقة.

ونميل إلى الأخذ بهذا التعريف الأخير، حيث إنه يراعى المتحدث أو المرسل والمستقبل، ويراعى كذلك السياق، وكذا يراعى النواحى الشكلية والدلالية. وإن كان ينقصه مراعاة طول النص، ونحن نؤكد أن النص ليس من الضرورى أن يكون ذا طول معين.

وهذه المعايير جميعها سوف نلاحظها - إن شاء الله - عند الدراسة التحليلية للسور المكية. وإذا كان هذا مفهوم "النص"، فما مفهوم العلم الذى يعالج هذا النص ؟

تعريف مصطلح علم اللغة النصى Text linguistics

فى الحقيقة لم أجد خلافاً حول هذا المفهوم بالصورة نفسها التى وجدت فى تعريفات مصطلح "النص".

---

(١) انظر أ - د سعد مصلوح: نحو أجرومية للنص الشعرى " دارسة فى قصيدة جاهلية، مجلة فصول، مجلد (١٠)، عددا، ٢ ، يوليو ١٩٩١، أغسطس ١٩٩١، ص ١٥٤.

ب - د. سعيد بحيرى، السابق، ص ١٤١ - ١٤٢.

ولمزيد من التفصيل، ومزيد من التعريفات انظر:

أ - د. صــــلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٦٤، أغسطس ١٩٩٢، الكويت، ص٢٥٢.

ب - جيزيل فالانسي: النقد النصى، ص ٢٣٨

ج - الأزهر الزناد: نسيج النص، ص، ١٢، ١٥، ١٦.

وانظر كذلك: النص والخطاب والإجراء، تأليف" روبرت دى بيجراند، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٨، ص ١٠٣ - ١٠٤.

وتتفق التعريفات تقريباً على أنه "فرع من فروع علم اللغة يدرس النصوص المنطوقة والمكتوبة ... وهذه الدراسة تؤكد الطريقة التى تنتظم بها أجزاء النص، وترتبط فيما بينها لتخبر عن الكل المفيد(١).

وكذلك هو الدراسة اللغوية لبنية النصوص(٢).

وإن كان ديفيد كريستال يذكر أن تحليل الخطاب Discourse Analysis" يرتبط بتحليل اللغة المنطوقة. بينما تحليل النص Text analysis يرتبط بتحليل اللغة المكتوبة ولكنه أكد بعد ذلك أن التحليل سواء أكان نصاً أم خطاباً فإنه يشمل كل الوحدات اللغوية المنطوقة والمكتوبة مع تحديد "الوظيفة التواصلية"(٣).

ويذكر Nils أن علم لغة النص يعنى – فى العادة – الدراسة للأدوات اللغوية للتماسك النصى، الشكلى والدلالى(٤). مع تأكيده أهمية السياق، وضرورة وجود خلفية لدى المتلقى حين تحليل النص(٥).

هذا وقد ألف Deborah Schiffrin كتاباً كاملاً بعنوان "Discourse markers" ركز فيه على تحليل الخطاب، وعرفه بأنه تحليل اللغة فى الاستعمال، وربط بين اللغة أو النص والمتلقى والسياق المحيط. غير أنه استخدم مصطلحات تحليل النص التى ذكرها غيره مثل هاليدى ورقية حسن

---

(1) Jack Richards, et al, Longman Dictionary of Applied Linguistics, P. 292.
(2) David Crystal, The Cambridge Encyclopedia of language, pp. 116. 432.
(3) *Ibid,* p 116 & Dictionary of Applied Linguistics pp. 83 - 84
(4) Nils Erik Enkvist (1987), Text Linguistics for the Applier: An orientation p. 26.
(5) A) *Ibid* pp.25 - 26.
ولم ير أن هناك فرقاً بين تحليل النص وتحليل الخطاب بل كلاهما واحد. P. 26.
B) Chalker and weiner, The Oxford Dicionary, P. 397.

وهذه المصلحات بدلالتها نفسها فى تحليل النص. وطريقة التحليل نفسها[1]. وعليه فالوسائل التى تستعمل فى التحليل النصى واحدة. فلا مبرر إذن لتقسيم اللغة إلى الخطاب والنص، فكلاهما فيما نرى لا فرق بينهما. ونؤثر استعمال واحد منهما للدلالة على التحليل اللغوى. نؤثر تحليل النص Text Analysi.

إذن علم اللغة النصى - فيما نرى - هو ذلك الفرع من فروع علم اللغة، الذى يهتم بدراسة النص باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة أهمها الترابط أو التماسك ووسائله، وأنواعه، والإحالة، أو المرجعية، Reference وأنواعها، والسياق النصى Textual Context, ، ودور المشاركين فى النص (المرسل والمستقبل). وهذه الدراسة تتضمن النص المنطوق والمكتوب على حد سواء.

أما الناحية التاريخية لهذا العلم (علم اللغة النصى) فهذا أمر ليس ذا أهمية شديدة حتى نستطرد فيه. ويكفى أن نعلم أن هذا العلم من الصعب أن ننسبه إلى عالم لغوى بعينه يمكن أن نعده رائد هذه المدرسة. ولكن الذى أكده الباحثون أن " أجروميه النص قد ولدت من رحم البنيوية الوصفية القائمة على أجرومية الجملة فى أمريكا، وكان مقال زيلنج هاريس Zelling Harris تلميذ بلومفيلد وأستاذ تشومسكى ثم مريديه فيما بعد عن "تحليل الخطاب" ... من معالم الطريق فى هذا الاتجاه. ثم شهدت اللسانيات منذ

---

(1) See:

A) Deborah Sciffrin (1988), Discourse markers, Cambridge University press, Cambridge, New york.

B) Micheal Stubbs (1983), Discourse Analysis: the Sociolinguistics Analysis of Natural Language, Basil Blackwell, oxford.

حيــث تحــدث عن التفاعل القائم بين النص والمتلقى، وعن البراجماتية التى تؤكد الصلة بين الــنص والسياق والمتحدث والمتلقى وعن علاقة تحليل الخطاب بعلم اللغة، وعن تنظيم الخطاب، وعن التماسك الشكلى والدلالى، وعن أدوات التماسك وغير ذلك.

منتصف الستينيات فى أوربا ومناطق أخرى من العالم توجهاً قوياً نحو الاعتراف بأجرومية النص بديلاً موثوقاً به لأجرومية الجملة ... (١).

وعلى الرغم من أن مصطلح "تحليل النصوص" كان معروفاً منذ فترة طويلة - على حد تعبير د. / صلاح فضل - وكذلك عبارة "تأويل النصوص" خاصة فى الدراسات اللغوية والنقدية ... فإن علم النص يطمح إلى شيء أكثر عمومية وشمولاً (٢).

المهم أن هذه الإسهامات الكثيرة فى مجال علم اللغة النصى منذ الستينيات وحتى الآن قد أفرزت جوانب مهمة ومعالم بارزة سوف نستفيد منها بصورة كبيرة، كما سيستفيد منها الكثير من الباحثين فى أبحاثهم النظرية والتطبيقية.

ثانياً: التعريف بأهم المصطلحات

تجدر الإشارة بداية إلى أن علم اللغة النصى، مثل غيره من العلوم، قد أفرز العديد من المصطلحات، منها ما هو مشترك بينه وبين مصطلحات علم اللغة بصفة عامة، ومنها ما اختص به دون غيره من فروع علم اللغة أما المصطلحات التى شارك فيها غيره من فروع علم اللغة فمنها " البنية العميقة" و"البنية السطحية" للنص، و"الأداء" والكفاءة"، وغيرها من المصطلحات التى شارك فيها" علم اللغة التحويلى" ومثل هذه المصطلحات لن نتعرض لها بالتعريف. ولكن ما نؤكد تعريفه المصطلحات الخاصة بعلم اللغة النصى، والتى تمثل صلب هذا العلم.

---

(١) د. سعد مصلوح: المرجع السابق، ص ١٥٣ نقلاً عن:

Teuon Van Dayk , Some Aspects of Text Grammar, monton, 1972, p. 26.

وانظر: برندشبلز: علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة د. محمود جاد الرب، الدار الفنية، للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص ١٨٥

(٢) د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص٢٤٧ - ٢٤٨.

وترجع أهمية التعريف الموجز بهذه المصطلحات إلى الرغبة فى تحديدها والاستقرار عليها للتمكن من الاستفادة منها فى الجانب التحليلى أو التطبيقى للبحث. وللرغبة أيضاً فى إبراز اكتمال هذا العلم، لأنه – كما ذكر – د. أحمد مختار عمر – " أول مظهر من مظاهر اكتمال العلوم واستقلالها وتكامل رصيدها هو إفرازها لثبتها الاصطلاحى الخاص بها"(١).

وقد لاحظ الباحث أن المصطلحات المستعملة فى مجال علم اللغة النصى، فى الغالب، لم يحدث اختلاف فى تعريفها، ومن ثم فسوف نعرض لتعريف واحد أو اثنين على الأكثر لكل مصطلح من هذه المصطلحات؛ وذلك لتمهيد ذهن القارئ للتعامل معها وفهمها قبل التعرض لها فى ثنايا الكتاب. ورغبة فى عدم التعرض لتكرار التعريف.

* **ونبدأ بمصطلح "Anaphora"**. وآثرنا ترجمته إلى الإحالة القبلية أو لما سبق ذكره فى النص. وهو أحد نوعى الإحالة الداخلية "Endophora" والنوع الثانى هو الإحالة البعدية أو اللاحقة، وهى لما سوف يأتى ذكره لاحقاً فى النص.

ومعنى مصطلح "Anaphora" هو "استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سابقة، فى النص أو المحادثة(٢). على سبيل المثال:

(١) د. أحمد مختار عمر: المصطلح الألسنى العربى وضبط المنهجية، ص٦.

(2) A) David Carter, (1987), Interpreting Anaphors in Natural Language textes, England, pp. 31 - 36.

B) Howard Lasnik, (1989), Essays on Anaphora, Boston, London, pp. 110 - 148.

C) Terence parsons (1994). "Anaphoric pronouns in very Late Medieval Supposition theory, Linguistics and philosophy, vol. 17, No. 5. October, 1994, pp. 429 - 445.

D) Guy Carden (1982), Backwords anaphora in Discourse Context, Journal of Linguistics, vol. 18, No 2, september, pp. 361 - 387. =

محمد ركب الدراجة، لكن علياً لم يركبها.

فالضمير "ها" يشير رجوعاً إلى "الدراجة"؛ وبهذا أُبدل الاسم بالضمير .. . وبعض الأفعال تمثل الوظيفة الإحالية نفسها، خاصة الفعل "Do" في الإنجليزية.

مثل: محمد صلى الفجر وكذلك فعل على.

فالفعل "فعل" يحيل رجوعاً لما سبق إلى الفعل " صلى"(١).

ومن الممكن أن تكون الإحالة بتكرار كلمة واحدة أو عبارة واحدة فى جملتين متعاقبتين(٢). وقد ذكر ديفيد كريستال أمثلة لهذه الإحالة بين الضمير والاسم الظاهر(٣).

وهذا النمط من الإحالة السابقة له أمثلة كثيرة جداً فى القرآن الكريم، كما سيتضح فى الفصول التطبيقية، وكما هو واضح فى الجداول الإحصائية(٤).

فوظيفة الإحالة إذن هى الإشارة لما سبق من ناحية، والتعويض عنه بالضمير، أو بالتكرار، أو بالتوابع، أو بالحذف من ناحية أخرى، ومن ثم الإسهام فى تحقيق التماسك النصى من ناحية ثالثة.

= E) Michael McCarthy (1983), Discourse Analysis for Language Teachers, Cambridge University press, great Britain, pp. 36 - 39.

F) Chalker & weiner, *Ibid,* pp. 24 - 25.

(1) See: A) Jack Richards, et al., *Ibid*, pp. 12 - 13.

B) David Crystal, The Camlridge Encyclopeia. , p.119 & p.415.

(٢) د. محمد على الخولى: معجم علم اللغة النظرى، مكتبة لبنان، بيروت، ط١ ، ١٩٨٢ ص ١٥

(3) A) David Crystal, *Ibid,* P. . 415.

ب – د. الأزهر الزناد: نسيج النص، ص١١٨

(٤) تم إعداد جداول إحصائية لهذه الأنماط وسوف يتم طبعها لاحقاً فى صورة معجم مفهرس لأدوات التماسك فى القرآن الكريم.

* **أما المصطلح الثانى**، فهو النوع الثانى من أنواع الإحالة الداخلية، وهو "**Cataphora**". ومفهومه عكس مفهوم المصطلح الأول. ونؤثر ترجمته إلى الإحالة البعدية إلى العنصر اللاحق. وأبرز أبواب النحو العربى توضيحاً لها " ضمير الشأن" كما ستيضح فى التطبيق. ويعرف علماء اللغة هذا المصطلح بأنه "استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سوف تستعمل لاحقاً فى النص أو المحادثة، ... (١)".

ومثاله قوله تعالى: (قُل هُو اللهُ أَحد) /١. الإخلاص. فالضمير "هو" يحيل إلى لفظ الجلالة "الله" ومثال الجمل والعبارات؛ الجمل التفسيرية التى تفسر جملة أو عبارة. كما فى أسماء السور، والجمل الأولى منها، بل أحياناً الكلمة الأولى منها، فهذا كله يحيل لما سوف يأتى فى النص. وإن كنا نرى أن الإحالة هنا متبادلة؛ فاسم السورة يحيل إليها، والسورة ترجع إلى الاسم. وسوف نفصل ذلك فى فصل المناسبة.

* أما مفهوم مصطلح "**Endophora**" فيترجم إلى الإحالة الداخلية، بمعنى العلاقات الإحالية داخل النص؛ سواء أكان بالرجوع إلى ما سبق، أم بالإشارة إلى ما سوف يأتى داخل النص. وهى عكس الإحالة الخارجية "Exophora".

"وهو مصطلح استخدمه بعض اللغويين للإشارة إلى علاقات التماسك The Relationship of Cohesion التى تساعد على تحديد تركيب النص، ... وتقسم إلى Anaphora و Cataphora" (٢).

---

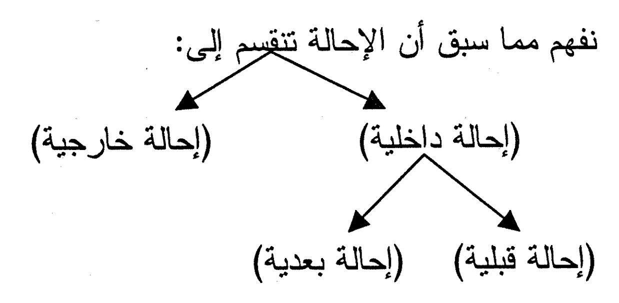
(1) A) J. Richards, et al., *Ibid*, p. 36 .
B) Michael mcCarthy, *Ibid,* pp. 43 - 46.
C) Chalker & weiner, *Ibid,* pp. 57.

(2) A) David Crystal: *Ibid,* pp. 119 & 42 .
............:Adictionary Of Liguistics and Phonetics, Oxford, 1986, P.1 .9
B) Chalker & weiner, *Ibid,* pp. 135 - 136.

بمعنى أن هذا المصطلح يركز على العلاقات بين الأنماط الموجودة فى النص ذاته، ولا تعنى بالعلاقة بين هذه الأنماط والأشياء الخارجية عن النص وقد تكون بين ضمير وكلمة، أو كلمة وكلمة، أو عبارة، أو جملة وجملة أو فقرة وفقرة وغيرها من الأنماط اللغوية.

*وعكس هذا المصطلح **Exophora**" الذى يترجم إلى الإحالة الخارجية، خارج حدود النص؛ إذ يشير هذا المصطلح إلى "الأنماط اللغوية التى تشير إلى الموقف الخارجى عن اللغة Extralinguistic Situation، غير أن هذا الموقف يشارك الأقوال اللغوية. ومن أمثلة تلك الأنماط المشيرة لما هو خارج النص That, There , Him. ومصطلح المرجعية، الخارجية، يقابل بمصطلح المرجعية الداخلية Endophoric Reference ... "(1).

ونرى أن هذا النوع من الإحالة يتوقف على معرفة سياق الحال، أو الأحداث والمواقف التى تحيط بالنص، حتى يمكن معرفة المحال إليه من بين الأشياء والملابسات المحيطة بالنص. وهذا من ثم، يبرز أهمية معرفة مناسبات النزول فى النص القرآنى؛ إذ كثيراً ما يغمض عود الضمير بسبب عدم معرفة هذه المناسبات.



(1) A) David Crystal, Adictionary., p.114
: The cambridge Encyclopedia, p. 119 & 420 .
B) Michael McCarthy, *Ibid,* pp. 39 - 41.
C) Hchlker & weiner, *Ibid,* p. 143.

* أما مصطلحا "Cohesion and Coherence" فهما يتصلان بالتماسك النصى داخل النص، ويرتبطان بالروابط الشكلية والدلالية. وهما يمثلان أساساً مهماً من أسس الدرس النصى. ولهما أدوات وأنواع، وطبيعة، وأهداف. ومن ثم آثرنا تخصيص فصل خاص، وهو الفصل الثانى، تحت عنوان "التماسك النصى.

* أما مصطلح "Collocation" فيعنى المصاحبات اللغوية بين أجزاء الجملة الواحدة، أو أجزاء النص. وهو "نوع من الاتساق المعجمى، وهو توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظراً لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك، مثال ذلك:

Why does this boy wriggle all the time ? Girls don't wriggle.

(ما لهذا الولد يتلوى فى كل وقت وحين؟ البنات لا تتلوى) فـ " الولد والبنات" ليسامترادفين، ولا يمكن أن يكون لديهما المحال إليه نفسه، ومع ذلك فإن ورودهما فى خطاب ما يسهم فى النصية.

فتوجد علاقة نسقية مثل التعارض - كما فى هذا المثال - إضافة إلى (الكل - الجزء) أو (الجزء - الجزء) أو عناصر من نفس القسم العام(*) (كرسى، طاولة)، على أن إرجاع هذه الأنواع / الأزواج إلى علاقة واضحة تحكمها ليس أمراً هيناً .. . لكن القارئ يتجاوز هذه الصعوبة بخلق سياق تترابط فيه العناصر المعجمية معتمداً على حدسه اللغوى وعلى معرفته بمعانى الكلمات وغير ذلك ... . "(١).

فالمصاحبة اللغوية إذن قد تكون بالتضاد، أو الترادف، أو الكلية والجزئية ... إلخ من العلاقات بين الكلمات وبعضها. وإن كنا نؤكد أن هذه العلاقة ليست داخل الجملة فقط، بل قد تكون بين كلمات فى جمل متباعدة كما سنرى.

---

(١) د. محمد خطابى: لسانيات النص، المركز الثقافى العربى، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص ٢٥.
(*) الصواب: القسم العام نفسه.

"والمصاحبة اللغوية تشير إلى الطريقة، التى يمكن من خلالها انتظام الكلمات معاً. وإلى القيود المستعملة لبيان كيفية تضام الكلمات معاً، مثل حروف الجر ومعمولاتها، والأفعال مع الأسماء ... إلخ" [١].

* ومن المصطلحات التى نرى أنها تشبه الإحالة مصطلح **"Reference"** أى المرجعية؛ فقد تكون إشارة ضمير إلى اسم أو عبارة اسمية متقدمة أو متأخرة. وهى وظيفة الإحالة نفسها كما رأينا. بل قد ربط علماء اللغة بينها وبين المرجعية القبلية والبعدية[٢].

هذا إضافة إلى معناها الفلسفى الذى يؤكد أنها العلاقة بين الكلمات والأشياء/ الموجودات Entities [٣].

وهناك مصطلح آخر يمثل أهمية بالنسبة لعلم النص؛ ذلك لأنه يربط بين المرسل والمستقبل والسياق المحيط، وهو مصطلح **"Pragmatics"** أى التداولية، وهى "الدراسة للتواصل اللغوى، بصفة خاصة، العلاقات بين الجمل والسياقات والأحوال التى استعملت اللغة فيها. وهى تدرس:

أ – كيفيـــة تفســير الأقوال المستعملة، أو اعتمادها على المعرفة بالعالم الواقعى المحيط بالنص.

ب–كيفية فهم المتحدثين للأحداث الكلامية Speech acts.

ج – كيفية تأثر تركيب الجمل بالعلاقة بين المتحدث والسامع[٤].

---

(1) A) J.Richards, et al., *Ibid*, p.46.
B) Chalker & weiner, *Ibid*, p. 7 .

(2) A) David Crystal, the cambridge Encyclopedia, p. 102 & p429.
B) ----------------, Adictionory., P. 260.
C) J.Richarcls, et al *Ibid*, P.241
D) Michael McCarthy, *Ibid*, p. 34 - 36.

(3) Ibid.

(4) انظر A) J.Richards, et al., *Ibid*, P. 225. =

والربط بين النص والأحداث المحيطة أمرُ مؤكد فى النص القرآنى؛ إذ نرى أن القرآن الكريم قد نزل مواكباً للأحداث. وتأثر النص القرآنى بالعلاقة بين "الله" تعالى المستقبلين لهذا النص الشريف، هذا التأثر واضح من حيث الفصاحة، فكان العرب أهل فصاحة وبيان، ومن ثم نزل القرآن بلغتهم (فصاحة وإعجازاً ... إلخ) وهذا انعكس على فهم المتحدثين للأحداث الكلامية الموجودة فى النص القرآنى(١).

* وهذا المصطلح يوصلنا إلى مصطلح آخر متصل به، وهو مصطلح **"Communication"** أى التواصل، وهو " تبادل الأفكار، والمعلومات، وغيرها بين شخصين أو أكثر. والحدث التواصلى يوجد عادة بين متحدث واحد أو مرسل Sender، على الأقل، والرسالة التى تنقل، والشخص أو الأشخاص الذين يستقبلون هذه الرسالة ... (٢).

وهذا – كما رأينا – من الشروط الأساسية فى تعريف النص؛ إذ طبيعة العملية النصية كلها هى (مرسل – مستقبل – قناة اتصال) وهذه طبيعة أى نص لغوى؛ إذ لابد من توفر هذه العناصر، وهى فى النص القرآنى أكثر

= ب – د. سعيد بحيرى: علم لغة النص، ص ١٠٩.

C) Anna Siewierska (1991), Functional Grammar, Routhedge, London, pp. 146-148.

D) Stephen c. Levinson (1987), “pragmatics & The Grammar of Anaphora: Apartial pragmatic reduction of Binbing & Cultural Phenomena”, Gournal of Linguistics, vol. 23. No. 2. Sptember, (1987), pp. 379 - 434.

حيث فصَّل الحديث عن البراجماتية وطبيعتها وعلاقتها بالمرجعية الخلفية.

(١) للحديث عن أهمية السياق المحيط بالنص، وبعض الأمثلة عليها انظر

Gunther Kress (1989), Linguistic Processes in Socicultural Practic, Oxford university Press, pp 18 - 19 .

(2) J. Richords, J.platt & H. weher, *Ibid*, pp. 48 - 50.

وضوحاً، فالتواصل من أبرز السمات الظاهرة بين "الله" تعالى، والرسول صلى الله عليه وسلم، ومن ثم جميع المبلغين. نعم ليس كله تواصلاً بالإيجاب، فقد كان هناك الرفض والشرك، وعدم القبول للأكثرية، وهذا لا يعنى عدم التواصل بين هذه الفئة المشركة والنص، بل على العكس، لقد كان رفضهم لهذه الدعوة قائماً على فهمهم لها، وأنها سوف تزلزل عقيدتهم الوثنية.

المبحث الثانى

أهمية الدراسة النصية



انطلقت النداءات بضرورة الخروج من بوتقة التحليل على مستوى الجملة إلى التحليل على مستوى أكبر هو التحليل على مستوى النص، انطلقت من الإحساس القوى بأن نحو الجملة لم يعد كافياً لإشباع حاجة المحلل اللغوى؛ إذ الجملة لا تقدم سوى الضئيل بالنسبة لما يقدمه النص؛ فما الجملة إلا جزء صغير بالقياس للنص، وما يقدمه النص يمثل المعنى الكلى، على حين الذى تقدمه الجملة يمثل جزءاً فقط من المعنى العام(١).

وهذا لا يجعلنا نطرح نحو الجملة خلفنا، بل العكس هو الصحيح؛ لأنه كما يمثل الحرف نواة الكلمة، والكلمة نواة الجملة، فكذلك الجملة تمثل نواة النص؛ فالنص عبارة عن متتاليات من الجمل فى الأغلب، بصرف النظر عن كونه جملة واحدة أو كلمة واحدة.

وكذلك معظم العلاقات النصية هى علاقات قائمة على العلاقة بين الكلمات داخل الجملة الواحدة، ثم بين الكلمات داخل عدة جمل. ونحن لسنا فى إطار الدفاع عن الجملة أو النص، ولكن العرض الموضوعى الذى يؤكد عدم الاستغناء عن أى منهما؛ فالثانى قائم على الأول. بيد أن النحو على مستوى الجملة لا يقدم العلاقات بين الجمل بصورة كافية كما يقدمها علم النص، وكذلك الجملة تمثل الدلالة الجزئية لا الكلية، إضافة إلى أن الجملة المجردة عن السياق لا تقدم شيئاً سوى معانٍ معجمية للكلمات الموجودة فى الجملة، على حين الوحدة النصية، فى الغالب فى وجود السياق، تقدم الدلالة الكاملة.

وإذا كان النحو العربى وغيره قد انطلقوا من نحو الجملة، وانحصرت التحليلات النحوية فى هذا الإطار، فإن هذا ليس قصوراً فيها، وإنما هو راجع إلى الأسباب التى من أجلها تم القيام بتقعيد اللغة؛ فقد كان من أهمها الرغبة فى تقويم اللسان فى نطق الجملة، ومن ثم كان الاهتمام بالقواعد التى تضمن

---

(١) وقد قارن روبرت دى بيجراند بين الجملة والنص بصورة تحتم ضرورة الخروج من إطار التحليل الجملى إلى التحليل النصى. انظر: النص والخطاب والإجراء، ص ٨٩ وما بعدها.

سلامة الجملة بمستوياتها المختلفة. إذن لم يرتبط الحكم بالصحة أو عدمها بالنص بل بالجملة ومكوناتها الصوتية والصرفية والمعجمية.

والواقع أن موقف البلاغيين كان غير موقف اللغويين؛ فقد انطلقت مباحث عديدة فى علم البلاغة من منطلق المعالجة النصية مثل الإيجاز والفصل والوصل وغيرهما. بل نظرية النظم نفسها أكدت التضام والاتساق بين الكلمة الأولى والثانية والثالثة ... إلى نهاية المعنى المراد. كما سنرى فيما بعد.

وتجدر الإشارة، فى هذا السياق، إلى دور المفسرين؛ فقد كان أبرز الأدوار فى المعالجة النصية، كما سيتضح، وهذا طبيعى؛ فعملهم يقوم أساساً على النظرة إلى النص القرآنى كاملاً؛ إلى درجة أنهم رأوا القرآن الكريم كالكلمة الواحدة؛ كله آخذ بعضه بيد بعض؛ فأكدوا التماسك الصوتى، والصرفى، والنحوى، والمعجمى، والدلالى، وكذلك التماسك النصى. وأيضاً أكدوا المناسبة بين حروف الكلمة الواحدة، وكلمات الجملة الواحدة، وجمل النص الواحد، ونصوص القرآن كله وهكذا.

ولأهمية النظرة النصية وجدنا هاليدى ورقية حسن يؤكدان أن "فهم اللغة يكمن فى دراسة النصوص "The Study of texts"[(١)].

وأكد غيرهما أنه كى نرسخ المنهج النصى فلابد إذن من حدوث "ما يشبه تغيير القبلة البحثية؛ وذلك بالانتقال بالنحو العربى (واللسانيات العربية بعامة) من ... أسوار الجملة إلى الكلام أو النحو (بالمفهوم الواسع للمصطلح) ليكون قادراً بوسائله على محاصرة النص ووصفه، والكشف عن علاقاته التى تتحقق بها نصية النص بما هو حدث تواصلى مركب، ذو بنية مكتفية بنفسها، قادرة على الإفصاح والتأثير والفعل"[(٢)].

---

(1) Halliday & R Hasan, Context and Text, p.5.

(٢) د. سعد مصلوح: نحو أجرومية للنص الشعرى، ص ١٥٣.

فالجملة إذن تمثل – فى غالب الأحيان – بنية غير مكتفية بنفسها؛ بمعنى أن الجملة المجردة تحتاج إلى جاراتها من الجمل حتى تتضح دلالتها وضوحاً كاملاً، وحتى يتحقق الإخبار والإعلام المقصود من وجود النص.

والنص يرتكز على الجملة – كما ذكرنا – ارتكازاً شديداً، ولا يمكن الفصل بينهما، "غير أن تجاوز نحو النص حدود الجملة فى التحليل يسمح بطرح إمكانات متعددة للفهم وفضاءات أوجب للتفسير .."(١).

وإذا كان السياق ينقسم إلى سياق اجتماعى أو سياق الحال، وسياق لغوى، فإن النص يمثل السياق اللغوى بالنسبة للجملة، ومن ثم تبرز أهمية عدم الفصل بينهما.

ولم يكن الاهتمام بنحو الجملة فقط من قبل النحويين العرب، بل كان محور اهتمام المدارس الوصفية، والتحويلية التوليدية حتى قبل ثلاثين عاماً من الآن تقريباً. ولكن بعد ذلك "عُدَّ علم لغة النص فى رأيهم تطويراً وتوسيعاً لعلم لغة الجملة ... وقد استطاع هاريس بمناهجه النصية المبكرة التى اعتمدها فى (تحليل الخطاب) تطوير المناهج البنائية فى تحليل الجملة"(٢).

وقد كان "الاتصال الوثيق بين كل من علم النحو وعلم البلاغة وعلم النقد وعلم الشعر أيضاً، من بين الأسباب التى أدت إلى الإحساس القوى بضرورة توسيع الدراسات القائمة على الجملة إلى دراسات ذات إطار أوسع يتمثل فى النص"(٣).

---

(١) د. سعيد بحيرى: من أشكال الربط فى القرآن الكريم، مقال من كتاب بعنوان " فولفديترش فيشر: دراسات عربية وسامية، مهداة من أصدقائه وتلاميذه بالجامعات المصرية" مركز اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٤م، ص١٤٢.

(٢) د. محمد العبد: اللغة والإبداع الأدبى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٨٩، ص٣٣

(٣) د. الأزهر الزناد: نسيج النص، ص٥.

فالشعر، على سبيل المثال، من بين أُسسه الفنية الوحدة العضوية، وهى تنطلق من مراعاة القصيدة كاملة لا مراعاة جزء منها أو جملة واحدة منها، ومن ثم برزت أهمية المعالجة التى تتخطى مجال الجملة إلى مجال أرحب هو مجال النص.

ومن بين هذه الأسباب كذلك، أن أوجه الترابط التى أفرزتها التحليلات على مستوى الجملة فقط لم تعد كافية لتغطية مستوى النص[١]. فعلى سبيل المثال الجملة الموجزة والجمل المفسرة لها، هذه لا تعتمد على الروابط الشكلية فى الجملة مثل (It) مثلاً (هو) و(هى) فى العربية، ولكن نعتمد على الدلالة كذلك التى تتولد من ربط الجملتين معاً.

ونرى أن من أسباب اللجوء إلى الدراسة النصية كذلك العلاقة بين فقرة وفقرة، ونص ونص، وهذا يبرز عند النظر إلى السور القرآنية؛ فلا يمكن إدراك هذه الصلة والترابط من خلال نحو الجملة، بل النظرة النصية كما بمفهومها الواسع.

---

(١) السابق ص١٦.

وانظر كذلك:

د. محمد خطابى: لسانيات النص، ص٢٩. ، برند شبلز: علم اللغة والدراسات الأدبية، ص ١٨٤، د. سعيد بحيرى: علم لغة النص، ١: ٥.

المبحث الثالث

طبيعة الدراسة النصية



فى الأعوام القليلة الماضية، بعد أن بدأت معالم علم اللغة النصى فى الوضوح، رأينا الكثير من علماء اللغة يتحدث عن وظيفة علم اللغة النصى، ورأينا التكرار الواضح فى بيان هذه الوظيفة، سواء أكان من علماء الغرب أم من علماء العرب. وقد استطعنا الجمع بين العديد من هذه الآراء؛ إذ يتفق معظمها على أن وظيفة علم اللغة النصى تنحصر فى أمرين أساسيين هما:

أولاً: الوصف النصى T. Description

ثانياً: التحليل النصى T. Analysis[1].

وجدير بالذكر أن المنطلق فى تحديد هاتين الوظيفتين هو أنه لا يمكن البداية بالتحليل دون الوصف؛ فيجب إذن توضيح مكونات النص ابتداء من الجملة الأولى، ثم بيان الموضوعات التى تناولها النص، وإدراج الدراسة الإحصائية تحت إطار الوصف من حيث بيان الروابط الموجودة بالنص .. . حتى نصل إلى بيان وظيفة هذه الروابط، حينئذ يبدأ التحليل النصى كما سنوضح فيما بعد.

والتحليل لا يعتمد على الروابط الموجودة بين أشتات النص الداخلية فقط، بل يتعداها إلى الروابط الخارجية، ومن ثم يبرز دور التحليل النصى فى بيان وظيفة السياق فى تفسير أبعاد النص التى قد تبدو متنافرة، فيقرب السياق بينها لتظهر جلية متجاذبة.

ويضيف بعض الباحثين أن هاتين الوظيفتين ينبغى ربطهما "بالتواصل"[2]. وهذا يفرض على عملية التحليل عدم إغفال دور القارئ أو المتلقى أثناء عملية التفكيك أى القراءة للنص.

---

(1) David Crystal: A) A Dictionary of Linguistics., p. 307.
B) The Cambridge Encyclopedia., p. 119.

ويقول فى تحديد مهمة علم اللغة النصى، فى المصدر الثانى: "مهمة التحليل النصى تكمن فى تحديد الصور اللغوية التى توجب اتساق المتتابعة".

(٢) انظر: أ - د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٤٧. =

إذن يمكننا ترتيب مهام علم اللغة النصى بصورة أخرى تتمثل فى:

أولاً: الإحصاء للأدوات والروابط التى تسهم فى التحليل.

ثانياً: الوصف لشكل النص، وموضوعاته، والوصف لهذه الأدوات والروابط.

ثالثاً: التحليل؛ بإبراز دور هذه الروابط فى تحقيق التماسك النصى. مع الاهتمام بالسياق، والتواصل.

وقبل أن نتعرض لطبيعة الدراسة النصية أو التحليل النصى يواجهنا سؤال مهم:

ما نوع النص الذى يمكن تحليله؟ وما طول هذا النص؟

فى الحقيقة توجد عدة أنواع من النصوص هى:

١- النص المنطوق. ٢- النص المكتوب.

٣- النص المفتوح. ٤- النص المغلق.

غير أننا قد وجدنا خلافاً ما حول النص المنطوق؛ أيندرج تحت التحليل النصى، أم يكون تابعاً لتحليل الخطاب؟، فقد رأينا من جعل النص هو الخطاب والخطاب هو النص، ومنهم من جعل النص يختص باللغة المكتوبة، والخطاب باللغة المنطوقة.

= ب - د. محمد العبد: اللغة والإبداع الأدبى، ص٣٣، حيث ركز فيه على إبراز مهمة علم اللغة النصى بتحليله لظواهر تركيبية نصية مختلفة مثل التماسك، والتطابق والحذف، الضمائر.. إلخ.

ج - د. سعيد بحيرى: علم لغة النص، ص ١٣١؛ إذ ينقل عن فان ديك قوله:

إن أهم مهمة لنحو النص هى صياغة قواعد تمكننا من حصر كل النصوص النحوية .. ومن تزويدنا بوصف للأبنية" ثم يربط هذه المهمة بمفاهيم تحويلية مثل الكفاءة اللغوية Competence، والإنتاج لعدد لا نهائى من النصوص، أى التوليد Generation.

ومن ثم فأصحاب الرأى الأول يجعلون النوعين الأول والثانى فى إطار تحليل النص لا تحليل الخطاب. وأصحاب الرأى الثانى يرفضون وقوع النص المنطوق فى هذا الإطار. ونحن نؤيد الرأى القائل بأن التحليل النصى يكون للنص المنطوق والنص المكتوب على السواء طالما توفرت فى أى منهما المعايير التى سبق أن ناقشناها فى المبحث الأول.

أما النص المفتوح Open text، فهو – كما ذكر هاليدى – مثل الوصفات الطبية المطولة، واللغة التى تدور بين الطلاب، ولغة الفصول فى المدارس بين الأساتذة والطلاب .. إلخ(١).

والنص المغلق Closed text فهو مثل الرسائل المستعملة فى خدمة الجنود بالقوات المسلحة، والتى ترسل خلال الأجهزة اللاسلكية .. أو إذا كانت رسالة عبارة عن: "عيد ميلاد سعيد، وأرجو إرسال ....، ومثل نصوص المناقصة والمزاد، ونصوص قوائم الطعام، و كورسات الموسيقى الإيطالية ... إلخ(٢).

ونلاحظ أن المعيار الذى حدد هاليدى على أساسه النوعيين الأخيرين، معيار الطول والقصر؛ فالنص إذا كان قصيراً يكون حينئذ مغلقاً، أما إذا كان طويلاً فإنه يكون مفتوحاً.

ويمكننا أن نضيف معياراً آخر للنص المفتوح والنص المغلق؛ وهو أن النص المغلق هو النص الذى اكتفى بنفسه ولم تدخل أى تداخلات أجنبية من نصوص أخرى؛ بمعنى آخر لم يحدث له عملية التناص Intertextuality. أما النص المفتوح فهو الذى حدث له تناص بالمساس بنصوص أخرى وإدراج بعضها فى النص، ومن ثم أصبح النص مفتوحاً على نصوص أخرى.

---

(1) (1) Halliday and R Hasan, Language, Context and Text, pp. 39 - 40.
(2) *Ibid.*

وهذا المعيار الذى أضفناه مبنى أو قائم على أساس رفض العلماء مبدأ الطول والقصر فى النص على أنه فيصل بين النص واللانص.

فقد أشار علماء اللغة النصيون إلى أن النص قد يكون جملة واحدة مثل الإنذارات والأمثال السائرة، وشعارات الإعلان عن السلع، وما يشبه ذلك. ومثلوا للنص الكامل ذى الجملة الواحدة بجمل مثل:

ممنوع التدخين — A – No Smoking

عجائب لا تنقطع — B - wonders never Cease !

أقرأ صحيفة الهيرالد كل يوم[1]. — C - Read the Herald every day.

ويمكن أن نضيف معياراً آخر، وهو أن النص المغلق هو النص ذو الدلالة الواحدة، أما النص المفتوح فهو النص ذو الدلالات المتعددة.

وبناء على ما سبق يكون التصنيف كالتالى:

١- النص المنطوق المفتوح. ٢- النص المنطوق المغلق.

٣- النص المكتوب المفتوح. ٤- النص المكتوب المغلق.

أما عن طبيعة التحليل النصى فتمكن فى التركيز على العناصر التالية:

أولاً: من أين نبدأ التحليل.

ثانياً: معنى التحليل.

ثالثاً: مستويات التحليل، وأدوات استقرار النص.

رابعاً: عناصر التحليل، وتتلخص فى:

---

(1) Halliday and R. Hasan, Cohesion In English, P. 7.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن النص قد يكون كذلك كلمة واحدة. وحين يكون كلمة واحدة أو جملة، فإن معايير التماسك والإحالة والاتساق لا تطبق بنفس الكيفية.

١- أهمية الجملة الأولى. ٢- الإحالـــــــــــة.

٣- التمـــــــــاسك. ٤- التواصل بين المتحدث والمتلقى والسياق.

هذا إضافة إلى وسائل التماسك التى سوف نبرزها فى الفصل الثانى وهى (وظيفة الضمائر، الإشارة، الصلة، الحذف، التوابع، التكرار، المناسبة ...)

أولاً: من أين نبدأ التحليل النصى :

يلاحظ أن هناك فى كل نص – فى الغالب – أمراً جوهرياً يظهر مضمونه فى أرجاء النص كلها. وكذلك توجد عناصر مهمة فى كل نص، يستطيع القارئ أن يحددها تبعاً لمعارفه واهتماماته.

هذا الأمر الجوهرى أو العناصر المهمة تسمى الأبنية الكبرى Macro – Structure أو Scheme وتعرف بأنها "التركيب المقدر الذى يفسر أو يعلل تنظيم النص أو الخطاب"(١).

وبناء عليه "يعتمد تفكيك النص إلى الوحدات المكونة له على الإدراك السليم لبنيته العليا، مما يعد شرطاً ضرورياً لتحليل علاقاته وضبط خواصه"(٢). فالنص عادة ما يتكون من كلمات وجمل، وعند التحليل لا يكفي أن نقول إن النص مكون من هذه الكلمات وتلك الجمل لأن هذا " لن يُسهم فى الكشف عن الخواص النوعية البنيوية المميزة للنص. كما أننا عندما نعمد إلى الكشف عن بنية مدينة لا نلجأ إلى اعتبار الأشخاص القاطنين فيها، ولا الحجرات التى يسكنونها، هى وحدات هذه المدينة. مع أن ذلك صحيح من الوجهة المادية المباشرة. إلا أن التقسيم المناسب من الناحية الوظيفية، والعمرانية للمدينة باعتبارها كذلك لابد أن يبدأ بوحدة "الحى" وموقعه ونوعية مبانيه وسكانه

(1) J.Richards, et al., Longmam Dictionary., p. 251.

(٢) د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٥٣.

وخدماته وشبكات اتصاله بغيره من المناطق ودرجة كثافته ... حينئذ نستطيع أن نصل إلى تحديد الأحياء وشخصياتها، والمدن وهياكلها العمرانية.

وكذلك الأمر في النصوص ... يعد التعرف على الأجزاء المكونة لها وظيفياً وبنيوياً شرطاً ضرورياً لإمكانية بحثها واكتشاف هيكلها. مما يجعل الاعتداد بالوحدات المادية المباشرة لها مثل عدد الأبيات في القصيدة الشعرية أو صفحات الرواية وأجزاء التحليل عليها انطلاقاً من هذا التصور الفقير فحسب تعمية لخواصها النوعية وإلغاء لوظائفها الفنية ووقوفاً عند مظهرها المادي الأولى. فالتحليل النصي إذن يبدأ من البنية الكبرى. Macro Structure المتحققة بالفعل. وهي تتسم بدرجة قصوى من الانسجام" [١].

والتقسيم الوظيفي يعني الوظيفة الدلالية التي تحمل المعنى العام، أما بقية الأحداث فيمكن إدراكها تبعاً لمعرفة طبيعة جنس النص الذي يحلل؛ فقوله تعالى: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ النمل/٢٨، كان من المتوقع القول بأن الهدهد أخذ الكتاب من سليمان عليه السلام ثم طار به، ثم ذهب إلى ملكة سبأ، ثم أعطاه إليها، فأخذته منه، ثم قرأته على الملأ من قومها، ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ النمل/ ٢٩، فإنه – سبحانه – حذف هذه الجمل التي يمكن إدراكها كلها من السياق العام للحدث، وأن هذه المحذوفات من البديهي أن تحدث في مثل هذا الحدث. وأن حذفها لا يترتب عليه نتائج في بقية القصة أو النص.

إذن يعتمد التحليل على الدلالة النصية على المستوى الأعلى الشامل للنص، ثم بعد ذلك يُنْظَر إلى هذه التتابعات الثانوية في النص[٢]. وهذا كثير

---

(١) د. صلاح فضل: السابق، ص ٢٥٣ – ٢٥٤ .

(٢) ويمكن إطلاق العناصر الإجبارية على العناصر الجوهرية في النص، لأنه لا يمكن الاستغناء عنها، وسوف يترتب عليها أشياء، ونطلق العناصر الاختيارية، على العناصر الثانوية، لأنه لوحذفت لما ترتب عليها شئ يمثل الأهمية التي في العناصر الإجبارية.

فى القرآن الكريم، كما هو واضح فى الجداول الخاصة بالحذف، والرابط بين هذه الأبنية الكبرى، والأبنية الصغرى المحذوفة رابط دلالى.

ونستنتج أن وظيفة الحذف نصياً ليس من ناحية الإبدال من الصفر فقط، بل كذلك فى أن العناصر المذكورة التى قد تبدو غير مترابطة.

إذن نبدأ بالنظر إلى الوحدات الوظيفية الشاملة، أى التى لها تأثير جوهرى فى بقية العناصر، ثم علاقتها ببقية العناصر الثانوية.

ونضيف ان التحليل يبدأ من معرفة الموضوع الأساسى الذى يعالجه النص، ثم نلاحظ الجوانب المحورية الأساسية أو الشاملة الموظفة لإبراز الموضوع الأساسى، ثم العناصر الثانوية. ثم نلاحظ بعد ذلك وسائل الإحالة، والتماسك والسياق .. . إلخ من العناصر النصية.

وهذا المبدأ، مبدأ كيفية بداية التحليل؛ من أين يبدأ، يجعلنا نؤكد دور المتلقى؛ فله دور بارز فى هذا التحليل؛ فهو الذى يظهر العناصر المفقودة بناء على السياق اللغوى والاجتماعى، ثم يربط بين المذكور والمفقود. وتظهر فى الأفق نقطة مهمة يمكن أن نبدأ التحليل من خلالها وهى "عنوان النص"، فهو أول ما يواجه المتلقى للنص، وهو كذلك سمة النص. ومن ثم يحتل مكانة مهمة فى التحليل، وكيف اتصل ببقية أركان النص، وما نمط التماسك والمرجعية، بينه وبين النص.

ثانياً: طبيعة التحليل النصى:

لقد أثارت قضية طبيعة التحليل النصى العديد من الأمور؛ أيعتمد التحليل على النص المنطوق دون المكتوب، أم عليهما معاً؟ أيشارك المستمع والقارئ كما يشارك المتحدث والكاتب فى عملية التحليل؛ بمعنى آخر أتشملهما عملية التحليل، أم تكتفى بالتحليل للنص أو الخطاب فحسب؟ وهل هناك علاقة بين النص والسياق فى عملية أو التحليل أم لا؟

لقد أكد علماء اللغة النصيون أن " تحليل الخطاب يعنى بالضرورة، تحليل اللغة المستعملة The analysis of languge in use . لذا، فإنه لا يقتصر على الوصف للأشكال اللغوية معتمداً على الأغراض أو الوظائف التى تسير إليها هذه الصيغ لتخدم الشئون البشرية ... "[١]. وبناء عليه لا تقف وظيفة المحلل عند فحص النص منفصلاً عن البيئة المحيطة، ولهذا أكد النصيون أن:

"المحلل يفحص استعمال اللغة فى السياق؛ إذ يركز على العلاقة بين المتحدث والقول فى مناسبة معينة، وتركيزه هذا أكثر من تركيزه على العلاقة بين جملة ما بجملة أخرى .. . والمحلل يصف ما يفعله المتحدثون والمستمعون، لا العلاقة بين جملة ما أو حروف الجر ... إلخ"[٢].

"والمحلل كذلك يهدف إلى معالجة النص بعمليات ديناميكية، للغة المستعملة للتواصل فى ضوء علاقته بالسياق ... "[٣].

ومن تعريفات "النص" و"علم اللغة النصى" تأكد أن اللغة المكتوبة والمنطوقة على حد سواء فى القابلية، للتحليل النصى. مع اختلاف طبيعة كل منهما.

وقد عرض المؤلفان لطبيعة التحليل النصى من خلال عدة آراء، أكدت كلها ضرورة دراسة اللغة فى ضوء العلاقة بين المتحدث والسامع/ الكاتب والقارئ والعالم المحيط أو السياق. ومن ثم أكدت هذه الآراء البراجماتية [٤].

---

(1) G. Brown & G. yule, Discourse Analysis, p.1

(2) *Ibid,* p. 27.

(3) *Ibid,* p. 26.

(4) (A) *Ibid,* p. 207.

(B) M.Stubbs, (1983), Discourse Analysis: The Sociolinguistic Analysis of Natural Language, Basil Blackwell, Oxford, p.1

إذ أكد فيه المؤلف أن تحليل الخطاب غامض جداً، ويعتمد على اللغة المكتوبة والمنطوقة، وربط اللغة بالسياق الاجتماعى عند التحليل؛ وأكد خاصية التفاعل Interaction بين المشاركين. =

إذن طبيعة التحليل اللغوى لم تقتصر على الدراسة الشكلية للنص وحدها، بل تعدت ذلك إلى إبراز دور المشاركين participants فى العملية اللغوية. وكذلك تتمثل طبيعة التحليل اللغوى للنص فى كيفية اختيار المبدع لأدواته اللغوية مثل الأدوات، الضمائر، والأزمنة، والتكرارات، والحذف، والمقابلات، والتفسيرات للجمل ... . إلخ. بمعنى أخر الاهتمام بالعلاقات الداخلية والخارجية.

ثالثاً: مستويات تحليل النص وأدوات استقراره:

عرفنا فيما سبق أن علماء اللغة قد قسموا مستويات التحليل اللغوى إلى الصوتى، الصرفى، النحوى، المعجمى، الدلالى. ويمكن جعلها مستويين فقط هما: المستوى الشكلى والمستوى الدلالى. وقد كان هذا التقسيم على مستوى الجملة، وذلك قبل نشأة الدراسات النصية.

أما على مستوى النص، فقد قسمت مستويات التحليل النصى إلى:

١- الدلالى (المعانى) – The Semantic (Meaning)

٢- المعجمى/ النحوى المعجمى (الأشكال)

– The Lexiciogrammatical (Forms)

٣- الصوتى [1]. -The phonological

ونظراً لأننا سوف نتعامل مع نص مكتوب فسوف يكون التركيز أكثر على المستويات الدلالية، والمعجمية، والنحوية. أما المستوى الصوتى؛ فلأنه يرتبط بالنص المنطوق أكثر إذ يعتمد على النبر والتنغيم .. وغيرهما فسوف لا نركز عليه.

(C) J.Riichards et al., *Ibid,* p 84.

(1) Halliday & R Hasan, Cohesion In English, p.5.

وإذا نظرنا إلى الفصول التحليلية التى سوف نتناولها، وإمكانية تصنيفها على المستويات التحليلية النصية، وجدناها كالتالى:

الموضوع	المستوى
الضمائر	النحوى، الدلالى
الإشارة	النحوى، الدلالى
الموصول	النحوى
الحذف	النحوى، الدلالى
التوابع	النحوى، الدلالى
التكرار	المعجمى، النحوى
المناسبة	الدلالى

وأيضاً إذا نظرنا إلى قضايا الإحالة أو المرجعية، والتماسك، وغيرها وجدنا أنها تتعامل فى ضوء هذه المستويات (النحوى – المعجمى – الدلالى). فالكلمة تتضام مع أخرى لتنتج الجملة، وكذا الجملة ترتبط بجملة أخرى ليتولد النص. وكل من الكلمة والجملة والنص يحمل دلالة.

أما السر فى ثبات النص بوصفه نظاماً، أو أدوات استقرار النص ورسوخه، فهى، فيما نرى، أدوات التماسك النصى التى ذكرها علماء النص، مثل أدوات العطف، والمرجعية، أو الإحالة، والإبدال، والحذف، والتكرار، والعلاقات المعجمية، والمقارنات، والجمل المفسرة ... وغيرها من الأدوات.

ومعنى هذا أنه فى وجود هذه الأدوات يحدث الترابط النصى، ومن ثم يصبح كالكلمة الواحدة، وحينئذ يحدث الرسوخ والاستقرار. إذن الاستقرار معناه ترابط وحدات النص شكلياً ودلالياً.

وقد ذكر أحد الباحثين أن "ثبات النص The Stability of The text بوصفه نظاماً يرجع إلى استمرارية الأقوال. وفكرة الاستمرارية هذه قائمة

على افتراض أن الأقوال المختلفة فى النص، والسياقات المحيطة، يربط كل منها الآخر ... فكل قول يساعد فى الوصول إلى بعض الأقوال الأخرى"[1]. فالترابط بين وحدات النص هو السر فى ثبات النص. ولكن ما أدوات استقرار النصوص؟

ذكر "كريستال" أن هذه الأدوات تتمثل فى أدوات التماسك، والتى ذكرناها فى الصفحة السابقة، وسوف نشرحها تفصيلاً فى الفصل الثانى. وذكر أن هذه الأدوات تفسر أو تشرح كيف أن جمل النص تترابط فيما بينها، وأنها تسهم فى بناء تتابع الجمل فى صورته التماسكية الكبرى[2].

ويضيف علماء النص عاملاً آخر من عوامل، استقرار النص أو أدواته، وهو عامل "التنغيم" Intonation"[3]. لكن هذه الأداة لا يبرز دورها - كما ذكرنا - إلا فى النصوص المنطوقة ونرجى شرح هذه الأدوات حين عرض عوامل التماسك النصى.

رابعاً: عناصر التحليل النصى:

بادئ ذى بدء نعرض لأهمية الجملة الأولى فى التحليل النصى؛ فالاستهلال يحتل مكانة بارزة من حيث أهميته من ناحية، ومن حيث علاقته ببقية أجزاء النص من ناحية أخرى، وتحكُّمه كذلك فى هذه الأجزاء.

ففى الغالب يُركز المرسل كل جهوده فى هذه الجملة؛ إذ يكون ما بعدها غالباً تفسيراً لها. وتمثل كذلك المحور الذى يدور عليه النص فيما بعد؛ إذ تتعلق الأجزاء الباقية من النص بالجملة الأولى بوسيلة ما. وهذا واضح فى النص القرآنى بصورة جلية كما سنوضح فى فصل المناسبة.

---

(1) Robert de Beaugrande & Wolfgang Dressler (1981), Introduction to Text Linguistics, longman,London, p. 48.

(2) David Crystal, The Cambridge Encyclopedia, p. 119.

(3) R. de Beaugrande & W. Dressler, Ib*id*, p. 49.

وقد أدرك القدماء والمحدثون أهمية الجملة الأولى فى النص، بل الكلمة الأولى فى الجملة؛ فيقول السيوطى: "وسُئل الشيخ .. عن الحكمة فى افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح، والكهف بالتحميد. . وأجاب ابن الزملكانى بأن سورة (سبحان) لما اشتملت على الإسراء الذى كذب المشركون به النبى صلى الله عليه وسلم، وتكذيبه تكذيبُ لله تعالى، أتى بـــ (سبحان) لتنزيه الله عما نُسب إليه ولنبيه من الكذب. وسورة الكهف لما أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخير الوحى نزلت مبينة أن الله تعالى لم يقطع نعمته عن نبيه ولا عن المؤمنين؛ بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة ..." [1].

وأما سورة سبأ فلما تضمنت ما منح سبحانه داود عليه السلام من تسخير الجبال والطير والريح وإلانة الحديد ناسب ذلك ما به افتتحت السورة من أن الكل ملكه وخلقه، فهو المسخر لها والمتصرف فى الكل بما شاء، فقال تعالى (أول سبأ): ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ وهذا أوضَح التناسب[2].

فالارتباط واضح بين افتتاح كل من هذه السور وبما يليها من موضوع السورة والقضايا التى تناقشها.

بل امتدت معرفة القدماء لأهمية الجملة الأولى إلى الأحرف المقطعة فى بداية السور؛ "فمن ذلك ... اختصاص كل سورة بما بدئت به، حتى لم تكن ترد (ألم) فى موضع (آلر) ولا (حم) فى موضع (طس)، قال [الزركشى] وذلك أن كل سورة بدئت بحرف منها؛ فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له، فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الوارد فيها .. . فسورة "ق" بدئت به لهما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف .. . وقد تكررت الراء فى سورة

(١) السيوطى: معترك الأقران، ١/٨٢

(٢) السابق ١/٨٤



"يونس" فى الكلام الواقع فيها إلى مائتى كلمة أو أكثر، فلهذا افتتحت بالراء. واشتملت سورة "ص" على خصومات متعددة، فأولها خصومة النبى صلى الله عليه وسلم مع الكفار ... ثم اختصام الخصمين مع دواد، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى، ثم تخاصم إبليس فى شأن آدم، ثم فى شأن بنية وإغوائهم[1]. فالخصومات كلها تحتوى على حرف الصاد، وفى هذا تناسب واضح. ويعرض أيضاً لما فى افتتاح سورة الأعراف قائلاً: "وسورة الأعراف زيد فيها الصاد على (آلم) لما فيها من شرح القصص:

قصة آدم فمن بعدد من الأنبياء، ولما فيها من ذكر ﴿فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ الأعراف أية(٢) ولهذا قال بعضهم: معنى المص: ألم نشرح لك صدرك .. . وفى العجائب للكرمانى: إنما سميت السور السبع "حم" على الاشتراك فى الاسم لما بينهم من التشاكل الذى اختصت به؛ وهو أن كل واحدة منها استفتحت بالكتاب أو صفة الكتاب ... [2].

ولم يقف أمر التحليل – فيما نرى – عند حد الجملة الأولى فحسب، بل تعداها إلى عنوان النص، وسوف يتأكد ذلك جلياً فى التحليل التطبيقى، خاصة حين مناقشة التماسك بين اسم السورة من ناحية وبين السورة نفسها من ناحية أخرى. إذ تعددت أسماء السور تبعاً لمعايير كثيرة ومتنوعة.

---

(١) السابق ١/ ٧٠ – ٧١.
(٢) السابق ، ١/٧٢، ٧٤.

وهذا الأمر فى القرآن الكريم فيه من العجائب والإعجاز ما يحتاج من عقل القارئ له التفكير والتأمل وطول النظر. وسوف نوضحه بصورة أوسع فى فصل المناسبة.

والأكثر من مراعاة أهمية الجملة الأولى، رأينا اهتمام السيوطى والنحاس وغيرهما بمراعاة القرآن الكريم البداية بسورة "الفاتحة"؛ فيقول السيوطى: "قال الطيبى: وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصّلاً، فإنها واقعة فى مطلع التنزيل، والبلاغة فيه: أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله ..."(١).

إذن الكلمة الأولى، والجملة الأولى، بل السورة الأولى بالنسبة للنص القرآنى، لكل من هذه الأمور وظيفته الترابطية فى النص. ولم يكن موقف المحدثين مُخالفاً لموقف القدماء، بل أكدوه؛ فيذكر أحد الباحثين المحدثين أن "الجملة الأولى فى أى نص تمثل مَعْلَماً عليه يقوم اللاحق منها ويعود. وداخل تلك الجملة نفسها يمثل اللفظ الأول منها معلماً تقوم عليه سائر مكوناتها. فالمسند يقتضى المسند إليه، وهذا الأخير يقتضى الأول، وهما معاً يقتضيان متممات، فهذه حلقة أولى تنتهى دون أن تنغلق على نفسها، فهى مستقلة من حيث التركيب، ولكنها منطلق فى كل شيء لما يأتى بعدها من حلقات هى جمل أخرى، وبين هذه الحلقات علاقات تخالف فى نوعها العلاقات التى تحكم انتظام الجملة الداخلى، فهى علاقات انتشارية أفقية تضيف جديداً من حيث الإخبار أو البيان، ولذلك توصف الحلقة إلى جانب الأخرى لتكون عالماً ممتداً هو عالم النص ...."(٢).

---

(١) انظر: أ- السيوطى: تناسق الدرر فى تناسب السور، تحقيق د. عبدالقادر عطا بعنوان: أسرار ترتيب القرآن، سلسلة نوادر التراث، ط٢، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٨م، دار الاعتصام، مصر، ص ٧٥.
ب- النحاس: معانى القرآن الكريم، تحقيق محمد على الصابونى، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، جامعة أم القرى، مكة، مركز إحياء التراث الإسلامى، ١/٤٨- ٤٩.

(٢) الأزهر الزناد: نسيج النص، ص ٦٧، ١٧٠، ١٧١.

وكذلك فى البنية الزمانية "يحكم الفعل الرئيسى ... الأزمنة كلها فى الأفعال أو غيرها ... وفى الإحالة يحكم العنصر الإشارى العناصر الإحالية المتعلقة به كلها ..."[١].

نلخص ذلك بأن الأهمية تكمن فى:

١- الجملـــــة الأولى.

٢- الفعـــــــل الأول.

٣- الزمن الإشارى الأول.

٤- وأضاف علماء العربية - كما رأينا - الحرف الأول مثل (ق) و(ص) وغيرهما.

٥- عنوان النص[٢].

والجملة الأولى وأهميتها أمر يجليه الجانب التطبيقى فى الجزء الثانى من الكتاب.

- أما العنصر الثانى من عناصر التحليل النصى، فهو عنصر الإحالة أو المرجعية. وقد عرفنا معناها، وأنواعها فيما سبق. ونركز هنا على أهميتها، ودورها فى تحقيق التماسك النصى.

وقبل ذلك نود أن نشير إلى أن هناك صعوبة واجهها الباحث، عند دراسته للإحالة - خاصة مرجعية الضمير - فى النص القرآنى، وهى أن المحال إليه قد يكون واحداً معيناً، وهذا لا غموض فيه، ولكن قد يكون المحال إليه متعدداً، وهنا تبرز المشكلة: إلى أى من هذه يعود الضمير؟

وقد وجد الباحث الحل - كما سيتضح فى فصل الضمائر - فى معرفة السياق اللغوى والسياق الاجتماعى المحيط بالنص حتى يمكن معرفة إلى أى شيء يعود الضمير. ومن هنا تبرز أيضاً أهمية دراسة السياق وعلاقته بالنص.

(١) د. سعيد بحيرى: من أشكال الربط فى القرآن الكريم، ص١٤٥.

(٢) من الواجب أن يكون ترتيب عنوان النص فى المركز الأول.

أما مستويات الإحالة فقد لخصها الباحثون فى مستويين أساسيين هما:

المستـــوى الأول: مســـتوى خارجى يقوم على وجود ذات المخاطب خارج النص وتتوفر فيه إحالة على خارج اللغة.

المستوى الثانى: مستوى داخلى يختص بالنص المدروس، وعناصر الإشارة تحيل إلى عناصر موجودة داخل النص، والإحالة هنا تكون لغويـــة(١). وهـــذا ما ذكرناه فى تحديد أنواع الإحالة، وأن النوع الثانى ينقسم إلى: إحالة قبلية، وإحالة بعدية.

وهناك المستوى ثالث: أشار إليه د. الزناد وهو:

"الإحالـــة النصـــية" وهى إحالة عنصر معجمى على مقطـــع من الملفوظ أو النص، وتؤديها ألفاظ من قبيل "قصة"، "خبر" "رأى"، " فعل" ...(٢).

ونرى أن هذا المستوى يندرج تحت "الإحالة الداخلية"؛ فالكلمة مثلاً عندما تحيل إلى قطعة من النص، فإن هذه تسمى" إحالة خارجية"(٣).

---

(١) انظر: أ – د. سعيد بحيرى: من أشكال الربط، ص ١٤٩.

ب– د. الأزهر الزناد: نسيج النص، ص ١١٨– ١١٩.

C) Halliday & R Hasan, Cohesion in English, p. 304.

(٢) د. سعيد بحيرى: من أشكال الربط، ص ١٤٩ .

(٣) وإذا كـــانت هـــذه هى طبيعة الإحالة الخارجية بصفة عامة، فما طبيعة الإحالة الخارجية فى الـــنص القـــرآنى؟ يـــرى د. سعيد بحيرى أنها "تقوم على وجود ذات المخاطب خارج النص، وينســحب ذلـــك عـــلى كل الضمائر المستخدمة للإشارة إلى الذات الإلهية (ضمير المتكلم أو الغـــائب)، فـــهى الذات المحورية، التى تدور حولها كل الذوات الأخـــرى الواردة فى النص، وتوجـــه كلها إلى تنفيذ الأفعال المنوطة بها. ولذلك تكون كل الإحالات اللغوية التى يعمل فيها عامل الإحالة على المستوى الداخلى متداخلة مع الإحالة الخارجية تداخلاً شديداً يصعب الفصل بينهما..." من أشكال الربط، ص ١٦٥.

هذا الرأى بصفة عامة، ولكن إذا نظرنا إلى القصص القرآنى على سبيل المثال، نلاحظ أن هناك ذاتـــاً محورية إليها، وهى ذات صاحب نفسه. وكذلك فى أماكن أخرى؛ مثلا حين نقـــرأ وصف =

والإحالة - كما أشرنا - تمثل وسيلة من وسائل التماسك النصى، ومن ثم تتمثل أهمية الإحالة فى "إنشاء التماسك الدلالى للنص ... فالإحالة من العناصر المؤثرة فى تماسك النص"(١).

وأهمية الإحالة فى تحقيق التماسك الدلالى للنص صادر أساساً من منطلق أن الإحالة شيء رابط دلالى ... لا يطابقه أى رابط بنيوى آخر"(٢).

وبالطبع ليست الإحالة فقط هى التى تقوم بدور فعال فى تماسك النص وتماسكه، "بل يوجد عامل تركيبى، وعامل زمنى"(٣).

أما العنصر الثالث من عناصر التحليل النصى فهو قائم على العنصر السابق، فأهمية الإحالة تحقيق التماسك، والتماسك أو التماسك هو العنصر الثالث. فى الحقيقة لا نريد أن نحمل النصوص فوق طاقاتها، لكننا لاحظنا فى نص مهم لسيبويه أنه يعبر عن عملية التماسك هذه، خاصة بين المسند والمسند إليه، وهما يمثلان ظاهرة بارزة من ظواهر التماسك، خاصة على مستوى الجملة؛ إذ تكاد أبواب النحو كلها تقوم على هذه العلاقة (المسند والمسند إليه والمتعلقات).

لذلك رأيناه يقول. تحت باب "المسند والمسند إليه": " وهما ما لا يغنى (يستغنى) واحدُ منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدا. فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنى عليه ... والفعل والفاعل ...."(٤).

= المؤمنين فى سورة "المؤمنون" نجد أن الضمائر كلها تحيل إلى الذات المحورية وهى "المؤمنون"... وهكذا. هذا بصرف النظر عما إذا كانت هذه الذوات تحقق المنوط بها أم لا.

(١) السابق، ص ١٥٥.

(٢) د. الأزهر الزناد: نسيج النص، ص ١٢١.

(٣) انظر: أ - الأزهر الزناد: المصدر السابق، ص ١٢٣- ١٢٤.

ب- د. سعيد بحيرى: المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٤) سيبويه: الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ١/٢٣

وهذا هو معنى التماسك بمعناه الشامل؛ عدم استغناء الأول عن الآخر، والعكس عدم استغناء الآخر عن الأول. وإن كان هذا على مستوى الجملة، فإنه المفهوم نفسه على مستوى الجمل المتجاورة المتباعدة، سواء أكانت المسافة بينها متقاربة أم متباعدة كما سنرى.

وإن كانت علاقة الإسناد هى الأساس الذى تبنى عليه الجمل، فإن العلاقة بين جمل النص تتعدى هذه العلاقة إلى علاقات أخرى تختلف عن الإسناد الجملى. والتأكيد على العلاقة الترابطية، الإسنادية أكده علماء النص المحدثون كذلك؛ فأطلقوا الموضوع (المسند إليه) Topic على المعلومة المذكورة سلفاً فى النص، أما المحمول (المسند) أو الخبر Predicate فهو المعلومة الجديدة فى النص[١].

ونسأل: هل هذا يعنى أن علاقة الإسناد تتعدى مستوى الجملة الواحدة إلى العديد من الجمل المتتابعة؟

نقول نعم؛ فمن الممكن أن يأتى المسند إليه فى الجملة الأولى، ثم تأتى المسندات المتعددة فى الجمل التالية للجملة الأولى؛ فمثلاً: محمدٌ خرج من البيت، ثم ركب السيارة، ثم ذهب إلى العمل، وأنجزه على أكمل وجه، ثم ذهب بعد العمل إلى السوق، واشترى احتياجات بيته، ثم رجع إلى البيت.

فالمسند إليه واحد وهو (محمد) والمسندات عديدة (خرج، ركب، ذهب، أنجز، ذهب، اشترى، رجع)، وكل هذه المسندات مرتبطة دلالياً ارتباطاً وثيقاً بالمسند إليه، ومن ثم فهناك تماسك بين هذه الجمل المتعددة من خلال إدراك علاقة التماسك النحوى والدلالى بين المسند إليه والمسند. فالذى حقق التماسك بين هذه الجمل العلاقة القائمة بين المسند والمسند إليه.

---

(١) برند شبلنر: علم اللغة والدراسات الأدبية، ص ١٨٥.

وقد ذكر الرضى فى شرح الكافية أن الإسناد رابطة، انظر شرح الكافية، ٨،٩/١.

وانظر: شرح المفصل لابن يعيش، ٨٣/١ وما بعدها (مبحث المبتدأ والخبر).

وهذه الظاهرة الإسنادية فى القرآن الكريم كثيرة جداً، خاصة عند حديث القرآن عن الأفعال المسندة إلى ذات الله تبارك وتعالى؛ فالمسند إليه حينئذ واحد وهو "الله تعالى" والمسند هو الأفعال الموجودة فى بقية النص، كثرت أو قلت. على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا. وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ...﴾ الكهف / ١: ٥

فالمسند إليه هو (الله) والمسندات هى (أنزل، يجعل، ينذر، يبشر، ينذر) بصرف النظر عن إمكانية إسناد الأفعال الثلاثة الأخيرة إلى الكتاب لا إلى (الله) تعالى.

وكذلك قوله تعالى فى سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ.﴾ الرحمن / ١: ٤، فالمسند إليه هو (الرحمن) سبحانه وتعالى، والمسندات تتمثل فى (علم، خلق، علمه).

وهذه الرابطة نحوية دلالية، ومن ثم جعل علماء اللغة النصيون طبيعة التماسك تتمثل فى كونه يعنى "الصلابة والوحدة والاستمرار، ويمثل أحد المظاهر الضرورية لضمان الطابع العلمى لأية نظرية أو جسم للبحث. فالتماسك هو الذى يبرز خواص أى نظام للتفكير، سواء كان نظرية أو نصاً. وهو خاصية دلالية تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص فى علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى" (١).

---

(١) ارجع إلى:

أ – د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٥٢، ص ٢٦٣.

ب– د. سعيد بحيرى: علم لغة النص، ص ١٢٠– ١٢١.

C) Halliday & R .Hasan, Context and Text, p. 91.

ج– حيث ذكر مثالاً تطبيقياً وضح فيه معنى تفاعل سلسلة النحوية، داخل النص، خاصة بين المسند إليه Girl والمسند Walk, Went، got. =

وسوف تتضح هذه العلاقة أكثر فى الفصول التحليلية؛ فهى كلها فى النهاية تمثل وسائل التماسك النصى. وتبرز أهمية التماسك فى أن " الكلام لا يكون مفيداً إذا كان مجتمعاً بعضه مع البعض الآخر دون ترابط"(١). لأنه إذا أصبح الكلام خالياً من التماسك أصبح - كما ذكر ابن يعيش فى شرحه لمفصل الزمخشرى - فى حكم الأصوات التى حقها أن ينعق بها غير معربة، لأن الإعراب لا يستحق إلا بعد العقد والتركيب"(٢).

وكذلك تهدف وسائل التماسك كلها إلى "وضوح العلاقة فى الجملة، وعدم اللبس فى أداء المقصود منها، وعدم الخلط - كذلك - بين عناصرها..."(٣). ولذا توصل علماء النص إلى الإجماع؛ إذ "يتفق علماء النص على أنه - أى التماسك - عنصر جوهرى فى تشكيل النص وتفسيره .."(٤).

إذن أهمية التماسك تكمن فى:

١- جعل الكلام مفيداً.

٢- وضوح العلاقة فى الجملة.

٣- عدم اللبس فى أداء المقصود.

٤- عدم الخلط بين عناصر الجملة.

وقد ذكرنا فيما سبق أن التماسك من عوامل استقرار النص ورسوخه، ومن ثم تتضح أهميته فى تحقيق استقرار النص؛ بمعنى عدم تشتيت الدلالات الواردة فى الجمل المكونة للنص.

= د - د. محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، دار الشروق، مصر، ط١ ١٩٩٦م، ص٨٢.

(١) د.حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، ص ٧٤.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل، ٨٣/١، والنص للزمخشرى ثم شرحه ابن يعيش.

(٣) د. حماسة: المصدر السابق، ص ٧٤.

(٤) د. سعيد بحيرى: السابق، ص١٤١.

وقد أكد القدماء دور التماسك وأهميته، كما سنوضح بعد قليل. ولتحقيق هذا التماسك حصر علماء اللغة وسائله فى أبواب نحوية مثل العطف والفصل والوصل والترقيم وأسماء الإشارة وأدوات التعريف والأسماء الموصولة والحال والزمان والمكان، والإعراب والرتبة والإسناد[1].

وملخص القول فى هذه الوسائل - كما ذكرنا - أن النحو العربى قام على علاقة الإسناد، وعلاقة العمل والتأثير؛ ومن ثم جاء الارتباط؛ حيث لا يمكن أن يستغنى المسند عن المسند إليه، وكذلك العامل لا يستغنى عن المعمول. غير أن هذه العلاقات التى ذكرها النحويون خاصة بالجملة فقط.

ونستطيع تقسيم هذه الوسائل إلى نوعين:

الأول: وسائل تماسك داخلية مثل العطف والفصل والوصل والترقيم وأدوات التعريف والأسماء الموصولة والحال والزمان والمكان والرتبة والإسناد. وهذه كلها نلاحظ أن دورها يقتصر على إحداث التماسك الداخلى فى النص.

الثانى: وسائل خارجية: مثل المرجعية، أو الإحالة، والإشارة. وهذه تسهم فى الربط بين ما يوجد داخل النص وما يتصل به من خارجه.

وهذه الوسائل قد تكون معنوية أو دلالية، وقد تكون لغوية أو شكلية، وقد تكون كذلك معنوية ولغوية معاً. وقد مثل د. حماسة للنوع الثالث بالفعل الذى يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل وذكر أن " الجانبين المعنوى واللفظى يتعاونان فى تماسك المفعول به مع فعله وفاعله ..."[2].

---

(١) انظر: أ - سعيد بحيرى: السابق، ص ١٢٠- ١٢١.
ب- د. حماسة: السابق، ص ٧٤ وما بعدها.

(٢) د. حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، ص ١١٧.
وقد جعلها أحد علماء اللغة، إضافة إلى الحذف والإبدال والعطف، روابط نحوية. انظر:
Michael McCarthy, *Ibid*, pp. 35- 51 .

وقد جعل د. الأزهر الكيفية التى تجعل من الجمل المشتقة كائناً واحداً مفرداً هى النص، تتمثل فى محورين:

الأول: محور التتابع أو الخطية فى الخطاب.

الثانى: محور الاندراج أو التركيب الداخلى فى الجمل(١).

ونضيف وسيلة أخرى من وسائل التماسك المهمة، وهى السياق المحيط بالنص؛ إذ العملية النصية عبارة عن مرسل ونص ومستقبل وسياق محيط.

أما محاور التماسك الموجودة فى النص القرآنى، مجال التحليل، فهى:

١- محور التماسك بين الكلمة وجاراتها.

٢- محور التماسك بين الآية وما يسبقها وما يليها.

٣- محور التماسك بين فقرات السورة.

٤- محور التماسك بين السورة وما يليها وما يسبقها.

٥- محور التماسك بين أول السورة وآخرها.

أيعتمد هذا التماسك على وجود روابط موجودة أم لا؟ وكذلك هل هذه الروابط تتماثل مع الوقائع التى تشير إليها القضايا التى يعبر عنها النص؟ بمعنى آخر هل هناك شروط معينة تحكم عملية التماسك ؟

إجابة هذه الأسئلة تقتضى التمثيل بأمثلة، كالتالى :

(١) أ - محمد غير منافق، فهو إذن لا يكذب فى الحديث.

ب- محمد غير منافق، فهو إذن يذهب إلى المسجد.

ج- محمد غير منافق، فالقاهرة إذن عاصمة مصر.

ويذكر د. محمد خطابى أمثلة مشابهة، لكنها نقلاً عن هاليدى، ويعلق عليها بقوله:

---

(١) د. الأزهر الزناد: نسيج النص، ص ٣٥ وما بعدها.

"فالجملة الأولى مقبولة، والثانية أقل مقبولية، والثالثة غير مقبولة ... مع العلم أنها جيدة الإنشاء تركيبياً. وهناك ملاحظة أخرى ... وهى أن فى بعضها روابط وبعضها خال من الروابط، ومن ثم فإن التماسك لا يتوقف على وجود الروابط، كما أن عدم وجود الروابط لا يعنى عدم الترابط، كما فى المثال(١):

أمستردام عاصمة هولندا. سكانها ثمانمائة ألف.

السؤال الذى يستتبعه ما تقدم: ما الشروط التى تحكم التماسك ؟

يرى فان ديك أن الشرط الأول هو العلاقة بين معانى الكلمات الواردة فى الجمل. غير أن شرطاً كهذا ليس كافياً لكى تتحدث عن جملتين مترابطتين، مثلاً:

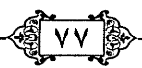
محمدُ رجلُ مسلمُ، فعليُ إذن غير مسلم(٢).

فهو مثال غير مقبول ومن ثم ليس مترابطاً، وهذا يقتضى إضافة شرط آخر، وهو التطابق الإحالى؛ أى يكون نفس الشخص متحدثاً عنه فى طرفى الجملة ... والشرط الثالث هو تعالق الوقائع التى تشير إليها القضايا – [إذ المثال ١/ب غير متعالق فى الوقائع]- على أن تماسك الوقائع ينبغى أن يستجيب لشرط الترتيب الزمنى وإلا أصبحت الجملة غير مترابطة وينبغى إضافة شرط آخر وهو تعالق الوقائع الممكنة ... ورغبة فى توحيد المفهوم يشير ديك إلى أن التعالق بين الوقائع الواردة فى هذه الجمل يمكن أن يختزل فى مفهوم (موضوع التخاطب) ...(٣).

(١) هـذا المـثال فيه روابط، وهى الضمير فى "سكانها"، فإنه يعود إلى "أمستردام"، ومن ثم فإنه ليس خالياً من الروابط.

(٢) هذا المثال من عند الباحث. لأن الأمثلة الواردة عند د. خطابى أجنبية.

(٣) د. محمـد خطـابى: لسـانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، المركز الثقافى العربى، بيـروت، ط١، ١٩٩١، ص٣٢، ٣٣، ٣٤. وانظر: د. الزناد: النسيج النصى، حيث أكد أهمية عامل الزمن فى تحقيق الترابط، ص ٧٢، والأمثلة من عند الباحث.



ونقول إن وجود الروابط إما أن تكون شكلية، أو دلالية، وإذا خلا النص من هذه الروابط فلا يمكن أن يكون متماسكاً، لأن التماسك متوقف عليها. إذن عدم وجود هذه الروابط أو إحداها يعنى عدم التماسك. ومن قال إن المثال (٢) خال من الروابط؛ ففيه رابطة المرجعية بالضمير (ها) الراجع إلى أمستردام، وكذلك رابط وحدة المتحدث عنه وهو العاصمة. ومن ثم فهى مترابطة أما شرط وحدة المحال إليه الذى ذكر سلفاً فعليه ملاحظة من خلال المثال:

- مُحَمَّدٌ تلميذٌ مُجْتَهِدٌ، وزَيْدٌ تلميذٌ غَير مُجْتَهد.

فالمسند إليه فى الجملة الأولى (محمد) وفى الثانية (زيد)؛ إذن المحال إليه فى الجملتين ليس واحداً، ومن ثم - تبعاً لكلام د. محمد خطابى- فالمثال غير متماسك. ومع ذلك فهو متماسك، وتماسكه راجع إلى الدلالة، وإلى التضاد الموجود بين الصفتين الموجودتين فى الجملتين (مجتهد) و(غير مجتهد).

نخلص من هذا أن وحدة المحال إليه ليس شرطاً دائماً. ولكنه أحياناً يجب فيها وحدة المحال إليه.

وجدير بالذكر فى هذا السياق أن نؤكد اهتمام علماء العربية بقضية التماسك، نذكر منهم السيوطى، والجرجانى، والزركشى، والنيسابورى، والعز ابن عبد السلام، والشيخ ولى الدين الملوى، والبقاعى، وابن العربى، والشيخ محمد عبده، والأستاذ سيد قطب والرافعى ... وغيرهم.

وأطلق عبد القاهر على التماسك مصطلح "التعليق" أو "التعلق"، وجعل من أهم سمات النظم "تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض... كتعلق اسم باسم، واسم بفعل، وحرف بهما ... وهى كما تراها معانى النحو وأحكامه ... ومختصر الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد، وأنه لا بد من مسند ومسند إليه"(١).

(١) عبدالقاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى، مكتبة القاهرة، ١٩٨٠ - ١٤٠٠هـ، ص ٤٦: ٤٩.



وقد جعل السيوطى فى حديثه عن علم المناسبة، جعل أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط. وهذا الرأى نقله عن الأمام فخر الدين.

وينقل عن العز بن عبد السلام أنه "يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره... وينقل رأى الشيخ ولى الدين الملوى بأن "الذى ينبغى فى كل آية أن يبحث أول كل شىء عن كونها تكملة لما قبلها أو مستقلة؛ ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ... وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له(١).

وأكد الجرجانى ثانية على أن الألفاظ المفردة التى هى أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها فى أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد"(٢).

وينقل الرافعى عن ابن العربى فى بعض كتبه قوله: "إن ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعانى منتظمة المبانى ..." وأطلق الرافعى على قوة التماسك بين تراكيب القرآن الكريم "روح التركيب" إذ لولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين ... وتعلق بعضه على بعض"(٣).

والفصول التحليلية كلها تطبيق لقضية التماسك بين الأنماط المكونة للنص القرآنى، وقد ذكرنا هذه الأنماط مجملة فيما سبق.

وكيف لا يكون القرآن الكريم متماسكاً، وهو من لدن رب العزة جل شأنه، وهو سبحانه قد نظم هذا الكون الشاسع الواسع المترامى الأطراف،

---

(١) السيوطى: معترك الأقران فى إعجاز القرآن، ١/٥٥- ٥٦.

(٢) الجرجانى: السابق، ص ٤٩٥.

وقضية التماسك ليس الجميع متفق على وقوعها؛ بل يوجد المنكر، ويوجد المؤيد، كما ذكر ذلك السيوطى ١/٥٥- ٥٦، والجرجانى ص ٤٩٥.

(٣) مصـــطفى صادق الرافعى: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ضبطه وصححه وحقق أصوله: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط٥، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، ص ٢٧٠.

وجعله متماسكاً يقوم بعضه على بعض، ويأخذ بعضه بأيد بعض، تبارك الله أحسن الخالقين.

وذِكر موقف القدماء من قضية التماسك النصي يوصلنا إلى سؤال مؤداه: ما موقف القدماء من قضية التحليل النصي بصفة عامة؟ هذا موضوع المبحث الأخير من هذا الفصل.

المبحث الرابع

موقف القدماء من التحليل النصى



يعد الربط بين القديم والحديث منهجاً قويماً لدراسة الفكر الإنسانى عامة، والفكر اللغوى خاصة. ولذا فقد قامت دراسات كثيرة، فى العصر الحديث، على إنتاج القدماء. ودراسة النص وتحليله، أكَّدت القراءة لتراثنا العربى، خاصة البلاغة والتفسير بل النحو كذلك، أكدت أن هناك تحليلات تقترب من التحليلات المعاصرة للنص كما سنرى.

وقد حثنا العديد من علماء اللغة المعاصرين، على السعى نحو الربط بين القديم والحديث؛ وذلك بالنظر فى أصول المنهج العربى، ثم دراسة هذه الأصول على ضوء المناهج الحديثة(١). بمعنى الإفادة من هذه الجهود مع الجهود المعاصرة، وذلك لوضع تحليل نصى معاصر.

فإغفال أربعة عشر قرناً من العمل الجاد فى مجالى البلاغة والتفسير، ثم فى مجال اللغة، يعد أمراً غاية فى الخطورة، ومن ثم" فإننا نؤمن أن البدء من الصفر المنهجى فى هذا المقام – مقام الدراسة النصية – يعنى إهدار أربعة عشر قرناً من النتاج اللسانى المتميز، الذى هو إنجاز قوم من أعلم الناس بفقه العربية، وأسرار تركيبها، وذخائر تراثها ..."(٢). فلن يتحقق طموح فى وضع نظرية علمية ... دون إحياء الأفكار الصالحة فى التراث، والإفادة من الدراسات الحديثة .. والإخلاص للبحوث التطبيقية ... (٣).

فالنظر – على سبيل المثال – إلى البلاغة؛ يؤكد أنها "السابقة التاريخية لعلم النص، إذا نحن أخذنا فى الاعتبار توجهها العام التمثل فى وصف النصوص وتحديد وظائفها المتعددة ... وكذا تتوجه إلى المستمع أو القارئ لتؤثر فيه، وتلك العلاقات ذات خصوصية فى البحث اللغوى النصى ... فعملية الاتصال تجمع العلاقة بين أطراف الاتصال الأساسية (نص – منتج – متلق) وكيفيات التفاعل بينها ..."(٤).

(١) د. عبده الراجحى: النحو العربى والدرس الحديث، ص ٦.
(٢) د. سعد مصلوح: نحو أرجومية للنص الشعرى، ص ١٥٣.
(٣) د. محمد العبد: اللغة والإبداع الأدبى، ص ٨.
(٤) انظر: أ – د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب، ص ٢٥٢. =

بل لقد تطور الأمر إلى التوحيد بين علمى البلاغى والنص؛ إذ البلاغة هى الأفق المنشود والملتقى الضرورى للتداولية وعلم النص(١).

وقد ورد مصطلح التضام "Collocation" عند الجرجانى، عند حديثه عن أن الكلمة لا تكون مفيدة " إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة ... وقالوا لفظة متمكنة ومقبولة، وفى خلافه: قلقة ونابية ومستكرهة وغرضهم أن يعبروا بالتمكن من حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق ... سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية فى معناها ...(٢).

ثم يذكر آية "قرآنية" ويحللها تحليلاً يقترب كثيراً من التحليل النصى، إذ يقول: " وهل تشك إذ فكرت فى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هود/٤٤، فتجلى لك منها الإعجاز ... لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت - أى التقت - الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة؟ ... وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها ... ثم مقابلة "قيل" فى الخاتمة بقيل فى الفاتحة ... وما بين الألفاظ من الاتساق العجيب ...(٣).

= ب - برند شبلنر: علم اللغة والدراسات الأدبية، ص ١٦٤.
ج - د. سعيد بحيرى: علم لغة النص، ص٦.
د - د. جميـل عـبد المجيـد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر، ١٩٩٨، من ٦٣: ١٧٨.

(١) د. صــلاح فضل: بلاغة الخطاب، ص ٢٥٠ - ٢٥٣. وقد ذكر عوامل التداخل بين البلاغة وعلم النص، مع ربط بينهما شديد.

(٢) عبدالقاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز ، ص ٩٢ - ٩٣.

(٣) المصدر السابق ص ٩٤ .
والربط بين (قيل) و (قيل) ترجع الى نوع من الاتساق المعجمى.
وقد ذكر د. فضل كذلك إدراك القرطاجنى والعسكرى لقضية التماسك النصى ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

فنلاحظ هنا حديثه عن الارتباط، وهذا يلتقى مع صلب علم اللغة والنص. وربط كذلك بين (قيل) فى أول النص و(قيل) فى آخره، وذلك ربط الأول بالآخر، وهذا أيضاً من صميم علم النص.

ثم هو أخيراً يعالج نصاً لا جملة واحدة ولا كلمة واحدة، وهذا ميدان الدارسات النصية. ويظهر كذلك فى تحليل الزركشى فى تعليقه على قوله تعالى:

(وَغَرَابِيبُ سُود) فاطر /٢٧ حيث إن (الغرابيب) متضمنة لمعنى (السود) ومع ذلك ذكر السود، وذلك لأنه "بذكر السود وقع الالتئام واتسق نسق النظام، وجاء اللفظ والمعنى فى درجة التمام ..."(١).

وقد جعل السيوطى التماسك أو الالتئام أحد وجوه الإعجاز القرآنى "فالوجه الثالث من وجوه إعجازه: حُسن تأليفه، والتئام كلمه، وفصاحته ....

والوجه الرابع مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعانى، منتظمة المبانى"(٢).

---

(١) الزركشى: البرهان فى علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ٢/٤٤٥

(٢) السيوطى: معترك الأقران، ١/٢٧.

وأفرد فصلا كاملاً عن التماسك من ١/ ٥٤: ٧٤

وذكر السيوطى نماذج لهذا التماسك مثل:

- بداية سورة القصص بأمر موسى ونصرته، وقوله ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ القصص /١٧. وخروجه من وطنه وختمت بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بألا يكون ظهيراً للكافرين وتسليته عن إخراجه من مكة، ووعده بالعود إليها، لقوله فى السورة/٧ ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾.

- قال الزمخشرى: وقد جعل الله فاتحة سورة (المؤمنون)/٢ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وأورد فى خاتمتها /١١٧: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة.

- وذكر الكرمانى فى سورة (ص) البداية بالذكر ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ وختمها بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ / ٨٧. =

فنلاحظ هنا الحديث عن:

المناسبة والتماسك والاتساق، وكلها أدوات أساسية فى التحليل النصى الحديث.

ومن اللافت للنظر كذلك استخدام السيوطى لمصطلح "الأنسجام Coherence" وعرفه بأنه " يكون الكلام، لخلوه من العقادة، منحدراً كتحدر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسهل رقة. والقرآن كله كذلك ... وقد جاءت قراءته موزونة بلا قصد لقوة انسجامه"(١).

وإن كان تعريف المصطلح ليس هو نفس التعريف النصى؛ فقد ركزهنا على خلو الكلام من التعقيد، وسهولة التركيب وعذوبة الألفاظ والوزن.

وقد كان كلام النحويين على درجة كبيرة من الوضوح، وبصورة تقترب كثيراً من كلام النصيين، إن لم تكن أوضح منه؛ على سبيل المثال نرى الرضى حينما تحدث عن الجملة الواقعة خبراً يقول: "(قوله فلابد من عائد) –[أى قول ابن الحاجب]– أى: لا تخلو الجملة الواقعة خبراً من أن تكون هى المبتدأ معنى أو لا؛ فإن كانت لم تحتج إلى الضمير كما فى ضمير

= – فى سورة (ن) البداية بقوله/٢: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ وختمها بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾.

– ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتى قبلها (الماعون)؛ لأن السابقة وصف الله المنافق بأربعة أمور: البخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة وذكر فى الكوثر فى مقابلة البخل: إنا أعطيناك الكوثر، أى الخير الكثير. وفى مقابلة ترك الصلاة فضل، أى فدم عليها، وفى مقابلة الرياء لربك أى لرضاه لا للناس وفى مقابلة منع الماعون وانحر.. السيوطى: السابق، ١/٦٥: ٦٨.

(١) السيوطى: الاتقان فى علوم القرآن، المكتبة، الثقافية، بيروت، لبنان، ١٩٧٣، ٢/٨٧. وذكر عن ابن أبى الاصبع مائة نوع من بدائع القرآن فيها التكرار، ورد العجز على الصدر، وتشابه الأطراف، والإبدال، وحسن النسق... وغيرها. وهذه تمثل وسائل من وسائل الترابط. ٢/ ٨٠

الشأن نحو: هو زيد قائم ... لارتباطها به بلا ضمير لأنها هو، وإن لم تكن إياه فلابد من ضمير ظاهر أو مقدر، وقد يقام الظاهر مقام الضمير.

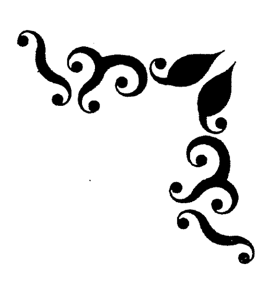
وإنما احتاجت إلى الضمير لأن الجملة فى الأصل كلام مستقل، فإذا قصدت جعلها جزء الكلام فلابد من رابطة تربطها بالجزء الآخر، وتلك الرابطة هى الضمير، إذ هو الموضوع لمثل هذا الغرض ...(١).

فإذا نظرنا إلى هذا النص، وتأملنا ما فيه، وجدناه قد اتصل بعلم النص اتصالاً وثيقاً، وبصورة - فيما نرى - أوضح مما قاله النصيون؛ فقد اكتفى النصيون ببيان أن الرابط هو الضمير، ويعود إلى كذا فقط.

وهذا يؤكد أن ملاحظات النحويين القدماء لم تتوقف على حدِّ الجملة، بل تعدت إلى الربط بين أكثر من جملة. نعم لم يضع النحويون نظرية كاملة لمعالجة النص، ولكنهم أشاروا إشارات تُعَدُّ لبنات فى بناء التحليل النصى.

(١) الرضى: شرح الكافية، ١/٩١.





الفصل الثاني

التماسـك النـصى

ويشتمل على:

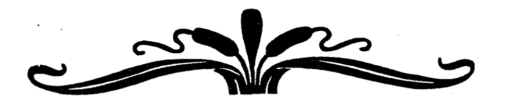
- **المبحث الأول:** مفهومه وأهميته.
- **المبحث الثانى:** التماسك والسياق والمتلقى.
- **المبحث الثالث:** أدواتــــه.
- **المبحث الرابع:** نظرة القدماء.





المبحث الأول

مفهوم التماسك النصي وأهميته



فى الحقيقة قد اشتمل علم اللغة النصى - كما ذكرنا - على مصطلحات عديدة، كل منها يمثل جانباً من جوانب هذا العلم، قد تتضاءل أهمية جانب، على حين تتزايد أهمية جانب آخر. بل يمكن أن يمثل جانب أساساً للعلم، وهذا ينطبق على المصطلح الذى نحن بصدده، مصطلح التماسك النصى.

ولأهمية التماسك النصى Cohesion فقد نال اهتماماً كبيراً من علماء النص، بداية بتوضيح مفهومه، ومروراً ببيان أدواته أو وسائله، وعوامله[1]..، وشروطه، والسياق المحيط بالنص، وعلاقته بالنص، .... وانتهاءً بوضع نماذج تحليلية، توضح هذه الأمور كلها.

وإدراكاً لأهميته أيضاً رأينا بعضاً من علماء اللغة قد جعلوا عناوين كتبهم تحمل هذا المصطلح، مثل كتاب هاليدى ورقية حسن: Cohesion in English". وقد أكدا فى هذا المؤلف التماسكَ لدرجة تجعلنا نقول أو نعتقد أن النص ما هو إلا تماسك. فهل التماسك بالفعل هو كل شىء فى التحليل النصى؟ هذا ما سنعرفه بعد قليل.

وقد أصبح للتماسك حضور واجب فى أى نص، ذلك أن "كل جملة تمتلك بعض أشكال التماسك عادة مع الجملة السابقة، مباشرة. من جهة أخرى، كل جمة تحتوى - على الأقل - على رابطة، واحدة تربطها بما حدث مقدماً. وبعض آخر من الجمل يمكن أن يحتوى على رابطة تربطها بما سوف يأتى، لكن هذه نادرة جداً، وليست ضرورية، لتعيين النص"[2].

إذا خلا النص من هذه الأدوات، سواء أكانت شكلية، أم دلالية، فإنه يصبح جملاً متراصة لا يربط بينها رابط، ويصبح النص - إذا عددناه حينئذ نصاً - جسداً بلا روح. وأهمية الإحالة لما يتأخر، لا نقول إن دورها يعد ضئيلاً بالقياس لدور الإحالة لما تقدم. ففى العربية نرى دور ضمير الشأن

---

(1) Michael McCarthy, *Ibid*, pp. 35-51.
(2) Halliday & R.Hasan, Cohesion in English, p. 324.

واضحاً للربط بينه وبين ما يفسره فيما بعد. لكن الضمائر التى تحيل على ما سبق كثيرة جداً. وهذا يتضح من خلال الإحصاء الواضح فى الجداول. وفى الفصل الثالث الخاص بدور الضمائر فى تحقيق التماسك النصى.

والسؤال الذى يفرض نفسه، نتيجة لما سبق: هل يعد التماسك النصى كل شىء فى التحليل النصىّ؟

إجابة هذا السؤال تقتضى العرض الموجز لتفريق علماء اللغة بين مصطلحين، هما: Coherence, Cohesion فمصطلح Coherence يعنى "العلاقات التى تربط معانى الأقوال فى الخطاب، أو معانى الجمل فى النص. هذه الروابط تعتمد على معرفة المتحدثين - [السياق المحيط بهم]- على سبيل المثال:

A: Could you give me a lift home? هل يمكنك توصيلى للمنزل ؟

B: Sorry, I'm visitin, my sister. معذرة سأزور أختى ؟

فلا توجد روابط نحوية أو معجمية - [أى شكلية]- بين السؤال والإجابة، لكن حدث التماسك، لأن كلا من (A) و (B) يعرف أن أخت (B) تعيش فى الاتجاه المقابل لمنزل (A). وبصفة عامة يصبح النص متماسكاً إذا وجدت سلسلة من الجمل تطور الفكرة الرئيسية ......(١).

ومن ثم فمصطلح Coherence أو "الحبك" كما ترجمه د. سعد مصلوح يعنى "الاستمرارية الدلالية، التى تتجلى فى منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم"(٢).

على حين يجعلها كريستال "الاتصالات المنطقية، المقدرة للاستعمال اللغوى"(٣).

---

(1) J. Richards et al., Longman Dictionary of Applied Linguitics, pp. 45, 46.

(٢) د. سعد مصلوح: نحو أجروميه للنص الشعرى، ص١٥٤.

(3) A.Crystal, The Campridge Encyclopedia, p. 119 & P.416
B. Crystal, A Dictionary of Linguistics., pp.53- 54

ويجعل هاليدى ورقيه حسن Cohesion متضمناً علاقات المعنى العام لكل طبقات النص، والتى تميز النصى من اللانصى، ويكون علاقة متبادلة مع المعانى الحقيقية المستقلة للنص مع الآخر، فالتماسك Cohesion إذن لا يركز على ماذا يعنى النصى بقدر ما يركز على كيفية تركيب النص باعتباره صرحاً دلالياً"(١).

فهما لم يستخدما مصطلح Coherence للتماسك الدلالى ومع ذلك جعل غيرهما معنى Coherence مرتبطاً بالروابط الدلالية، على حين يعنى مصطلح Cohesion "العلاقات النحوية، أو المعجمية، بين العناصر المختلفة، فى النص. وهذه العلاقة تكون بين جمل مختلفة أو أجزاء مختلفة من الجملة على سبيل المثال:

A) A: Is Jenny Coming to the party?
B: Yes, she is.

فيوجد رابط بين Jenny (she), وأيضاً بين (Is), (Is coming)

B) If you are going to London, I can give you the address of a good hotel there.

الربط بين (London) و (There)(٢).

ولا يخفى أن معنى Cohesion هنا يرتبط بالروابط الشكلية، عكس المصطلح Coherence الذى يهتم بالروابط الدلالية.

ويخصصه د. سعد مصلوح، بعد ترجمته، بمصطلح "السبك" بالوسائل التى تتحقق بها خاصية الاستمرارية فى ظاهر النص .... أى الأحداث اللغوية التى ننطق بها أو نسمعها فى تعاقبها الزمنى، والتى نخطها أو نراها

(1) Halliday & Hasan, Cohesion in English, p. 26 .
(2) A) J. Richards et. Al, *Ibid,* pp. 45 – 46 .
B) Chalker & weiner, *Ibid,* p. 68.

بما هى كم متصل على صفحة الورق. وهذه الأحداث ينتظم بعضها مع بعض تبعاً للمبانى النحوية ... ويجمع هذه الوسائل مصطلح عام هو "الاعتماد النحوى Grammatical Dependency"، ويتحقق فى شبكة هرمية ومتداخلة من الأنواع هى:

١- فى الجملة. ٢- فيما بين الجمل. ٣- فى الفقرة أو المقطوعة.

٤- فيما بين الفقرات أو المقطوعات. ٥- فى جملة النص(١).

ويجعله كريستال متصلاً بالبنية السطحية الشكلية للنص(٢).

ونرى - بدلاً من هذا الاختلاف - أن المصطلحين يعنيان معاً التماسك النصى، ومن ثم يجب التوحيد بينهما باختيار أحدهما، وليكن Cohesion، ثم نقسمه إلى التماسك الشكلى والتماسك الدلالى، فالأول يهتم بعلاقات التماسك الشكلية، بما يحقق التواصل الشكلى للنص، والثانى يهتم بعلاقات التماسك الدلالية بين أجزاء النص من ناحية، وبين النص وما يحيط به من سياقات من ناحية أخرى.

ومن ثم فسوف نعتمد على مصطلح "Cohesion " بمعنى التماسك، فى فصول الكتاب كلها.

فالتماسك - بهذا المعنى - يعنى العلاقات أو الأدوات الشكلية والدلالية التى تسهم فى الربط بين عناصر النص الداخلية، وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى. ومن بين هذه الأدوات المرجعية(٣).

---

(١) د. سعد مصلوح : السابق، ص١٥٤.

(2) Crystal , (A) The Campridge Encyclopedia, p. 119 & P. 417 .
(B) A Dictionary . , p. 54.

(3) David Carter (1987), Interpreting Anaphors in natural Language Texts, Ellis Horwood Limited, England, p. 32.

إذ أكد أن النص الذى توجد فيه أدوات التماسك النصى بين جُمَلِه. بينما الذى يخلو من هذه الأدوات يكون لا نص. Is not a text.

هذا التوضيح يؤدى بنا إلى الإجابة بأن التماسك النصى هو أهم عناصر الموضوع، بمعنى أن التحليل النصى يعتمد أساساً على التماسك فى تحقيق النصية من عدمه. فالتماسك يهتم بالعلاقات بين أجزاء الجملة، وأيضاً بالعلاقات بين جمل النص، وبين فقراته، بل بين النصوص المكونة للكتاب، مثل السور المكونة للقرآن الكريم، ويهتم أيضا بالعلاقات بين النص وما يحيط به. ومن ثم يحيط التماسك بالنص كاملاً، داخلياً وخارجياً[١]. بمعنى آخر نجد أن السياق والمتلقى والتواصل ... وغيرهم، يمثلون العوامل المساعدة فى تحقيق التماسك وفك شفرة النص.

ومن علماء اللغة من جعل التماسك بين الجمل راجعاً إلى التماسك بين الظروف المحيطة بها، "فترتبط العبارتان فيما بينهما، إذا كان مدلولهما، أى الظروف المنسوبة إليهما فى التأويل، مترابطة فيما بينها"[٢].

وهذا جلى، فحين النظر إلى السور القرآنية – على سبيل المثال – نلاحظ أن فيها آيات متجاورة، وقد اختلفت مناسبات النزول فى كل منها، ومع ذلك فهى متماسكة. ولكن هذا التماسك – فيما نرى – راجع إلى وحدة الموضوع الذى تعالجه السورة، فالعديد من السور المكية تتحدث عن قصص مختلفة من قصص الأنبياء، مع العلم بأن لكل نبى قصة مع قومه، وقد يظن الظان أن هذه القصص غير متماسكة فيما بينها، لكنه يجد فى النهاية أنه يجمعها إطار عام، هو أن هذه القصص عبرة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأيضاً لتخدم موضوع السورة الرئيسى وهذا هو الجامع العام لهذه القصص، وهو لا شك رابط دلالى، والظروف المنسوبة إلى كل قصة يمكن توحيدها فى الدعوة والتكذيب والإيذاء وانتقام الله من المكذبين، وهذا سوف يتضح أكثر فى الفصل الخاص بالتكرار وعلاقته بالتماسك النصى.

---

(١) يضاف إلى ذلك دور المتلقى فى فك شفرة النص. فهو الذى يحكم على هذا التماسك. وسوف نفصل هذا الدور فيما بعد.

(٢) د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب، ص٢٦١ .

ومن الجدير بالذكر هنا أن من طبيعة التماسك، ارتباطه بالتفكير، ذلك لأنه "أداة أو وسيلة أساسية للتفكير البشرى"[(١)]. وذلك لوجود صلة قوية بين اللغة والتفكير. فاللغة هى الأداة المحسوسة للتعبير عن الفكر.

ومن الباحثين من نظر إلى النص نظرة تحويلية، فالتحويليون يجعلون لكل جملة بنية عميقة. Deep structure وأخرى سطحية Surface structure، وهذا الأمر بالنسبة للنص يظهر ظهوراً قوياً حينما "يبدو النص مفككاً من السطح، لكننا لانلبث أن نتبين أن وراءه بنية عميقة محكمة فى تماسكها، وتفسر تشاكل الأجزاء وتضمن اتساقها مع تشتتها الخارجى"[(٢)].

وهذا يفسر ما ذكرناه؛ فقد نجد عدداً من الجمل المتراصة لا يجمعها إطار شكلى، أوروابط شكلى، ولكن حين النظر إلى الإطار الدلالى الذى يتحكم فى هذه الجمل المتجاورة، يتبين الخيط الذى يضم حبات هذا العقد فيما بينها. وهذا يرتبط بأدوات التماسك الدلالية، وبالرجوع إلى السياق المحيط بالنص[(٣)]. وبقدرة المتلقى على اكتشاف ذلك التواصل الدلالى.

يتضح مما سبق إذن أن التماسك النصى ذو طبيعة دلالية من ناحية، وذو طبيعة خطية شكلية، من ناحية أخرى، وأن الطبيعتين تتضافران معاً لتحقيق التماسك الكلى للنص.

وإذا كانت هذه هى طبيعة التماسك النصى. فما أهميته؟

نرى ملخص إجابة هذا السؤال أن التماسك يربط بين أجزاء الجملة، وأجزاء النص، وهذا الرابط دلالى شكلى. وهناك من يرى أن التماسك "لا

(1) R.Vande Velds (1992), Text and Thinking : on Some Roles of Thinking in Text Interpretation, Berlin & New York, pp. 21- 27.

وانظر د. محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربى، ص ٢٢٣.

(٢) د. سعيد بحيرى : علم لغة النص، ص ١٢١ .

(٣) د. سعيد بحيرى: السابق.



يركز على ماذا يعنى النص، لكنه يركز على كيفية تركيب النص كصرح دلالى"(١).

فهدف النص، ليس من وظائف المحلل اللغوى للنص، إذ يركز فقط على الكيفية الشكلية والدلالية التى تلاحم النص من خلالها.

ولهذه الأهمية فقد أصبحت "روابط التماسك بين الجمل هى المصدر الوحيد للنصية ..."(٢).

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن التماسك النصى هو أهم شئ بالنسبة للتحليل النصى، ومن ثم عده بعض الباحثين "شرطاً ضرورياً وكافياً للتعرف على ما هو نص، وعلى ماليس نصاً ...... ويتبين هذا من خلال الشكل التالى:

مقطع لغوى (١) ← خصائص مميزة / وسائل تماسك ← كل موحد ——— نص

المرسل

مقطع لغوى (٢) ——— جمل غير مترابطة ———> لا نص(٣).

ونرى أن هذا الهيكل ينقصه أمر مهم من الأمور الواجب توفرها عند التحليل النصى من خلال التماسك، ألا وهو المتلقى، فله دور حيوى فى الحكم على تماسك النص من عدمه، وسوف نوضح ذلك الدور فيما بعد.

ومن الباحثين من عرض لأهمية التماسك، ولكن من ناحية البعد الزمنى للنص، "فنحن نجد فى كل يوم عناصر محادثة تدور حول الفقرات السابقة أو المبكرة، وقد فصل بينها عدة دقائق بل عدة ساعات من وقت المتحدث. والكتاب

(1) Halliday and Hasan, Cohesion in English, p.26 .
(2) G. Brown & G.yule, *Ibid,* , p. 194.
(٣) د. محمد خطابى لسانيات النص، ص١٢، ١٣ .

يستغلون هذا بصنع روابط تماسكية، عبر امتدادات طويلة جداً للنص"(١). وهذا حدث- على سبيل المثال- فى سورة المزمل؛ إذ نزل شطرها الأول ثم نزل الشطر الثانى منها بعد اثنى عشر شهراً من الأول ومع ذلك حدث التماسك بين الشطرين من خلال العديد من الأدوات(٢).

نخلص من هذا إلى أن أهمية التماسك النصى تكمن فى :

أولاً: التركيز على كيفية تركيب النص كصرح دلالى.

ثانياً: إعداد روابط التماسك المصدر الوحيد للنصية.

ثالثاً: التعرف على ما هو نص وما هو غير ذلك.

رابعاً: الربط بين الجمل المتباعدة زمنياً.

ولكن هل تمر عملية التحليل التماسكى هذه دون مصاعب تعترضها؟

فى الحقيقة لاحظ الباحث أن هناك مشكلة أساسية حين التحليل وتتمثل فى الغموض، خاصة حينما يتعدد المحال إليه سابقاً، ولا نعرف إلى أى شىء يرجع الضمير، وكلما ازداد هذا الغموض، ازداد أمر تحقيق التماسك صعوبة.

وهذا لأن "الغموض يؤدى إلى غموض الدلالة، وغياب الدلالة يؤدى لاريب إلى غياب التماسك ....(٣).

وهناك مشكلة أخرى، وهى متعلقة بالسابقة، وهى غياب أدوات التماسك المعروفة أو بعضها، وفى الغالب تكون الأدوات المفقودة هى الأدوات الشكلية مثل الضمائر، العطف، التكرار، .... إلخ.

والحل فى هاتين المشكلتين يتمثل فى العثور على السياق المحيط بالنص أو معرفته، فمن خلاله تدرك الصلة بين الجمل التى لا تبدو بينها صلة.

---

(1) Halliday and Hassn, *Ibid,* p. 294.

(٢) انظر الفصل الثالث، الجزء الخاص بتحليل سورة المزمل.

(3) Halliday and Hassn, Language, Context and Text, p.89 .

ويضرب هاليدى مثالاً لذلك، بقوله "فإذا نظرت إلى هذين المثالين:

أ- جرس الباب يدق.   ب- أنـــا فى الحمام.

فمن الوهلة الأولى نفترض عدم وجود علامة واضحة للعلاقة بين الجملة الأولى والجملة الثانية. غير أن القارئ العادى سوف يشير بالطبع إلى أن هذين التعبيرين يُكَوِّنَانِ النص ..... وسوف يفسر الثانية فى ضوء الأولى. إنه سوف يشير إلى أنه توجد "علامات دلالية" بين الجملتين. وذلك فى غياب العلامات الشكلية "الواضحة"[١] ولذلك فإن "الأمر الأساسى أن المشار إليه لابد أن يكون قابلاً للتعريف"[٢]، وهذا التعريف لا يتأتى إلا بمعرفة السياق المحيط بالنص. ومن ثم، "فالمعلومات المعطاة حول المشار إليه يمكن أن تكون هى الروابط المفقودة أو بدلاً منها، وذلك لِصُنْع اتصال بين الجمل. ويمكن أيضاً الاستدلال بها لملىء الروابط المفقودة بين الجمل، وهناك أمثلة عديدة يمكن معالجتها تحت هذا المنظور، منها الجملتان:

أ- أنَا اشْتَرَيْتُ كِتَاباً أَمْس.   ب- الفصولُ كثيرةٌ جدًّا.

فالمعلومة التى تسهم فى تحقيق التماسك بينهما هى:

جـ- الكتابُ فيه فصولُ.

ومنها أيضاً الجملتان:

أ- أنَا نظرتُ داخلَ الحُجْرَةِ.

ب- السقفُ كانَ مرتفعاً جدًّا.

والمعلومات التى تسهم فى تحقيق التماسك بينهما هى:

---

(1) *Ibid*, p. 195 .

(2) Halliday & Hasan , Language, Cohesion in English, p. 33

جـ- الحُجْرَةُ لَهَا سَقْفٌ(١).

ونلاحظ أن المعلومة (جـ) تتبادر إلى ذهن المتلقى بمجرد سماع الجملتين (أ) و(ب)، فمن الطبيعى أن الكتاب به فصول، وكذا من الطبيعى أن الحجرة لها - فى الغالب - سقف، ومن ثم يستدل المتلقى على أن هاتين الجملتين متماسكتان، مع العلم بأنهما خاليتان من الروابط الشكلية. وهنا يبرز أيضاً دور المتلقى فى الحكم على تماسك النص.

فالجمل إذن وأشكال القول الأخرى "يتماسك بعضها مع بعضها الآخر دلالياً من خلال المعلومات التى يقدمها النص .... ولكن إذا فقدت الجمل السياق مثل: اشتدت الأعاصير، ثم جرى فى الطريق حاملاً حذاءه، عندما جفت البحار، وانتشر الذباب فى الطرقات، ثم صحا من نومه .... تكون غير متماسكة الأجزاء"(٢).

لكننا نرى أن الجملة الأخيرة "ثم صحا من نومه" هى السياق، إذ من خلالها نتبين أن هذه الجمل عبارة عن حلم أثناء النوم، نعم هو حلم مشتت، لكن فى النهاية الذى يحدد هذه الجمل، أن سياقها هو الحلم.

المهم أن الحل عند فقد الروابط الاتساقية، هو الرجوع إلى السياق المحيط بالنص، ومن ثم يبرز الدور الذى يقوم به السياق فى التحليل النصى، خاصة إذا فقدت الروابط. وهذا يتضح كثيراً فى النصوص القرآنية .

---

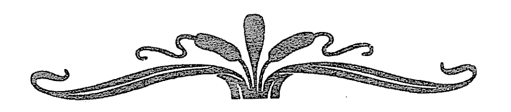
(1) Halliday & Hasan , Language Context and Text, pp. 257- 266.

والجمل الثلاث الأولى أو النموذج الأول من عند الباحث.

(٢) د. محمد العبد : المصدر السابق، صـ٣٧ .

المبحث الثانى

التماسك والسياق والمتلقى



يرتكز هذا المبحث على أمرين أساسين هما:

الأول: وظيفة السياق فى تحقيق التماسك.

الثانى: وظيفة، المتلقى فى الحكم على تماسك النص من عدمه.

أما الأول: وهو السياق، فلم يهتم به علم اللغة النصى وحده، بل كان محور اهتمام علم اللغة بصفة عامة، ومن أهم المدارس التى اهتمت بالسياق مدرسة فيرث حديثاً، مع التأكيد أن هذا الاهتمام بالسياق، ودوره فى توضيح المعنى، لم يكن وليداً للمدارس الحديثة وحدها، بل اهتم به علماء العربية بداية بسيبويه والمبرد وابن جنى والجاحظ والجرجانى وغيرهم[1].

ولقد أصبح المعنى والسياق. متلازمين خاصة إذا حدث الغموض، حينئذ ليس هنك بدُ من اللجوء إلى السياق. وعلى كل حال أصبح للسياق نظرية وصارت "نظرية السياق - إذا طبقت بحكمة - تمثل حجر الأساس فى علم المعنى. وقد قادت هذه النظرية بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة ...."[2].

---

(١) د. محمود سليمان ياقوت: فقه اللغة وعلم اللغة، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٩١، ص٢٣٨ وما بعدها.

(٢) أ - استيفن أولمان: دور الكلمة فى اللغة، ترجمة د. كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٦٦- ٦٧ .

ب- ف. ر. بالمر: علم الدلالة إطار جديد، ترجمة د. صبرى إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، ١٩٩٢، ص٧٤ وما بعدها. حيث تناول آراء المعارضين لدراسة اللغة فى السياق ومناقشة هذه الآراء.

ج- د. تمام حسان : (١) مناهج البحث فى اللغة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٦، ص٢٣٧: ٢٥٨، إذ إنه تحدث عن وسائل الربط السياقى. ومظاهر التعليق السياقى.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، د. ت. ص ١٩١: ٢٣٩ . حيث تحدث فيه عن قرائن التعليق ومنها الربط والتضام والأداة. ثم تحدث عن السياق ووظيفته.

ولهذا يصرح فيرث "بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أى وضعها فى سياقات مختلفة ...... فمعظم الوحدات الدلالية، تقع فى مجاورة وحدات أخرى. وأن معانى هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التى تقع مجاورة لها ....[1].

والسياق لم تكن أهميته مقصورة على تحديد معنى الوحدات اللغوية فقط، وإنما فى تحديد معنى الكلمة أيضاً، وتحديد معنى الكلمات يؤدي إلى بيان دلالة الجمل، ومن ثم يحدث التماسك الدلالى، ولهذا "فإننا حينما نقول إن لإحدى الكلمات أكثر من معنى فى وقت واحد إنما نكون ضحايا الانخداع إلى حد غير قليل: إذ لا يطفو فى الشعور من المعانى المختلفة التى تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذى يعنيه سياق النص"[2].

ونرى أنه من الطبيعى أن يمثل السياق دوراً بارزاً فى تحديد معنى النص، ومن ثم تحديد تماسكه، وذلك لأن اللغة وليدة الاحتكاك فى المجتمع، فهى بطبعها اجتماعية، ومن ثم فالمجتمع يحيط باللغة، وبيان معناها – بالتأكيد – يرجع إلى المجتمع.

ومن هنا أكد علماء اللغة أن "اللغة نشاط اجتماعى للإنسان .... كما أن السياق الاجتماعى متمم للمعنى، لا يمكن الاستغناء عنه فى تفسير اللغة. وقد استعمل فيرث العبارة الإنجليزية "Context of situation " للدلالة على دراسة الكلام فى المحيط الذى يقع فيه .....[3].

فالمجتمع هو المنتج للنص وهو المتلقى له، ومن ثم فهو الذى يحدد معناه من خلال البيئة المحيطة التى يعيش فيها المجتمع. والتى أفرز فيها النص.

(١) د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب، مصر، ط٢، ١٩٨٨، ص٦٨ –٦٩

(٢) أ- د. صبحى الصالح: دراسات فى فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١٠، ١٩٨٣، ص ٣٠٦.

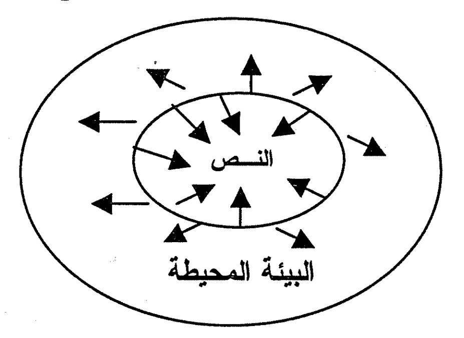
ب- استفن أولمان، المصدر السابق، ص٦٥ .

(٣) د. محمود ياقوت: المصدر السابق، ص٢٣٦- ٢٣٧ .

وقرر هاليدى ورقية حسن أن "كل نص له سياق، والنص بصفته يميز بالتماسك ... "فأى نقطة أو جملة بعد البداية – أى بداية النص – ترتبط بما سبقها، وبالبيئة المحيطة، وترتبط بما سوف يأتى بعد.

وتسهم عناصر أساسية فى التماسك مثل المرجعية، والإبدال، والحذف، والعطف، والتماسك المعجمى وهى علاقات دلالية، تسهم فى تحديد النص، كما يسهم السياق كذلك ..."(١).

إذن تتضافر العلاقات التماسكية الدلالية والشكلية، مع السياق فى تحقيق التماسك النصى للنص، فالنص يحتوى على علاقات داخلية وأخرى خارجية، مرتبطة بالسياق، وهذه وتلك تحققان التماسك النصى، ونمثلها بالشكل:



فالنص إذن تتجاذبه علاقتان، داخلية وخارجية كى يتماسك. ومن ثم فهو واقع كذلك بين التأثير والتأثر من قبل البيئة المحيطة.

ولعل هذه الأهمية للعلاقة بين النص والسياق هى التى دفعت هاليدى ورقيه حسن إلى جعل عنوان كتاب لهما "اللغة، السياق والنص". وأكدا فيه أن "الفكرة الأساسية، تهدف إلى إجلاء العلاقة بين النص والسياق، هذه العلاقة مؤكدة، فكل من النص والسياق يمكن تفسيره بالرجوع إلى الآخر"(٢).

(1) Halliday & Hasan, Language, Context and Text, p. 48 .
(2) Halliday & Hasan, Ibid, p.vi.

ولا يتوقف الأمر عند هذه العلاقة، بل يتعداها إلى التأكيد أن "بنية النص محكمة بسياق الحال ...... وهذا السياق يمكن استخدامه لصنع تنبؤات معينة حول بنية النص"(١).

ويمكن توضيح ذلك عند سماعنا – مثلاً – لحوار معين بين عدة أفراد، ونحن نعرف هؤلاء الأفراد، وطبيعة كل منهم، وثقافته، ونعرف كذلك القضية، التى يدور حولها الحوار ... فإذا كان الأمر كذلك، فإننا بعد سماعنا لبعض جمل الحوار من بعض الأفراد، يمكننا بالفعل التنبؤ بردود الأفراد والآخرين، ومن ثم التنبؤ ببنية النص.

والرجوع إلى مصطلح السياق Context نفسه اشتق بصورة تؤكد هذه العلاقة، "فالسابقة Con تعنى المشاركة، أى توجد أشياء مشاركة فى توضيح النص، With the text وهى فكرة تتضمن أموراً أخرى تحيط بالنص كالبيئة المحيطة، والتى يمكن وصفها بأنها الجسر بين النص والحال"(٢).

وقد أدرك مالينوفسكى أهمية العلاقة المتمثلة بين النص والسياق، وأنه ينبغى معرفة السياق حتى يمكن تفسيره للنص، ولهذا – حتى يمكنه تفسير النصوص المتعلقة بالصيادين – قام بمعايشتهم فى أمورهم كلها، وذلك للإلمام بالخلفية الثقافية لهم. وتوصل فى النهاية إلى جعل السياق يدور حول محورين:

الأول: سياق الحال Context of situation

الثانى: السياق الثقافى Context of culture

وكلاهما ضرورى فى فهم النص فهماً كاملاً(٣).

(1) *Ibid*, p. 70 .

(2) *Ibid*, p. 5 .

(3) A) *I bid*, p p. 6 , 7 .
B) Cunther Kress, *Ibid,* pp. 18- 19.

غير أن هذا الاهتمام الشديد بالسياق أفضى إلى أراء مبالغ فيها فى بعض الأحيان، فيرى هاليدى مثلاً أن "أى قطعة من نص، طويل أو قصير، منطوق أو مكتوب، سوف تحمل معها إشارات عن سياقها. وعلينا فقط أن نسمع أو نقرأ جزءاً منها لنعرف من أين أتت هذه القطعة .... بمعنى آخر أعطنا النص، ونحن نشكل سياق الحال منه ...."(١).

فهل معنى هذا أنه يمكننا بمجرد سماع نص أو قراءته أن نعرف السياق المحيط به؟! نرى أن هذا لا يكفى، فهاتان الوسيلتان يمكن من خلالهما معرفة بعض جوانب السياق، وذلك من خلال النبر والتنغيم فى النص المنطوق، وعلامات الترقيم فى النص المكتوب وهكذا. وهذه الأمور ليست كل ما يتعلق بالسياق، فهناك السياق الاجتماعى والثقافى، وكلاهما يحتوى على أركان كثيرة، ذكرها فيرث ومالينوفسكى منها الزمان والمكان والمشاركون ونوع النص وتغير الأحداث وغيرها.

والنص القرآنى بوصفه نصاً نزل مفرقاً تبعاً لتنوع الأحداث، فلم ينزل كله فى مكان واحد، ولا زمان واحد، ولا لحدث واحد. ولهذا احتاج فهمه إلى معرفة مكان النزول وزمانه ومناسبته حتى يمكن تفسيره. ومن هنا كان الاهتمام بمناسبات النزول.

ويتضح هذا بصورة جلية حين يحدث الغموض فى مرجعية الضمير، أيرجع إلى سابق أم لا حق أم إلى شىء خارج النص. وهذا الغموض – كما سنرى – يحتاج إلى السياق المحيط لمعرفة المشار إليه.

فالنص إذاً ليس إلا "حالة خاصة من البيئة المحيطة، .... والمرجعية القبلية والمرجعية البعدية، كلتاهما تعتمد على الفكرة التى تسعى لاستقصاء المعانى من البيئة المحيطة ...."(٢).

(1) Halliday & Hasan ,*Ibid*, pp 37 , 38 .
(2) Halliday & Hasan, Cohesion in English , p. 84.

وأشرنا إلى أن أركان النص تحتوى على أشياء كثيرة، من هذه الأشياء المتلقى[١]، ولا يخفى أن للمتلقى دوراً مهماً فى تحليل النص وتفسيره، ولهذا أكد علماء اللغة بصفة عامة، وعلماء النصية بصفة خاصة دور المتلقى فى تحليل النص و تحقيق تماسكه والحكم على هذا التماسك[٢]. وهذا الدور هو موضوع المحور الثانى من محاور هذا المبحث.

ثانياً: دور المتلقى فى الحكم على تماسك النص:

أكدنا فيما سبق – عند حديثنا عن التواصل ودوره فى التماسك النصى – أن هذا التواصل ليس بين أجزاء النص الداخلية فقط، بل يتعداه إلى التواصل بين المنتج والنص والمتلقى، إضافة إلى البيئة المحيطة.

وهذا يبرز لنا أن المتلقى أصبح ركناً أساسياً من أركان التحليل النصى، فهو القراءة الثانية للنص. ولهذا لم يغفل علماء اللغة هذا الدور للمتلقى، فالنص يُعد حواراً قائماً بين قائل النص والنص والمتلقى.

والمتلقى للنص ليس على إطلاقه، بل يجب أن تتوفر فيه الكفاءة التى تُمكِّنه من استيعاب النص وتفكيكه، وتتمثل تلك الكفاءة فى معرفة لغة النص، وأسلوبه، وسياقه. وسوف نعرض لهذا تفصيلاً فى الفصل الخاص بالحذف.

وقد أدرك علماء النص هذه الأهمية للمتلقى، وأنه ليس مجرد مُستهِلك سلبى للنص، بل يُعد مشاركاً فى النص، "وهذه المشاركة لا تضمن قطيعة بين البنية والقراءة، وإنما تعنى اندماجها فى عملية دلالية واحدة. فممارسة القراءة إسهام فى التأليف ..... فللقارئ مكان جوهرى فى عملية التفسير لا

(١) أ- د. محمود سليمان ياقوت : المصدر السابق، ص٢٣٨ .
ب- ف. ر. بالمر : المصدر السابق، ص٧٧ .

(2) A) Gunther Kress, *Ibid*, p. 36.
B) Anna Siewierska, *Ibid*, pp. 146- 148.

يقل عن دور المنتج .... [(١)] لذلك إذا سأل سائل عن الذى يحكم على قيمة النص؟ تجد أن "الإجابة عن هذا السؤال لا يختلف فيها اثنان، فالذى يقيم النص هو القارئ المستوعب له. وهذا يعنى أن القارئ شريك للمؤلف فى تشكيل المعنى. وهو شريك مشروع، لأن النص لم يكتب إلا من أجله. وعلـــى هـــذا النحو لا تتمثل حقيقة العمل الأدبى إلا من خلال تداخل القارئ مع النص .... بل إن المبدع يخلق عملاً ينتزع فيه الكلمات من عالم المحسوسات مجسمة فى نسيج عالم خيالى مصنوع ومحكم الربط والبناء، ومهيأ لأن يستكمل على نحو خاص لدى كل قارئ .... [(٢)].

ولهذا الإدراك لدور القارئ أو المتلقى، وجدنا أن النص القرآنى، خاصة فى القصص القرآنى، كما أشرنا فى الفصل الأول، يأتى بعناصر جوهرية فى القصة أو الموضوع، ثم يحذف عناصر أخرى ثانوية، وعلى القارئ للنص أن يستكمل هذه الجمل المحذوفة من خلال إدراكه لطبيعة الأسلوب القرآنى، وسياق النص أو مناسبة النزول، وسوف نوضح هذا تفصيلاً فيما بعد. وهذا ما دفع الباحثين إلى القول بضرورة وجود القارئ ليتحقق وجود النص؛ "فالنص ليس له وجود إلا عندما يتحقق، وهو لا يتحقق إلا من خلال القارئ. ومن ثم تكون عملية القراءة هى التشكيل الجديد لواقع مشكل من قبل، هو العمل الأدبى نفسه"[(٣)].

فالقارئ الذى يدرك طبيعة المنتج، وطبيعة النص، والوسائل المستعملة فى النص، وسياق النص، هو ذلك القارئ أو المتلقى النموذجى أو المثال، إن

---

(١) أ- د. سعيد بحيرى: علم لغة النص، ص١١١- ١١٢ .

ب- د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب، ص٢٣٠ .

(٢) د. نبيلة إبراهيم : القارئ فى النص، مجلة فصول، عدد الأسلوبية ، مجلد (٥) ، عدد (١)، ص١٠١- ١٠٢ .

وانظر : Michael McCarthy, *Ibid*, pp. 168- 169 تحت عنوان : Discourse and The reader

(٣) د. نبيلة إبراهيم: المصدر السابق، ص١٠٢.

صَحَّ التعبير، فكم من قارئ لا يفهم ما يقرأ، وكم من قارئ يفهم جزءاً مما قرأ، قَلَّ هذا الجزء أو كَثُر، وكم من قارئ يفهم ما قاله أو كتبه المنتج كله. ولهذا وجدنا في النص القرآني العديد من التفسيرات المختلفة لآية واحدة. ووجدنا كلاً من المفسرين وقد بَيَّنَ وجوهًا إعجازية قد لا يوضحها الآخرون، ووجدنا القدماء عرفوا أشياء، وعرف المحدثون أشياء أخرى لم تخطر ببال السابقين .... وهكذا التفاعل الدائم مع النص؛ إذ نرى المتلقى كثيراً ما يصنع أسئلة كثيرة يواجه فيها النص، ويلاحظ وسائل التماسك، ليستطيع نهاية فك شفرة النص.

وهذا القارئ أو المتلقى الذى هذه خصائصه هو الذى يحكم على تماسك النص من عدمه. وسوف يُعرض لها بالتفصيل فى فصل الحذف، لأنه من أكثر المواضع التى يظهر فيها دور المتلقى.

إذن يجب أن تتوفر لدى القارئ النموذجى معرفة الوسائل والأدوات التى يتماسك بها النص. ولكن ما تلك الوسائل أو الأدوات؟.

المبحث الثالث

أدوات التماسك النصى



بداية نؤكد أن أبواب النحو التى تعتمد على علاقة الإسناد، كلها يمكن أن يندرج تحت مبدأ التماسك النصى، نعم معظمها يعتمد على الجملة، لكن المتفق عليه أن الجملة نواة النص.

وبناء على ذلك فهذه الأبواب كلها قابلة للتحليل النصى؛ لكن المقام لا يسع لمثل هذه المخاطرة التى تؤدى بالبحث إلى امتدادات كثيرة.

وأقوال علماء النص حول الأدوات التى تحقق التماسك النصى متعددة، وتختلف فى الغالب عن بعضها؛ غير أن هناك أدوات مشتركة بينهم، وهذا الاشتراك ليس إلا إبرازاً لأهمية تلك الأدوات التى اشتركوا فى ذكرها، وهى - فيما نرى - تمثل الأدوات الرئيسية للتماسك النصى. ومعظم هذه الأقوال اعتمدت على الناحية النظرية، ولم تستطرد إلى التوضيح التطبيقى إلا فى مثال أو مثالين، وفى نصوص متفرقة، وهذا ما يدفعنا إلى تمثيل دور هذه الأدوات فى تحقيق تماسك النص القرآنى.

لا نقول إن النص القرآنى غير متماسك، تنزه قول الله عن ذلك، ولكن نريد أن نبرهن كيفية إسهام تلك الأدوات فى تحقيق ذلك التماسك المعجز، إذا عددناه نوعاً من الإعجاز القرآنى.

وبما أننا مازلنا فى الفصول النظرية للكتاب، فسوف نعرض لآراء علماء النص، أو لبعضها فيما يتعلق بحصر تلك الأدوات، ثم نقتصر على الأدوات الأساسية منها، تحقيقاً للغاية ودفعاً للحشو والإطالة.

وعلم اللغة يسعى لوضع نظريات تصلح لمعالجة أى لغة؛ وعلم اللغة النصى استقل بوصفه نظرية على يد علماء الغرب، مع التأكيد أن جذوره واضحة فى ذخائر العربية كما سنوضح، ومع كون هذه النظرية استقلت بصورة غربية، ونماذجها غربية، وذكرت أدوات تتفق مع اللغات الغربية، فإن هناك أدوات كثيرة تتفق مع الأدوات المستعملة فى اللغة العربية، بل تكاد كلها أن تكون مندرجة، أو قابلة للتطبيق على اللغة العربية، ومع هذا إذا وجد

منها مالا يتلاءم مع طبيعة اللغة العربية، فسوف نستبعده عند التطبيق، حتى لا نتهم بأننا نلوى النصوص العربية حتى نطبق عليها النظريات الغربية.

ومن أبرز من تحدث عن أدوات التماسك هاليدى ورقية حسن؛ فقد قام كتابهما "التماسك فى الإنجليزية" على خمس أدوات هى، كما ذكرت فى مقدمة الكتاب، "المرجعية Reference، الإبدال Substituotion، الحذف Ellipsis، العطف Conjunction، ثم التماسك المعجمى "Lexical Cohesion"[(1)].

ثم قسَّما المرجعية إلى :

١- شخصية Bersonal : (أنا ، أنت ، نحن، هو ، هم، .... إلخ).

٢- إشارية Demonstrative : (هذا ، هؤلاء، أولئك، ..... إلخ).

٣- مقارنة Comparative : (أفضل، أكثر، .... إلخ)[(2)].

وقد ذُكر – فيما سبق – أن المرجعية قد تكون خارجية، وقد تكون داخلية، والداخلية قد تكون لما سبق، أو لما تأخر. وسوف تفصل أكثر فى فصل الضمائر.

---

(1) A) Halliday & Hasan, Cohesion in English, p. 40 .
B) Haliday (1985), An Introduction to fanctional Grammar, Edward Arnold Ltd, London, pp. 287- 318.

(2) Haliday and Hasan, *Ibid,* pp. 37- 87.

وأمثلة المرجعية الشخصية :

I , Me , My , You , We, He, They, It, ...وغيرها. وأمثلة الإشارية :

This , These , That, Those , Here , There, Then, ...وغيرها. وأمثلة المقارنة :

Bettey , More , So much, ... وغيرها.

وللأمثلة التى توضح طبيعة الإبدال عندهم ارجع إلى :

A – Halliday & Hasan, Language, Context, and , Text, p. 73.
B – Crystal, The Cambridge Encyclopedia Of Language, p. 119 .

وعلى الرغم من التشابه الكبير فى وظيفة هذه الوسائل بين العربية والإنجليزية - على سبيل المثال - فإن هناك اختلافاً فى مثل "الإبدال"؛ فالبدل فى العربية نوع من أنواع التوابع المعروفة، وهو يقوم بوظيفة التماسك النصى أيضاً، لكنه يختلف عن الإبدال فى الإنجليزية؛ لأنه عندهم فى مقابل التركيب "كذلك" عندنا، ومثل هذا التركيب عندنا ليس بدلا. ومن ثم فلا صلة بين الإبدال والبدل من الناحية النحوية أو التركيبية. لكن من الناحية النصية فإن التركيب "So" عندهم يؤدى وظيفة، الإبدال، وكذلك البدل فى العربية - بوصفه تابعاً - من وظائفه التماسك كما سنرى.

ومثال البدل فى النحو العربى قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً(٢)نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً(٣)﴾ المزمل.

فـ "نصفه" بدل بعض من كل من "الليل"، وهو يمثل مرجعية سابقة، إضافة إلى الضمائر التى تقوم بوظيفة المرجعية كذلك، وأيضاً الدلالة الواضحة. ومن ثم يسهم البدل فى تحقيق التماسك بين هاتين الآيتين.

ومثله : قام أبو عبد الله عمر.

مرجعية
داخلية سابقة

فأبو عبد الله هو عمر، وعمر هو أبو عبدالله وعليه فالتماسك واضح بينهما. ومن هنا سوف يكون التطبيق من خلال الاصطلاح العربى للبدل كما سيُعرض فى فصل التوابع.

وقد عُدَّ السياق من الأدوات الضمنية Implicit devices التى تحقق التماسك النصى؛ "فأى وحدة لغوية من النص الواقع تحت إطار التحليل تشمل بيئتين Two Environments .

١- البيئة الخارجية عن النص - السياق - وهى تتصل بالنص .

٢- البيئة اللغوية المصاحبة للنص The Co- Text.



فالتفسير للأداة الضمنية، يراد به ما هو خارج النص، ويمكن فقط هذا التفسير من خلال السياق؛ فتخيل الحال عندما يدق طفل "بشدة على لعبته، ويصنع ضوضاء عالية، بينما الأم تحاول التركيز في كتابة أوراق مؤتمر؛ فالاحتمال الكبير أنها سوف تقول للطفل :

Stop doing that here, Im trying to work

الرسالة فى هذا النص ضمنية، بصورة كبيرة، والكلمات doing، That، Here يمكن أن تفسر فقط بالرجوع إلى سياق الحال. فالأدوات الضمنية هى أدوات مبهمة بين النص وسياقه، مما أثار قلق الموجودين خارج النص .... [١].

وقد يكون النص خالياً تماماً من الأدوات الشكلية، المعروفة لتحقيق التماسك النصى، ويصل المتلقى إلى درجة اليأس من فهم هذا النص، إلى أن يتحقق من وجود السياق المحيط بالنص، حينئذ لا يملك سوى صنع علاقات ضمنية غير محسوسة بين أجزاء النص، ومن ثم يتماسك النص أمامه بصورة ما كما لو كانت أدواته التماسكية الشكلية موجودة.

ومن الأدوات التماسكية الدلالية (الترادف Synonymy، والمطابقة Antonymy، والانطواء Hyponymy[٢]).

---

(1) Halliday & Hasan, Language, Context and Text, pp. 75- 77.

(2) *Ibid*, pp. 80 - 81

وانظر موسوعة كريستال حيث ذكر أن أدوات التماسك تتلخص فى :

١- العطف ٢- المرجعية بأنواعها القبلية ، والبعدية ٣- الإبدال

٤- الحذف ٥- التكرار ٦- أدوات معجمية p.119

وانظر: "Discourse Analysis" لـ : G. Brown و : G. yule. حيث ذكرا أن من هذه الأدوات العطف، والسببية والزمنية ثم قسما الأدوات إلى ما هو خارج النص، وما هو داخل النص pp. 191 - 193

وقد ذكر د. محمد العبد من هذه الأدوات : =

ومن هذا العرض الموجز يتضح أن أدوات التماسك النصى كثيرة، ومتنوعة بين الخارجية والداخلية، وبين الدلالية والشكلية والمشتركة بينهم. واتضح كذلك أنها شرط ضرورى فى أى نص؛ حتى يتحقق وجوده كنص، وإلا أصبح جملاً متراصة لا روح فيها.

١- الإسناد إلى متقدم ٢- الارتباط السببى ٣- التخصيص.
٤- الارتباط الزمنى ٥- المقابلة ٦- السؤال والإجابة .
٧- الإضراب وغيرها من الأدوات.
انظر : اللغة والإبداع الأدبى، ص ٤. : ٤٣
ويضيف د. محمد حماسة عبد اللطيف بعضاً آخر من أدوات التماسك منها :
١- الموقع الإعرابى ٢- الحالة الإعرابية ٣- العلاقة الإعرابية
وهذه مع وسائل أخرى. . . وكل ما يؤدى إلى الوضوح وعدم اللبس يؤدى بالضرورة إلى التماسك والترابط. . " بناء الجملة العربية، ص ٧٨- ٧٩ .

وتحدث كذلك د. صلاح فضل عن الوسائل السببية المعتادة بين الوقائع التى تدل عليها الأقوال، وروابطها مثل (لأن، عليه، لهذا، ... إلخ) ووسائل أصعب من هذه مثل التجسيد، التجريد، التعميم، التضاد وسماها روابط بلاغية. بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٦٢ .

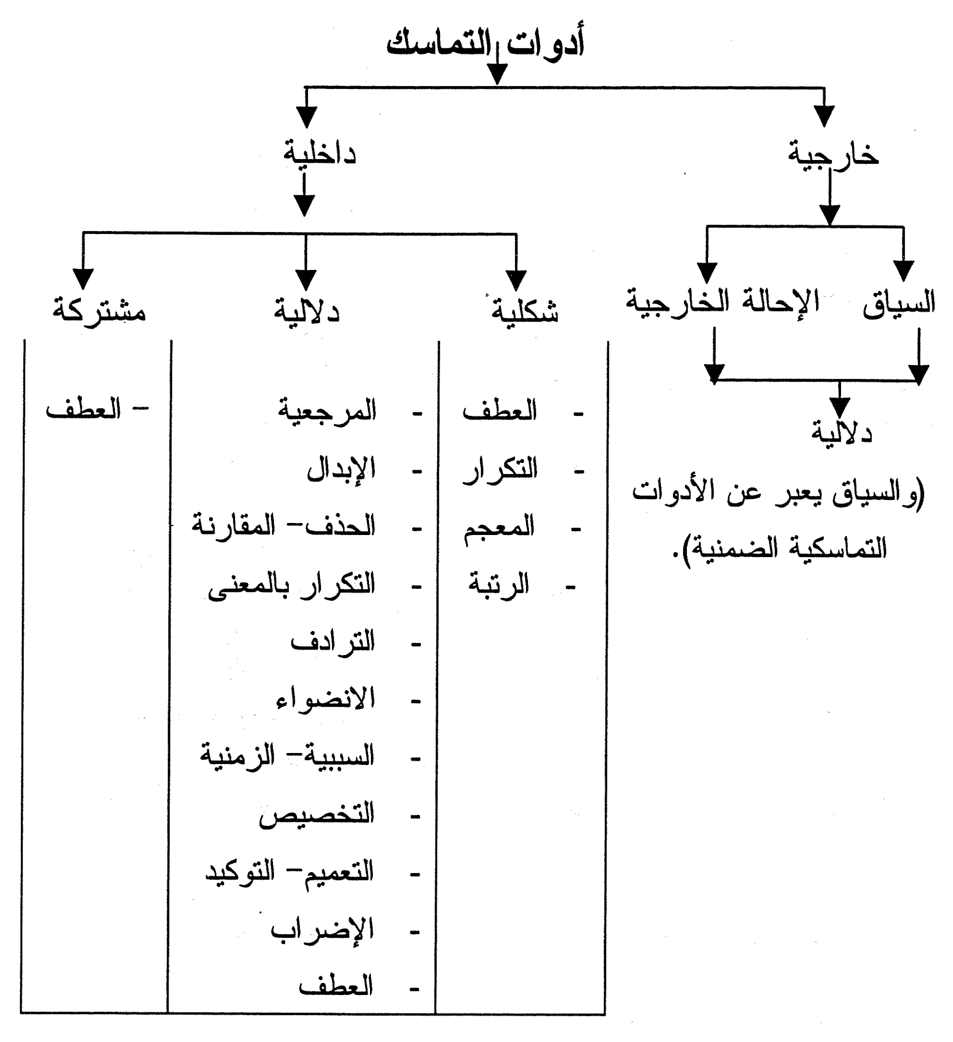
وانظر السيوطى، حيث ذكر أداة التخصيص ... فمن أمثلة ما خص بالقرآن قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ البقرة/٢٢٨، خص بقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ الأحزاب/٤٩، وبقوله: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ الطلاق/٤. وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ المائدة/٣ خص من الميتة السمك بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ المائدة/٩٦. وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ النور/ ٢٥. خص بقوله: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ النساء /٢٥. وقوله: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ النساء /٣. خص بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ...﴾ النساء/٢٣. معترك الأقران فى إعجاز القرآن، ٢١٢/١- ٢١٣ .

إذن الآيات التى نطلق عليها تفسير القرآن بالقرآن كلها تعد نوعاً من أنواع التماسك بين الآيات المتباعدة فى السور المختلفة. هذا إضافة إلى العلاقات التماسكية الأخرى الموجودة فى الآيات كما سيتضح فى الفصول التالية.

ونرى أن مثل هذا النوع من التماسك يؤكد تماسك النص القرآنى على الرغم من أنه نزل منجماً فى أكثر من عشرين عاماً.

ونرى أنها ينبغى أن تكون من بين ما يمتلكه المنتج والمتلقى على حد سواء؛ فإذا نقصت عند المنتج، عجز عن إبراز إنتاجه فى صورة متماسكة، وكذا إذا جهلها المتلقى، فإنه سوف يعجز عن الحكم على النص وتحليله، بل قد يعجز، فى الغالب، عن فهم معنى النص.

ويمكننا تلخيص أدوات التماسك النصى فى الشكل التالى :



هذا وقد ركز الكتاب على أكثر هذه الأدوات وروداً، وأكثرها تأثيراً فى تحقيق التماسك النصى. وأكثرها إسهاماً فى التحليل النصى. وهى:

المرجعية (الضمائر- الإشارة - الموصول)، العطف، التأكيد، البدل، النعت، الحذف، التكرار، ثم مناسبة التماسك بين الآيات وبعضها، والسور وبعضها. مع مراعاة دور السياق كلما لزم الأمر فى كل من هذه الفصول.

المبحث الرابع

نظرة القدماء للتماسك



ذكرنا فى الفصل السابق لمحات من أقوال بعض علماء البلاغة والتفسير واللغة فيما يُعد بحثاً نصياً إلى حد كبير.

فالقرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين ونزل معجزاً فى جوانبه كلها. ومن هذه الجوانب إعجازه اللغوى، ولهذا فقد حار العرب فى أمره "إذ لا يرون فى آدابهم له نظيراً، ولا يرون أنفسهم قادرين على تقليده، وذلك لسمو أسلوبه، وجمال نسجه، وما اشتمل عليه من تشريع وإخبار بالغيب .... "[١].

وقد ذُكر – فيما سبق – أن حسن النسق من جوانب الإعجاز فى القرآن الكريم. كما أن انسجام الشعر من جوانب جماله كما ذكر د. إبراهيم أنيس[٢]. وقد لاحظ القدماء هذا الجانب المعجز فى القرآن الكريم، وحاولوا دراسته كل بما يناسب تفسيره.

والقرآن الكريم، لشدة تماسكه، عُدَّ كالكلمة الواحدة، على الرغم من أن "كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص فى علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة. ومع ذلك فإنها- السور المكية خاصة- تجتمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة، وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص فى علاج هذا الموضوع، وتحقيق هذه الغاية"[٣].

ووحدة الموضوع من بين جوانب التماسك فى القرآن المكى؛ فإذا كانت السور المدنية تركز على موضوع التشريع، فإن السور المكية تركز على

---

(١) د. إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٧٨، ص ٣٢٢، ٨، ٩.

(٢) نفسه.

(٣) سيد قطب: فى ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، ط١٦، ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠ م، ٣/ ١٢٤.

"حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، وحقيقة العلاقات بينهما، وتعريف الناس بربهم الحق الذى ينبغى أن يدينوا له ويعبدوه، ويتبعوا أمره وشرعه، وتنحيه كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء، ورد الناس إلى إلههم الحق الذى يستحق الدينونة لربوبيته"(١).

وإبرازًا لهذا التماسك الموضوعى تعددت اللمحات النصية؛ فقد نظر عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ) – على سبيل المثال لا الحصر– إلى القرآن الكريم نظرة كلية باعتباره نصاً واحداً، وذلك بعرضه سؤالاً مؤداه : ما الذى أعجز العرب من النص القرآنى؟

وأجاب بأنهم "تأملوه سورة سورة، وعشراً عشراً وآية آية، فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبوبها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً .... (٢).

فقد ذكر هنا أموراً تتعلق بالتحليل النصى، وأولها النظرة الكلية باعتبار النص الوحدة الكبرى فى التحليل، وثانيها ذكره لمصطلحات ذكرها علماء النص، مثل التماسك ويقابل عند المحدثين مصطلح Coherence إذ ارتبط بالجوانب الدلالية المتعلقة بما يحيط بالنص والإحالات الخارجية، ولذلك ذكر مصطلح الالتئام، وهو يقابل التماسك أو التماسك النصى.

ولم يقف الجرجانى عند حد التماسك الشكلى بل قرر، فى صورة تساؤل، أن هذا الإعجاز "**لما بين الألفاظ من الاتساق العجيب**"(٣).

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ١٧٤٥ .
– هذا وقد ذكر الرافعى أن جمال النسق من جوانب الإعجاز القرآنى، انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٧٧ وما بعدها.
(٢) عبدالقاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز، ص ٨٩ .
(٣) السابق، ص ٩٥ .



إذن ذكر التماسك الشكلى والتماسك الدلالى، وهذان الجانبان، كما أكدنا، هما كل ما يتعلق بالتحليل النصى، بكل ما يتصل بهما من جوانب متعددة.

ويقول فى نص طويل، وهو يفرق بين نظم الحروف فى الكلمة، ونظم الكلمات فى النص، إن الثانى "يقتفى فيه آثار المعانى، وترتبها فى الكلام حسب ترتيبها - أى المعانى - فى النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، نظيراً للنسيج والتأليف .... والبناء وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض. والفائدة فى معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها فى النطق، بل أن تناسقت دلالتها .....

واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك، علمت علماً، لا يعترضه شك، أن لانظم فى الكلم، ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك .... وننظر إلى التعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ما معناه وما محصوله"(١).

فأشار هنا إلى أهمية التماسك الدلالى، والتماسك بين أجزاء النص، وإلى التعالق، وإلى علاقة السببية، وهى من علاقات التماسك النصى.

ويشرح، فى نص آخر، معنى التماسك بصورة تكاد تكون أوضح من شرحها فى العصر الحديث، فيقول: "واعلم أن مما هو أصل فى أن يدق النظر، ويغمض المسلك فى توخى المعانى .... أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها فى بعض، ويشتد ارتباط ثان فيها بأول، وأن يحتاج فى الجملة إلى أن تضعها فى النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حال البانى يضع بيمينه هاهنا فى حال ما يضع بيساره هناك، نعم وفى حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين ... واعلم أن من الكلام ... سبيله فى

(١) السابق، ص ٩٨، ١٠٢.



ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها فى سلك لا يبغى أكثر من أن يمنعها التفرق ... [١].

وإذا كان هذا شأن علم من أعلام البلاغة، فإن علماء التفسير قد كان لهم باع طويل فى التحليل النصى، وهذا أمر بدهى، فقد جعلوا من شروط المفسر الإدراك الشامل لآيات القرآن الكريم، ومعرفة مناسبات النزول هذا إضافة إلى أنهم يفسرون نصاً مقدساً من لدن رب العالمين. ومن هنا فقد ظهر التماسك عندهم على أبعاد كثيرة أشرنا إليها، مثل التماسك بين الحرف والحرف، والكلمة والكلمة، والكلمة والجملة، والكلمة والفقرة، والجملة والجملة، والسورة والسورة، وأول السورة وآخرها إلى آخر علاقات التماسك.

وذكرنا فيما سبق تركيز علماء النص على أهمية الجملة الأولى فى التحليل النصى، وعلاقة الجمل التالية كلها بهذه الجملة. وبالقياس نجد الرازى (ت٣٢٨هـ) يذكر أهمية سورة الفاتحة بالنسبة لما يليها، فيقول: "... هذه السورة مسماة بأم القرآن فوجب كونها كالأصل والمعدن، وأن يكون غيرها كالجداول المتشعبة منه، فقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تنبيه على أن كل موجود سواه فإنه دليل على إلهيته[٢].

وقد لاحظ السيوطى هذا الأصل بالنسبة لسورة الفاتحة وعلاقة القرآن الكريم كله بها، فقد ذكر السيوطى (ت٩١١هـ) أن من أسباب بداية السور المكية بالأنعام، وذلك بعد الفاتحة بالطبع، أن كل ربع أى ٢٥٪ من القرآن تبدأ بالحمد؛ "فالفاتحة تبدأ بالحمد، والأنعام بالحمد، والكهف للربع الثالث، وسبأ وفاطر للربع الرابع"[٣].

---

(١) الجرجانى : المصدر السابق، ١٣٢ : ١٣٥ وذكر أمثلة تحليلية لهذا التماسك.

(٢) الرازى : مفاتيح الغيب، دار الغد العربى، ط١، القاهرة، ١٩٩١هـ- ١٤١٢هـ، ١/ ٢٢٧.

(٣) السيوطى : تناسق الدرر فى تناسب السور، ص ١٠٠ .

وهذه نظرة فاحصة لقضية التماسك بين سور القرآن قاطبة، والمكية خاصة؛ فهذه السور التى تبدأ بالحمد كلها مكية، وهذه النظرة تمثل نظرة كلية للنص القرآنى باعتباره وحدة متكاملة.

وقد فصل الرازى علاقة سورة الفاتحة بكل من الأنعام والكهف وسبأ وفاطر، من منطلق بداية كل منها بـــ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (١).

وهذه الروابط التى تظهر بدقة النظر، وطول التفكر والتأمل، هى روابط تماسكية دلالية. وكذلك فيها مراعاة للتناسب بين الآيات. وهذا يحتاج

(١) الرازى: مفاتيح الغيب، ١/ ٢٢٧- ٢٢٨، حيث يقول: ... ثم إنه افتتح سوراً أربعة بعد هذه السورة بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

فأولها: سورة الأنعام، وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾/١، واعلم أن المذكور هاهنا قسم من أقسام قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فى الفاتحة، لأن لفظ العالم يتناول كل ما سوى الله، والسموات والأرض والنور والظلمة قسم من أقسام ما سوى الله، فالمذكور فى أول سورة الأنعام كأنه قسم من أقسام ما هو مذكور فى أول سورة الفاتحة ١/ ٢٢٧. وهذا فيما نرى نوع من التماسك بين السورتين. وسوف يفصل هذا فى فصل المناسبة.

"وثانيهما: سورة الكهف، وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾/١ والمقصود منه تربية الأرواح بالمعارف، فإن الكتاب الذى أنزله على عبده سبب لحصول المكاشفات والمشاهدات، فكان هذا إشارة إلى التربية الروحانية فقط، وقوله فى أول سورة الفاتحة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى التربية العامة فى حق العالمين، ويدخل فيه التربية الروحانية للملائكة والإنس والجن والشياطين، والتربية الجسمانية الحاصلة فى السموات والأرضين، فكان المذكور فى أول سورة الكهف نوعاً من أنواع ما ذكره فى سورة الفاتحة.

وثالثها: سورة سبأ، وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾/١، فبين فى سورة الأنعام أن السموات والأرض له، وبين فى أول سورة سبأ أن الأشياء الحاصلة فى السموات والأرض له، هذا أيضاً قسم من الأقسام الداخلة تحت قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ورابعها: سورة فاطر، وهو قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾/١، والمذكور أول الأنعام كونه خالقاً لها، والخلق هو التقدير، والمذكور هنا كونه فاطراً لها ومحدثاً لذواتها، وهذا غير الأول إلا أنه أيضاً قسم من الأقسام الداخلة تحت قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

... ويظهر أن هذه السورة جامعة لجميع المقامات المعبرة فى معرفة الربوبية من البداية هى قوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وجامعة لمعرفة العبودية تبدأ من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى آخرها" ١/ ٣٢٧.

كما جاء فى الترجمة للإمام الرازى فى مقدمة الكتاب - "إلى عقلية تتميز بسعة الأفق، إذ إنه يخدم معنى الآية، لأنه يربط الآية بما سبقها من الآيات ... وقد برع الرازى فى ربط الآيات السابقة بالآيات اللاحقة"(١).

وهذا الربط هو ما يعنيه التماسك، سواء أكان شكلياً أم كان دلالياً. وهذا يمثل أيضاً إدراكاً واعياً لدى المفسرين لقضية التماسك النصى(٢).

وإذا كان الرازى والسيوطى نموذجين - على سبيل المثال لا الحصر- لتحليل النص القرآنى من ناحية إبراز التماسك النصى. وإذا كان الجرجانى ممثلاً للبلاغيين فى هذه القضية. فإن الأمر بالنسبة للغويين يختلف إلى حد كبير، إذ إنهم يركزون تركيزاً شديداً على التماسك على مستوى الجملة فقط، وهذا فى الغالب، فقد ركزوا، فى قضية الإسناد، على الابتداء والفاعلية وغيرهما مما يتعلق بالجملة. وعلى ضرورة وجود الرابط فى جملة الصلة والخبر الجملة. وهذا نوع من التأكيد على ضرورة التماسك، لكن على مستوى الجملة فقط.

فالمبرد "ت ٢٨٥هـ" يركز على أن "اللفظة الواحدة من الاسم والفعل لا تفيد شيئاً، وإذا قرنتها بما يصلح حدث معنى ... (٣).

وتحدث سيبويه من قبل عن أهمية وجود الضمير الذى يحيل على السابق، وإلا يصبح الكلام غير حسن، ومن أمثلة ذلك:

- يومُ الجمعة ألقاك فيه.

(١) الرازى : مفاتيح الغيب، ١/ ١٨ .

(٢) وامتد هذا الوعى واتسعت آفاقه إلى المعاصرين؛ فقد قام تفسير الظلال للأستاذ/ سيد قطب كله على هذا المنهج الذى ينظر إلى القرآن بوصفه نصاً كاملاً متماسكاً، والسورة كذلك، ثم يتطرق إلى بعض من أنماط التماسك بين عناصر السورة.

(٣) المبرد : المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ٤/ ١٢٦، ١٢٧ . حيث تحدث عن التماسك بين المبتدأ والخبر.

- أقلُّ يوم لا ألقاك فيه.

- أقلُّ يوم لا أصوم فيه.

- مكانكـــــم قمت فيه.

- يوم الجمعة صمته ... حيث كان المضمر - الهاء - هو الأول [يوم الجمعة]، ولا يحسن فى الكلام أن يجعل الفعل مبنياً على الاسم -[السابق]- ولا يذكر علاقة إضمار الأول حتى يخرج من لفظ الإعمال فى الأول ومن حال بناء الاسم عليه وتشغله بغير الأول ... ولكنه قد يجوز فى الشعر، وهو ضعيف فى الكلام. قال الشاعر، وهو أبو النجم العجلى:

(من بحر الرجـــز)

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الخِيَارِ تَدَّعِى   عَلَىَّ ذَنْباً كُلُّه لَمْ أَصْنَـــعِ

وقال امرؤ القيس : (من بحر المتقارب)

فَأَقْبَلَتُ زَحْفاً عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ   فَثَوْبٌ لَبِسْتُ وَثَوْبٌ أَجُرُّ

وقال النمرُ بن تولب : (من بحر المتقارب)

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَـــــومٌ لَنَــــا   وَيَومٌ نُسَاءُ ويومٌ نُسَـــرُّ

... يريدون: نُساء فيه ونُسر فيه. فهذا ضعيف(١).

ويعلق السيرافى فى الهامش قائلاً:

"حذف الهاء يكون فى ثلاثة مواضع: فى الصلة، والصفة، والخبر... وحذفها فى الخبر قبيح"(٢).

(١) سيبويه: الكتاب : تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط٣، الناشر الخانجى، القاهرة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، ١، ٨٤، ٨٧، ٨٨ .

(٢) السابق .

فقد وقف الإعمال من عدمه على وجود الضمير من عدمه؛ فوجود الضمير الرابط بين المعمول المتقدم والعامل المتأخر يجيز العمل مثل :

قابلت علياً وزيداً رأيته

ويذكر سيبويه أنه "اختير النصب هاهنا لأن الاسم الأول مبنى على الفعل، فكان بناء الآخر على الفعل أحسن عندهم ...."[١].

فهذه كلها تمثل المرجعية القبلية Anaphoric reference وكذلك يجعل سيبويه المبتدأ والخبر كأنهما شيء واحد لشدة التماسك فى مكان أو زمان"[٢].

هذا وقد أشير فى نهاية الفصل الأول إلى النص الذى أورده الرضى (ت٦٨٦هـ)، الذى تعدى فيه حدود الجملة فى عملية التماسك، وذلك من خلال الضمير[٣].

ومن الجوانب التى أكدها التحليل النصى حين معالجة التماسك الدلالى، قضية التفاعل Interaction بين المنتج والمتلقي والنص. وكذا وجدنا هذه اللمحات عند علماء العربية؛ فيتحدث المبرد مثلاً عن الابتداء: "نحو قولك: زيد، فإذا ذكرته فإنما تذكره للسامع، ليتوقع ما تخبره به عنه، فإذا قلت (منطلق) أو ما أشبهه، صح معنى الكلام، وكانت الفائدة للسامع فى الخبر؛ لأنه قد كان يعرف زيداً كما تعرفه، ولولا ذلك لم تقل له زيد، ولكنت قائلا له: رجل يقال له زيد، فلما كان يعرف زيداً، ويجهل ما تخبره عنه – أفدته الخبر، فصح الكلام .... [٤].

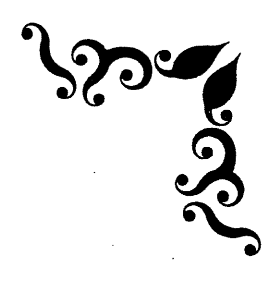
(١) السابق .
(٢) السابق، ١/ ٢٧٨ .
(٣) انظر : الفصل الأول من الكتاب.
(٤) المبرد : المصدر السابق، ٤/ ١٢٦ .

فالمنتج هنا راعى حال المتلقى من حيث العلم بالموضوع أو الجهل به. وفيه إشارة إلى أن الكلام لم يكن إلا للسامع. وقوله "لأنه قد كان يعرف زيداً كما تعرفه" ذكر للسياق المحيط من حيث معرفة زيد لدى كل من المنتج والمتلقى. والنص نفسه، أو الكلام يعدل حسب معرفة المتلقى من جهله.

وتحدث أيضاً كثيراً عن دور المخاطب فى إنتاج الكلام؛ فيقول: "إنما تحذف إذا علم المخاطب ما تعنى[1].

ومن هذه اللمحات الموجزة تأكد لنا إدراك البلاغيين والمفسرين واللغويين لكثير من الجوانب المرتبطة بالتماسك النصى، شكلياً ودلالياً. غير أن هذا لم ينته إلى صورة نظرية متكاملة مثل نظرية النحو المتصلة بالجملة. وهذا يدعونا لتطوير النظر إلى اللغة من زاوية اعتبار أن النص الوحدة اللغوية الكبرى، ويدعونا لمحاولة وَضْعِ نَحْوٍ يمكن من خلاله معالجة النص ككل. وهذا ما نحاوله فى هذا الكتاب، ونأمل فى تطبيقه فى كثير من النصوص مجال الدراسة. وحتى يتسنى لنا معالجة النص القرآنى من هذه الزاوية، نحاول معرفة بعض من النماذجِ التى حللها علماء اللغة النصيون لتظهر صورة التحليل جلية. حتى ندرك الفارق فى التحليل بين النص العربى والنص الأجنبى. وهذا موضوع سوف يعرض فى بداية كل فصل من الفصول التطبيقية التالية.

(١) انظر : أ – سيبويه: الكتاب، ١/ ١٧٩ .
ب– المبرد : المقتضب، ٤ / ١٣٠ .



الفصل الثالث

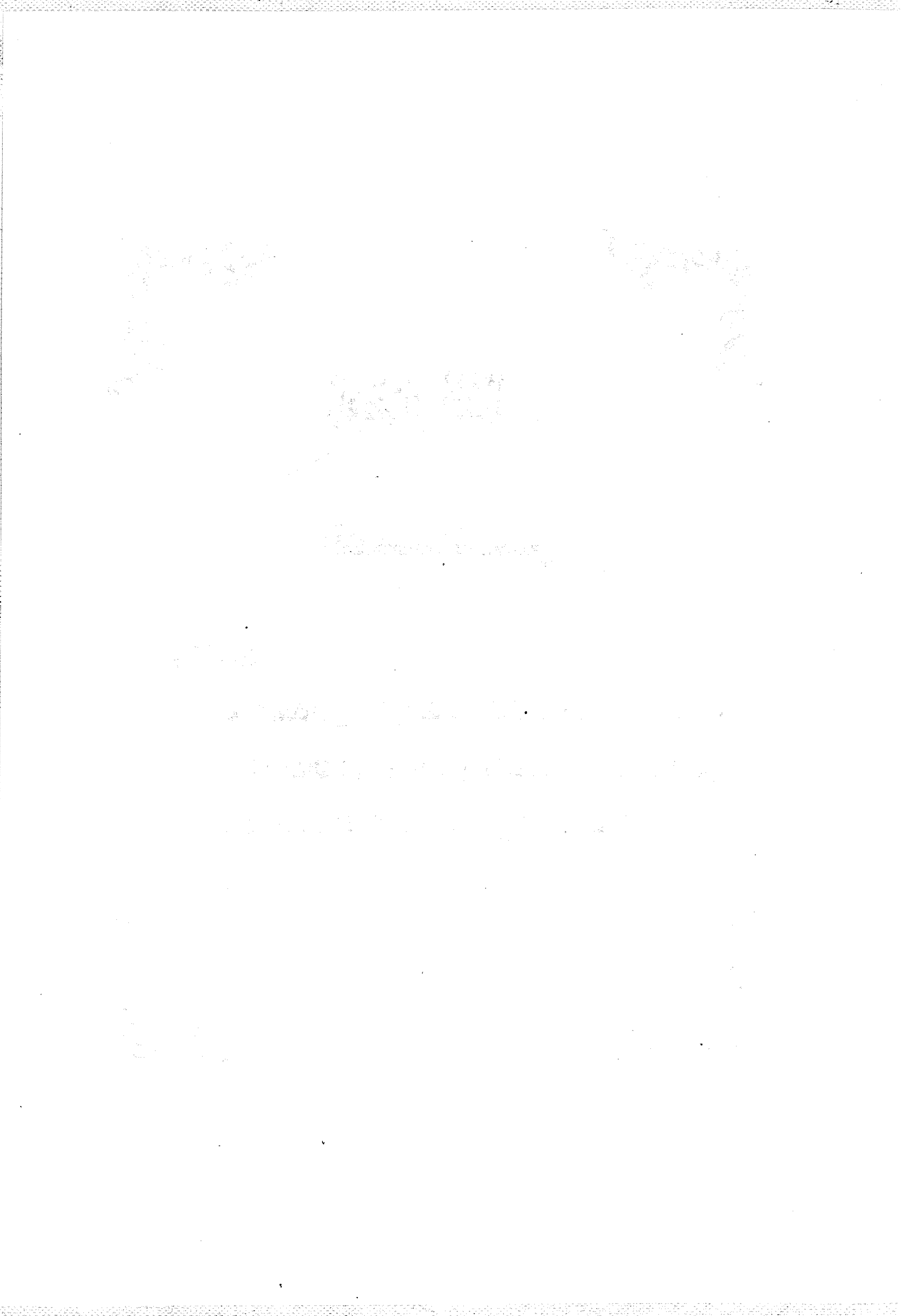
الضمائر

ويتكون من:

- **المبحث الأول:** دور الضمير وأهميته عند علماء العربية.
- **المبحث الثاني:** دور الضمير وأهميته عند علماء النصية.
- **المبحث الثالث:** التحليل النصي للسور المكية.







أيوجد للضمائر دورٌ بارزٌ فى تحقيق التماسك النصى؟ أهذا الدور على مستوى الجملة الواحدة؟ أم على مستوى جملتين؟ أم على مستوى النص؟ وهل التماسك الحادث شكلى أم هل هو دلالى؟

بمعنى آخر: ما دور الضمائر فى تحقيق التماسك النصى فى السور المكية؟

وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة يُطرح على البحث سؤال آخر ما الدور الذى قام به القدماء والمحدثون فى إبراز دور الضمائر فى تحقيق التماسك النصى؟

بداية نشير إلى أن الضمائر تكتسب أهميتها بصفتها نائبة عن الأسماء والأفعال والعبارات والجمل المتتالية؛ فقد يحل ضمير محل كلمة أو عبارة أو جملة أو عدة جمل. ولا تقف أهميتها عند هذا الحد؛ بل تتعداه إلى كونها تربط بين أجزاء النص المختلفة، شكلاً ودلالة، داخلياً "Endophoric" وخارجياً "Exophoric" ، وسابقة "Anaphoric" ولاحقة "Cataphoric".

ولهذه الأهمية لم يغفل القدماء والمحدثون دورها؛ كُلٌّ حسب بيئته وما يهدف إليه من التحليل؛ فمنهم من قصر أهميتها على مستوى الآية الواحدة، أو البيت الشعرى، بصفة أى منهما الوحدة الكبرى. ومنهم من تعدى هذا الحد ليعالج دورها على مستوى النص الكامل (النثرى والشعرى) على حد سواء؛ فقد لاحظنا الأمر الثانى فى تفسير القرآن الكريم، وفى شروح بعض الدواوين الشعرية مثل شرح العكبرى لديوان المتنبى، وشرح ثعلب لديوان زهير بن أبى سلمى، وشرح الشنتمرى لديوان النابغة، وغيرها مثل كتب مشكل إعراب القرآن. لكن مع ذلك لم تظهر هذه الإشارات فى صورة نظرية مستقلة.

وقد تكرر تأكيداً أن الهدف من الكتاب ليس إثبات أسبقية القدماء للمعالجة النصية من عدمها، ونظراً لهذا السبب، فإننا نهدف - خاصة فى هذا الفصل وما يليه. إلى التحليل النصى المعاصر.

وتجدر الإشارة إلى أن التحليل لآيات السور المكية كلها نصياً أمرٌ يثقل كاهل البحث، ويبعده عن الخروج بنتائج دقيقة، بل سيؤدى إلى السطحية، هذا فضلاً عن الإطالة غير المفيدة. ومن ثم نكتفى فى كل فصل بعرض نماذج تمثل التحليل النصى المعاصر، ثم يحال بعد ذلك إلى الجداول الإحصائية.

والضمائر التى نعنيها فى بحثنا ليست ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب فحسب؛ بل تشمل كذلك ضمائر الإشارة وضمائر الموصول؛ إذ تقوم الإشارة والموصولات بنفس وظيفة الضمائر من حيث الإشارة والمرجعية والربط، فالإشارة قد تكون إلى سابق أو لاحق أو خارج النص. وكذا الموصول فى مثل :

رأيتُ الرجلَ الذى تَحدَّثَ عَنْه النَّاسُ

فـ "الذى" يشير أو يرجع إلى الرجل مرجعية قبلية ، ومع ذلك يرتبط بما بعده عن طريق الضمير الواجب وجوده فى جملة الصلة. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن الحديث عن تعريف الضمائر بأقسامها فى النحو العربى أمر يُعد نافلة؛ فهذا أمر حسمته كتب النحو العربى منذ زمن بعيد[1].

لنبدأ إذن بعرض دور الضمير وأهميته فى تحقيق التماسك، وذلك بين علماء العربية وعلماء النصية. وكيف حلل كل من القدماء والمحدثين دور الضمير.

---

(١) تفصيل الحديث عن الضمائر فى كتب النحو العربى كلها، ويُرجع على سبيل المثال إلى :

أ – سيبويه : الكتاب، ٢/ ٦

ب– المبرد : المقتضب، ١/ ١٧٤– ١٧٥، ٣٩٦، وبعدها. ٣/٨٤ وما بعدها.

ج– ابن يعيش شرح المفصل، ٣/٨٤ : ١٦٠ ، ٤/١ : ٢٤ إذ تحدث عن الضمائر الشخصية والإشارية، والموصولة.

د – ابن هشام : مغنى البيت، ٢/ ١٠٢ وما بعدها

هـ– الرضى : شرح الكافية، ٢/٣ وما بعدها.

المبحـــث الأول

دور الضمير وأهميته عند علماء العربية



تَمَثَّلَ هذا الأمر عندهم فى الحديث عن مرجعيته القبلية والبعدية والخارجية والداخلية. علْماً بأن أهميته ليست المرجعية فحسب، بل المرجعية والربط بين الأجزاء الداخلية من ناحية، وبين الداخلى والخارجى من ناحية أخرى.

هذا وقد كانت هناك آراء عديدة لكثير من علماء العربية؛ منهم؛ سيبويه (ت ١٨٠هـ)، والفَرّاء (٢٠٧هـ)، والمُبَرِّد (ت ٢٨٥هـ) وثعلب (٢٩١ هـ) والباقلانى (٤٠٣هـ) والقيسى (٤٣٧هـ) والجرجانى (٤٧١هـ) والعُكبرى (٦١٦هـ) والرَّضى (٦٨٦هـ) وابن هشام (٧٦١هـ) والسيوطى (٩١١هـ) وغيرهم.

ومن أهم الظواهر التى تجعلنا نقول: إن القدماء كانت لهم معالجات للنص؛ ظاهرة تصدى العديد من اللغويين لشرح الدواوين، كما أشرنا، والدواوين عبارة عن قصائد، والقصيدة عبارة عن نص شعرى يقبل التحليل النصى. وكذلك وردت إشارات عن المرجعية فى كتب الغريب. كذلك تحليل السورة، فإنها تعد نصاً ذا وحدة دلالية متماسكة(١).

وقد تبلورت هذه المعالجات فى إشاراتهم إلى مرجعية الضمير : أهى إلى مذكور فى النص صراحة؟ أهذا المذكور سابق أم لاحق؟ أم هو غير مذكور فى النص، وهناك ما يدل عليه؟ وفى الحالة الأولى نجد أن المرجعية داخلية، وفى الثانية المرجعية خارجية تعتمد على السياق. بل قد تعتمد الحالة الأولى فى بعض الأحيان على السياق اللغوى.

والتماسك الدلالى يظهر أحياناً فى شروحهم لأبيات توقفت دلالاتها على دلالة البيت السابق؛ فقد يكون البيت، لشدة تماسكه دلالياً بالذى يليه، خاليين من الروابط اللفظية، لكن تربطهما الدلالة.

---

(١) فقد ورد فى اللسان، مادة (س و ر) أن السورة قطعة من القرآن مقطوعة عن الأخرى، وقورن بين معناها ومعنى السور أى الحائط الذى يحيط بالمدينة، وفى هذا إشارة إلى وحدة السورة الدلالية وتماسكها النصى أيضاً ذو وحدة دلالية.

وإذا حاولنا استعراض جهود بعض من علماء اللغة، نجد سيبويه، على سبيل المثال، قد تحدث عن التماسك، لكن على مستوى الجملة؛ فيتحدث عن قوة التماسك بين المبتدأ والمبنى عليه؛ " وأن المبنى عليه هو هو"(١). أو كما قال المبرد: " فالخبر هو الابتداء فى المعنى"(٢).

وفى هذا قوة التماسك الدلالى. أما إذا كان غير الأول، فإنه لابد أن يكون فى الخبر "ذكر فإن لم يكن على أحد هذين الوجهين فهو محال. ونظير ذلك: زيد يذهب غلامه، وزيد أبوه كريم ... ولو قلت: زيد قام عمر- لم يجز"(٣). وذلك- بالطبع- لخلو جملة الخبر من ضمير، أو ذكر يعود إلى المبتدأ. ومن ثم أصبح محالاً عدم وجود رابط فى مثل هذه الجملة(٤).

وإذا كان هذا محالاً فى النثر، فإنه جاز فى الشعر على ضعف. وقد مثل سيبويه لمثل هذا الحذف بشواهد عديدة، منها قول أبى النجم العجلى (من الرجز) :

قَـدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الْخِيارِ تَدَّعِى   عَـلَّى ذَنْـباً كُـلُّهُ لَـمْ أَصْنَع

وقـول امرئ القيس (من المتقارب) :

فَأَقْبَـلْتُ زَحْفـاً عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ   فَـثَوْبٌ لَبِسْـتُ وَثَـوْبٌ أجرُّ

وقول النمر بن تولب (من المتقارب) :

فَيَـوْمٌ عَلَيْـنَا وَيَـوْمٌ لَـنَا   وَيَـوْمٌ نُسَـاءُ وَيَـوْمٌ نُسَـرُ

---

(١) انظر : أ- سيبويه : الكتاب ، ١/ ٢٧٨ .
ب-المبرد : المقتضب، ٤ / ١٢٧ .
(٢) المبرد : السابق، ٤ / ١٢٨
(٣) المبرد : السابق، ٤ / ١٢٨
(٤) الصحيح وغير الصحيح من القضايا التى اهتم بها التحويليون تحت مصطلحى Grammatical, and Ungrammtical.

..... يريدون: نُساء فيه ونُسر فيه، وهذا ضعيف، وإنما شبهوه بقولهم : الذى رأيت فلانٌ، حيث لم يذكروا الهاء ... [١].

والتقدير على الترتيب: لم أصنعه، لبسته وأجره، ونساء فيه ونسر فيه. ويقول ابن جنى عن هذا الشاهد: "قد نابت - [أى الياء] - عن الضمير العائد حتى: كأنه قال: لم أصنعه .... "[٢].

وقد أدرك مرجعية الضمير فى مثل قولنا : رجل حسن وجهه، ذكر أن الهاء "هى إضمار الرجل" [٣]. وهى مرجعية قبلية بتعبير النصيين. غير أنها هنا على مستوى الجملة لا النص.

وإذا انتقلنا نقلة زمنية كبيرة لنصل إلى مفكر لغوى من مفكرى القرن الثامن الهجرى وهو ابن هشام، نجده قد أنتج مادة غزيرة ترتبط بالمرجعية القبلية، والبعدية؛ وترتبط بمواضع وجوب وجود الرابط، والأشياء التى تحتاج إلى رابط، وغير ذلك مما يحتاج إلى وقفة يسيرة تسهم فى كشف اللثام عن نظرته إلى هذه المرجعية.

فقد ذكر تحت عنوان "روابط الجملة بما هى خبر عنه" عدة روابط تشتمل على أغلب الروابط التى ذكرها علماء النص المعاصرون. منها :

"**الضمير**"، وهو الأصل. ولهذا يربط مذكوراً كزيد ضربته، ومحذوفاً نحو: {إن هذان لساحران} طه/ ٦٣ . إذا قدر: لهما ساحران ... [٤].

فمن اللافت للنظر ذكره كون الضمير رابطاً، وهذه وظيفته النصية، وقد جعله أصلاً للروابط. وهذا يوضح إدراكه لأهمية الضمير بصفة خاصة، وعند النصيين لقى الضمير اهتماماً شديداً فى التحليل النصى كما ستوضح الدراسة.

---

(١) سيبويه : السابق، ١/ ٨٥ : ٨٩ . وانظر : الخصائص لابن جنى ، ١/ ٢٩٣

(٢) ابن جنى : السابق، ٢٩٣/١ .

(٣) سيبويه : السابق، ١/ ٨٥ : ٨٩ . وانظر : الخصائص لابن جنى ، ١/ ٢٩٣ .

(٤) ابن هشام : مغنى اللبيب، ٢/ ١٠٦ .

غير أن الضمير قد يكون موجوداً، ومع ذلك لا تتحقق وظيفته الترابطية، بين أجزاء الجملة أو النص[1]. وهذا ليس موضوعنا؛ لذا سوف نركز على الضمير فى حالة كونه رابطاً.

وثانى الروابط التى ذكرها ابن هشام "**الإشارة**": نحو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ٣٦/ الأعراف ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ٤٢/ الأعراف ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ الإسراء / ٣٦، ويحتمله ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ الأعراف/٢٦، وخص ابن الحاج المسألة بكون ... الإشارة إشارة البعيد، فيمتنع نحو: زيد قام هذا ... [2].

و"هذا" يقابل عند النصيين "This" للقريب و"that" للبعيد. والإشارة تحقق دوراً مماثلاً لدور الضمائر السالفة الذكر أولاً. ومن ثم لاحظنا أن الضمائر والإشارة لهما ذكر كثير فى القرآن المكى خاصة كما هو واضح فى الجداول، وسوف يُعرض بعد قليل دورهما البارز فى تحقيق تماسك النص القرآنى.

وثالث الروابط "**إعادة المبتدأ بلفظه**". - [يقصد التكرار] - ... نحو ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ الحاقة/ ٢،١ و ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ الواقعة/٢٧[3]. ونزيد عليه تكرار العبارة، والجملة، بل عدة جمل، والقصة كما هو واضح فى الجداول بعد استقراء النص المكى. وسوف نفرد للتكرار فصلاً خاصاً إن شاء الله.

---

(١) ابن هشام : السابق، ٢/ ١٠٧ .
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.

ورابعها "**إعادته بمعناه**"، نحو: زيد جاءنى أبو عبدالله، إذا كان أبو عبدالله كنية له ...[1]. ومن ثم يمكننا أن نعد ورود مترادفات للكلمة بعد ذكرها نوعاً من التكرار.

ومن المعلوم سلفاً أن التكرار من أهم عوامل التماسك النصى، ولهذا لقى اهتماماً بالغاً من علماء العربية، خاصة من ناحيتى البلاغة والتفسير ومن ناحية اللغة صُنف من قبيل التوكيد اللفظى.

وخامس الروابط "العطف بالفاء" جملة ذات ضمير على جملة خالية منه أو بالعكس نحو: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الحج/ ٦٣ [2].

فربط هنا بين أكثر من جملة، لا جملة واحدة، عن طريق العطف. والعطف بصفته واحداً من التوابع، يمثل كذلك أحد عوامل التماسك النصى.

ونلاحظ كذلك أن وظيفة الفاء فى المثال السابق شكلية ودلالية؛ شكلية فى كونها عاطفة بين جملتين، ودلالية فى كونها ربطت بين السبب والنتيجة؛ فالأرض لا تصبح مخضرة إلا بفعل نزول الماء. ومن ثم يمكننا القول بأن الفاء هنا حققت تماسكاً شكلياً دلالياً.

السادس: "العطف بالواو" ... نحو زيد قامت هند وأكرمها ... بناء على أن الواو للجمع؛ فالجملتان كالجملة ... "[3].

---

(١) نفسه.

(٢) السابق، ٢/ ١٠٧ .

(٣) نفسه، ٢ / ١٠٨ .

هذا وقد ذكر ابن هشام روابط أخرى غير هذه الست، غير أننا اكتفينا بهذه الروابط؛ الضمائر، الإشارة، التكرار، العطف، لكونها من أهم الروابط التى تتعدى الجملة الواحدة، ولأنها سوف نعتمد عليها فى كتابنا هذا.

وقد ذكر ابن هشام كذلك إحدى عشرة جملة تحتاج إلى روابط وهى :

١- الجملة الخبرية ٢- جملة الصفة =

فإعادة ترتيب المثال السابق تجعله هكذا :

قامت هند وأكرمها زيدٌ

وابن هشام ربط هنا كذلك بين جملتين برابطة العطف بالواو.

ولم يقف جهد ابن هشام عند ذكر هذه الأنواع من الروابط؛ بل نراه يتحدث كذلك عن "المواضع التى يعود الضمير فيها على متأخر لفظاً ورتبة"(١). وهى التى يطلق عليها علم اللغة النصى مصطلح المرجعية اللاحقة Cataphoric reference وهى عند ابن هشام كما يلى :

أحدها: أن يكون الضمير مرفوعاً بنعم أو بئس ولا يفسر إلا بالتمييز نحو : نعم رجلاً زيد وبئس رجلاً عمرو. . .

الثانى: أن يكون مرفوعاً بأول المتنازعين المعمل ثانيهما نحو : جفونى ولم أجف الأخلاء.

الثالث: أن يكون مخبراً عنه فيفسره خبره نحو: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الأنعام/٢٩

الرابع: ضمير الشأن والقصة نحو: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص/١

الخامس: أن يجر برب مفسراً بتمييز، وحكمه حكم ضمير نعم وبئس ... مثل ربه فتية ...

= ٣- جملة الصلة
٤- جملة الحال
٥- الجملة المفسرة لعامل الاسم المشتغل عنه.
٦- بدل البعض
٧- بدل الاشتمال
٨- معمول الصفة المشبهة
٩- جواب اسم الشرط المرفوع بالابتداء
١٠- العاملان فى باب التنازع
١١-ألفاظ التوكيد المعنوى .
انظر : السابق، ٢/ ١٠٨ : ١١٢.

(١) على الرغم من أن سيبويه تحدث عن هذا الموضوع، فإنه لم يكن بالوضوح الذى ورد به نص ابن هشام، كما أنه لم يذكر هذه المواضع كلها تحت عنوان واحد كما فعل ابن هشام.

السادس: أن يكون مبدلاً منه الظاهر المفسر له، كضربته زيداً ...

السابع: أن يكون متصلاً بفاعل مقدم ومفسره مفعول مؤخر، كضرب غلامه زيداً ...[1]. ومن نماذج مرجعية الضمير على مستوى النص، إشارة الفراء (ت ٢٠٧هـ) فى تعليقه على قوله تعالى: ﴿يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ الأنعام/ ٤٦ قائلاً: "يقال: إن الهاء التى فى (به) كناية عن الهدى"[2]. والهدى قد ذكر فى الآية "٣٥" من السورة نفسها: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ ومن هنا تعدى تحليله حدود الآية الواحدة إلى ما سبقها بعشر آيات. وهذا الربط الشكلى يعتمد على دلالة الآيات كذلك؛ لأن مرجعية الضمير تعتمد على تعلق دلالة كل من المترابطين. وهذه مرجعية داخلية سابقة.

وكذلك قوله: ﴿كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الأنعام ٨٤ هذه الهاء لنوح و(هدينا) من ذريته داود وسليمان"[3]. وهى مرجعية داخلية سابقة. كذلك بين (نوح) و(الهاء).

وقد أدرك الفراء أيضاً المرجعية الخارجية مع اعتماده فى معرفتها على مناسبة النزول أو السياق؛ فيعلق على قوله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الأنعام/١٠٩ قائلاً: "المقسمون الكفار. سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالآية التى نزلت فى الشعراء ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ الشعراء/٤. فسألوا رسول الله أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا، فأنزل الله تبارك وتعالى: قل للذين آمنوا: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام/١٠٩"[4].

(١) ابن هشام : السابق، ٢/ ١٠٢ : ١٠٤. وانظر الكتاب لسيبويه، ٢/ ١٧٥ وما بعدها.

(٢) الفراء : معانى القرآن، ١/ ٣٣٥.

(٣) السابق، ١/ ٣٤٢.

(٤) الفراء : السابق، ١/ ٣٤٩- ٣٥٠ .

فالمرجعية هنا للكفار، خارجية، لأنهم لم يذكروا صراحة، وهذه المرجعية ارتبطت بالسياق المتمثل فى مناسبة النزول. وهذا ما أكده النصيون دفعاً للبس والغموض. ويلاحظ كذلك الربط بين الآيات الواردة فى أكثر من سورة. وهذا موضعه فى فصل المناسبة.

وقد أكد السيوطى أهمية مناسبة النزول، وعلاقتها بالتماسك بين الآيات، فقال: "... فهذا هو الأمر الكلى – أى معرفة أسباب النزول – المعين على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته بيّن لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية وفى كل سورة وسورة"(١).

ونلاحظ تأكيد المبرد والصبان والرضى ضرورة وجود ضمير فى جملة الصلة يرجع إلى الموصول. (٢). ؛ فالجملة قد تصبح غير جائزة؛ أو غير صحيحة نحوياً إذا افتقرت إلى المرجع إلى الموصول مثل :

"رأيت الذى اللذان أبوهما منطلقان فى الدار ... لأنه ليس فى صلة الذى ما يرجع إليه" (٣).

فعلى الرغم من الوقوف عند حد الجملة، فإن ما يقال عن وظيفة الضمير فى الجملة، يمكن أن يقال مثله على مستوى النص، فليست وظيفة الضمير هي الإحلال فقط أو التعويض عن الاسم الظاهر، لكن تتعداها إلى كونه رابطاً يحقق التماسك النصى، ومن ثم له أهميته القصوى فى التدليل النصى.

وقد تتعدى إشاراتهم إلى أكثر من وسيلة تماسكية في جملة واحدة؛ فيذكر الرضى أن "اجتماع الواو والضمير ... أَوْلَى احتياطاً فى الربط من

(١) السيوطى : معترك الأقران فى إعجاز القرآن، ١/ ٦٢ .
(٢) انظر : أ – المبرد المقتضب، ٣/ ١٩١ ب– الصبان، ١/ ١٤٦ .
ج– الرضى : شرح الكافية، ٢/ ٣٦– ٣٧ .
(٣) المبرد : السابق، ٣/ ١٩١ .

انفراد الواو وحدها"[1]. وهذا يؤكد الحرص على تحقيق الربط بين مكونات الجملة أو الجمل.

ويهمنا هنا إدراكه لهاتين الوسيلتين العطف والضمائر لتحقيق التماسك بين الأجزاء المتباعدة.

هذا وقد أشير فى الفصل الأول إلى النص الذى ورد عن الرضى لتأكيد إدراكه للتماسك بين الجملة وبقية الجمل فى النص الواحد؛ فلابد من رابطة تربطها بالأجزاء الأخرى من النص، وإشارته إلى أن هذه الرابطة هى الضمير؛ لأنه موضوع لمثل هذا الغرض[2].

وإذا تركنا اللغويين، لنرى جهود المفسرين وجدنا كَمًّا وافراً من التحليلات التى تومئ إلى الحاسة النصية لديهم؛ ولِمَ لا وهم يعالجون فى الأصل نصاً كاملاً بين دفتى كتاب الله الكريم.

فالباقلانى - على سبيل المثال - ظهرت فى "إعجازه" تحليلات مقصورة على الآية الواحدة، وأخرى على مستوى السورة، وثالثة على مستوى أكثر من سورة؛ فيتحدث عن الاتصال بين المقدمة وما يليها من آيات، والاتصال أو الانتظام بين أول الكلام وآخره. ويتحدث كذلك عن رد العجز على الصدر، وعن العطف بين الأول والآخر، ودور هذا كله فى تحقيق التأليف بين مكونات النص القرآنى[3].

---

(١) الرضى : السابق، ١/ ٢١١ .

(٢) انظر الفصل الأول من البحث، ص ٨٨

(٣) ويجمع هذا كله محاولته تحليل سورة النمل؛ فنراه يقول إنها "بدأت بذكر السورة، إلى أن بين أن القرآن من عنده، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ /٦ . ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام. . ثم ذكر هذه القصة فى سورة طه آية / ١. والقصص آية / ٢٩. وأنه سبحانه أتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم ". ثم نراه بعد ذلك يربط بين أول الآية الثامنة وآخرها بقوله حول الآية: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: "فانظر إلى ما أجرى لـــه الكلام، . . . =

ومن أفضل الإشارات التى تتسم بالنصية تحليلات الزركشى، وحديثه فيها عن مرجعية الضمير فى النص القرآنى إلى السابق واللاحق وإلى ما هو خارج النص. وكذلك تأكيده دور المتلقى فى معرفة مرجعية الضمير. وتحدث أيضاً عن تعدد الضمير وتعدد المرجوع إليه، وكيف تعالج مرجعية الضمير حينئذ. وغير ذلك من القضايا التى تمس علم اللغة النصى(١).

وكذا أشار كل من القيسى وابن الأنبارى إلى مرجعية الضمير فى كثير من المواضع؛ ففى قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ هود/ ١٧ "الهاء فى (يَتْلُوهُ) للقرآن، فتكون الهاء على هذا القول فى (مِنْهُ) لله جل ذكره ... والهاء فى (قبله) - من قوله: (ومن قبله)/١٧- للإنجيل. وقيل الهاء فى (يَتْلُوهُ) لمحمد صلى الله عليه وسلم ... وقيل الشاهد - فى قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ /١٧- جبريل عليه السلام، والهاء فى (منه) على هذا القول لله تعالى، وفى (من قبله) لجبريل أيضاً. وقيل الشاهد إعجاز القرآن، فالهاء فى (منه) على هذا

=وكيف انتظم مع الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبية، وما دل به عليها من قلب العصاحية، وجعلها دليلاً يدل عليه، ... ثم انظر فى آية آية، وكلمة كلمة: هل تجدها كما وصفنا : من عجيب النظم، وبديع الرصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت فى الجمال غاية، وفى الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامتها ذواتها. .. ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع فى نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلاً، ببديع التأليف، وبليغ التنزيل" ثم نراه بعد ذلك يؤكد دور رد العجز على الصدر؛ رد آخر الكلام على أوله، وعطف عجزه على صدره ومن خلال الآية القرآنية: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص/٤ .
انظر: الباقلانى: إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، د. ت، ص ١٨٩ :١٩٤ .

(١) انظر التفصيل : الزركشى : البرهان فى علوم القرآن، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، ٣/ ١٥٠ - ١٥١، ٤/٢٥ :٤١ .

القول لله تعالى، والهاء فى (قبله) للقرآن. والهاء فى (يؤمنون به) للقرآن، وقيل لمحمد عليه السلام"[1].

فالاختلاف فى مرجعية الضمير يظهر التماسك الدلالى؛ فمرجعية الضمير إلى الله أو الرسول أو القرآن أو جبريل، كلها أمور دلالية تعتمد على الاختلاف فى فهم الآية، وهذا الفهم يقوم على الدلالة. وهذا الاختلاف من عمل المتلقى.

وكذا تحدث السيوطى عن مرجعية الضمير؛ فقد جعل اختلاف مرجع الضمير من بين الأسباب التى أدت إلى الإجمال فى القرآن الكريم؛ وذلك "نحو قوله تعالى :

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر/١٠ ،

يحتمل عود ضمير الفاعل فى (يرفعه) إلى ما عاد عليه ضمير (إليه) وهو الله تعالى، ويحتمل عوده إلى العمل ، والمعنى أن العمل الصالح هو الذى يرفعه الكلم الطيب، ويحتمل عودة إلى الكلم، أى أن الكلم الطيب، وهو التوحيد، يرفع العمل الصالح لأنه لا يصح العمل إلا مع الإيمان"[2].

فهناك إذن ثلاثة احتمالات لعود الضمير؛ إما إلى لفظ الجلالة، أو إلى العمل، أو إلى الكلم. وتبعاً لاختلاف المرجعية تختلف الدلالة. والعجيب أن هذه الاحتمالات كلها جائزة، ودلالاتها محتملة غير مستحيلة. وهى تنعكس على المؤمن؛ فإنه يترك الأمر كله لله فى صعود الكلم الطيب وقبول العمل الصالح، وكذلك تحض المؤمن على الربط بين العمل الصالح والقول الطيب؛ لأن كلاً منهما يساعد فى رفع الآخر- على الاحتمالين الأخيرين- إلى الله تعالى. وهذه

---

(١) انظر : أ - القيسى : مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم صالح الضامن، منشورات سلسلة وزراة الإعلام العراقية، سلسلة كتب التراث، ١٩٧٥، ص ٣٥٦- ٣٥٧ .
ب- ابن الأنبارى : البيان فى غريب إعراب القرآن، ٩/٢ .

(٢) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن، ١٩/٢ .

المعانى كلها تحتاج إلى عدة جمل لتأديتها، لكنه - سبحانه - أجملها فى جملتين. وذلك بإحلال الضمائر محل هذه المعانى.

وإذا توجهنا تلقاء شروح بعض الدواوين التى أفرزتها عقليات اللغويين من أمثال ثعلب والعكبرى والشنتمرى وابن سيده وغيرهم، وجدنا الإشارات ذات الدلالة النصية، لا تختلف كثيراً عن إشارات المفسرين؛ إذ نلاحظ أن إشاراتهم إلى المرجعية لم تخرج عن الأقسام التالية:

أ- مرجعية داخلية (سابقة ولاحقة) فى البيت الواحد.

ب- مرجعية داخلية (سابقة ولاحقة) فى أكثر من بيت.

ج- مرجعية خارجية لشيءٍ لم يجر له ذكر فى النص.

ومن المعلوم أن تقسيمات المرجعية عند علماء النص لم تخرج هى الأخرى عن هذه الأقسام الثلاثة.

يقول زهير بن أبى سلمى : **(من الوافر)**

فَذُوهَاشٍ فَميثُ عُـريتنَـاتٍ ... عفَتْهَا الرِّيحُ بعدكَ والسَّماءُ

يَشِمْنَ بُرُوقَهُ وَيرُشُّ أَرْىَ الـ ... ـجَنُوبِ على حَوَاجِبِهَا العَمَاءُ

كَـأَنَّ أَوَابِـدَ الـثِّيرَانِ فيهـا ... هجائِنُ فى مَغَابنها الطِّـلاءُ

ذوهاش وعريتنات: أرضان ... والهاء فى البيت الثانى للمكان ... والضمير فى (فيها): فى الأرضين"(١).

فالضميران اللذان فى البيتين يعودان إلى الأرضين المذكورتين فى البيت الأول؛ وهذه مرجعية سابقة. وكذا مرجعية داخلية؛ فهى مرجعية داخلية لما سبق.

---

(١) ثعلب : شرح ديوان زهير بن أبى سلمى، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٤٤، ص ٥٦ : ٥٨ .

ويقول فى موضع ثان :

بِآزِرةِ الفَقَـارةِ لـم يَخُنْـهَا ... قِطَافٌ فى الرِّكابِ ولا خِلاءُ
كَأَنَّ الرَّحْلَ منها فوق صَعْلٍ ... مِن الظِّلْمَانِ جُؤجُؤه هَـوَاءُ

"الركاب: الإبل ... والخلاء من الناقة مثل الحران فى الخيل ... كأن الرحل منها: من هذه الناقة"(١).

فهذان البيتان بينهما بيت ثالث لم نذكره هنا، ومع ذلك تنبه ثعلب إلى أن مرجعية الضمير إلى الناقة المذكورة سابقاً فى بيت آخر، ومن ثم تعدى تحليله إلى وحدة أكبر من وحدة البيت الواحد.

ويقول زهير فى موضع آخر : (من الوافر)

تَحَمَّـلَ أهلُه منه فَبانُـوا ... وفى عَرَصَاتِـه منهم رُسُـومُ

ومنهم : من أهلها"(٢).

وهذه مرجعية داخلية على مستوى البيت؛ مرجعية لما سبق. ونلاحظ أن إحلال الضمائر محل الأسماء يمكن أن يُعد نوعاً من التكرار للاسم السابق، ولكن بصورة أخرى؛ هى الضمير.

ومن الأمثلة التى يرجع فيها الضمير إلى ما سبق فى بيت سابق قول زهير : (من الوافر)

متى تسدد به لهوات ثغر ... يشار إليه جانبه سقيـمُ
مَخُوفٍ بَأْسُه يَكْلَاكَ منه ... قَوِىٌّ لا أَلَفٌّ ولا سؤومُ

"بأسه: الهاء للثغر"(٣).

---

(١) السابق، ص ٦٣ .
(٢) السابق، ص ٢٠٨ .
(٣) السابق، ص ٢١٠ .

وتمتد ملاحظة ثعلب إلى أوسع من ملاحظة المرجعية، إلى البيت المجاور، إلى ملاحظة المرجعية، إلى مذكور فى بيت يفصل عن الضمير أربعة أبيات؛ فيقول فى البيت **الأول** : **(من الطويل)**

غَشِيتُ الديارَ بالبقيع فثَهمد   دَوَارِسَ قَدْ أَقْوَيْنَ من أُمِّ مَعْبَدِ

ثم يقول فى البيت الخامس :

فَلَمَّا رأيتُ أَنَّها لا تُجِيبُنِى   نَهَضتُ إلى وَجْنَاءَ كالفحل جَلْعَد

وأنها: "الهاء للديار"[1].

فهذه بعض من الأمثلة التى تبين ربط ثعلب بين الضمائر وما ترجع إليه، سواء على مستوى البيت الواحد أو أكثر.

أما العكبرى، فتغطى الأمثلة كثيراً من صفحات ديوان المتنبى بصورة تجعل هذا الشرح مؤهلاً لدراسته دراسة نصية معاصرة ومن أمثلة ذلك قول المتنبى : **(من الكامل)**

مَن للسيوف بأنْ تكونَ سَمِيَّةُ   فى أَصْلِهِ وَفِرِنْدِهِ وَوَفَائِهِ

طُبِعَ الحديدُ فكانَ مِن أجناسهِ   وعَلِىٌّ المَطْبُوعُ مِن آبائِهِ

تكون، الضمير – فى البيت الأول – للسيوف. . والضمير فى كان – فى البيت الثانى – للحديد"[2].

---

(١) السابق، ص ٢٢. .
هذا وأمثلة هذا كثيرة فى الديوان، نذكر منها أرقام الصفحات التالية :
٦٨، ٩٨، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٥٠، ٢٠٨، ٢٢٠ ، ٢٣٩، ٢٥٩، ٢٦٨، ٢٧٣، ٢٧٥ .

(٢) العكبرى : شرح ديوان المتنبى المسمى بالتبيان، ضبط وتصحيح وفهرسة : مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ٨/١ .

وقوله : **(من المتقارب)**

فَيَالَكَ لَيْلاً عَلَى أَعْكُـــشٍ   أَحَمَّ البِلادِ خَفِيِّ الصُّوَى

وَرَدْنَا الرُّهَيْمَةَ فى جَوْزِهِ   وَبَاقِيهِ أكثرُ مِمَّا مَضَـــى

الهاء فى (جوزه) ... هى (لأعكش) ... ويجوز أن يكون الضمير فى (باقيه) (لليل) أو (للجوز) [1].

فهذان المثالان عن مرجعية الضمير الداخلية، لما سبق؛ غير أن المثال الأول كانت المرجعية على مستوى البيت الواحد. على حين هى فى المثال الثانى على مستوى وحدة أكبر، وهى وحدة البيتين المتجاورين.

والعكبرى فى المثال التالى يتعدى هذه الوحدة بكثير؛ فيذكر المتنبى سيف الدولة فى أول القصيدة، ثم يأتى ليشير إليه فى البيت العشرين". **(من الطويل)**

كَفَى بِصَفَاءِ الوُدِّ رِقًّا لِمِثْلِهِ   وَبِالْقُرْبِ مِنْهُ مَفْخَراً لِلَبِيبِ

الضمير فى (لمثله) لسيف الدولة"[2].

وهذه الإشارة توحى بنظرة العكبرى للنص ككل، ومن ثم تمكن من الربط الدلالى عن طريق المرجعية بين هذين البيتين على الرغم من التباعد بينهما.

وإذا كان ما سبق يمثل المرجعية الداخلية Endophoric reference فإنه يشير إلى المرجعية الخارجية مستعيناً بالسياق فى المثال : **(من الوافر)**

وَأَنْــتَ المَــرءُ تُمْرِضُهُ الحَشَايا   لِهِمَّـــتِهِ وَتَشْـــفِيهِ الْحُـــرُوبُ

وَمَــا بِــكَ غَيْرُ حُبِّكَ أَنْ تَرَاهَا   وَعِــثْيَرُهَا لأَرْجُــلِهَا جَــنِيبُ

(١) السابق، ١/ ٤٠ .
(٢) السابق، ١/ ٥٣ .

الضمير فى (تراها) عائد إلى الخيل، ولم يجر لها ذكر، إلا أنه قد تقدم ما دل عليها من ذكر الحرب والطعان - [فى البيتين السابقين] - ثم ذكر بعدُ ما يدل عليها فى ثلاثة أبيات تالية"(١).

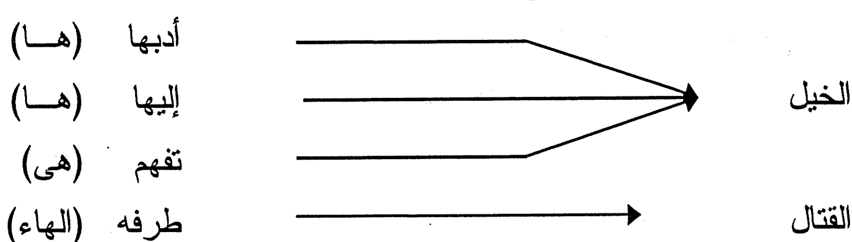
فقد استدل بالسياق على المرجوع إليه، وهو خارج النص لا شك، لأنه لم يذكر صراحة. وهذه الإشارة الى السياق لمعرفة المرجوع إليه تشبه ما أكده علم اللغة النصى.

وأحياناً أخرى يشير العكبرى إلى مرجعية أكثر من ضمير إلى مرجع واحد سابق، ومثاله **قول المتنبى : (من الطويل)**

"وَأَدَّبها طُولُ القِتالِ فَطَرْفُهُ   يُشِيرُ إليها منْ بَعيدِ فَتَفْهَمُ

الضمير فى (أدبها، وإليها، وتفهم) للخيل - [والخيل مذكورة فى بيت سابق على هذا البيت بسبعة أبيات] - والضمير فى (طرفه) للقتال. وقيل لفارسها، وإن لم يجر له ذكر، لأن الخيل لما ذكرت لابد لها من راكب"(٢).

ويمكن تمثيلها كما يلى :



ويمكن ملاحظة، عدة ملاحظات هنا :

١- عود أكثر من ضمير إلى مرجوع واحد.

٢- نوع المرجعية هنا سابقة.

(١) السابق، ١/ ٧٣ .
(٢) السابق، ٣/ ٣٥٨ .

٣- كذلك هى مرجعية داخلية، باستثناء الاحتمال الأخير للضمير فى (طرفه) فمرجعيته حينذاك خارجية لأنه لم يذكر الفارس صراحة.

٤- احتمال المرجعية الخارجية لم يعرف إلا بالسياق.

٥- ليس البيت هو الوحدة الكبرى، بل أكثر من بيت واحد يفصل بينهما سبعة أبيات.

٦- هذه الإشارات تقترب كثيراً من إسهامات علم اللغة النصى.

ويظهر فى شرح الديوان كذلك إشارات إلى المرجعية اللاحقة ويظهر هذا فى النموذج التالى :

"أُعيذُها نَظَرَاتٍ مِنْكَ صادِقةً   أن تَحْسبَ الشَّحْمَ فيمن شحمُه وَرَمُ

قال أبو الفتح: سألته عن الهاء: على أى شئ تعود؟ فقال على النظرات وقد أجاز مثله أبو الحسن الأخفش فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾ الحج/ ٤٦ .

فقال: الهاء راجعة إلى الأبصار، وغيره من النحويين، يقول: إنها إضمار على شريطة التفسير، كأنه فسر الهاء بالنظرات"(١).

وبالطبع الإشارة تقوم بدور الضمائر السابق، ومن ثم كان إدراك العكبرى لهذه الرابطة، **ومنها قول المتنبى : (من البسيط)**

"ما أَبْعَدَ العيبَ والنُّقْصَانَ عن شَرفى   أنا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيبُ والهَرَمِ

ذان : إشارة إلى العيب والنقصان (٢).

---

(١) السابق، ٣/ ٣٦٦ .
(٢) السابق، ٣/ ٣٧١ .
وهناك نماذج كثيرة للمرجعية، التى ذكرها العكبرى منها :
١/ ٣ ، ٨، ١٨، ٢٦، ٣٦، ٣٧، ٤٠ ، ٤١، ٥٧، ٩٠ ، ٩١، ٩٤، ١٠١.

العيب و النقصان	مرجعية سابقة، داخلية	ذان

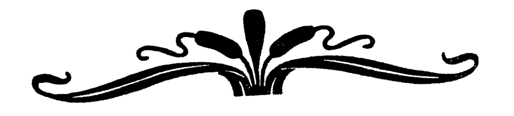
نخرج من هذه الإشارات الموجزة بحقيقة واضحة تشير إلى أن القدماء كانت لهم جهود كثيرة تستحق الدراسة، تقترب من التحليلات النصية المعاصرة كما سيتضح بعد قليل.

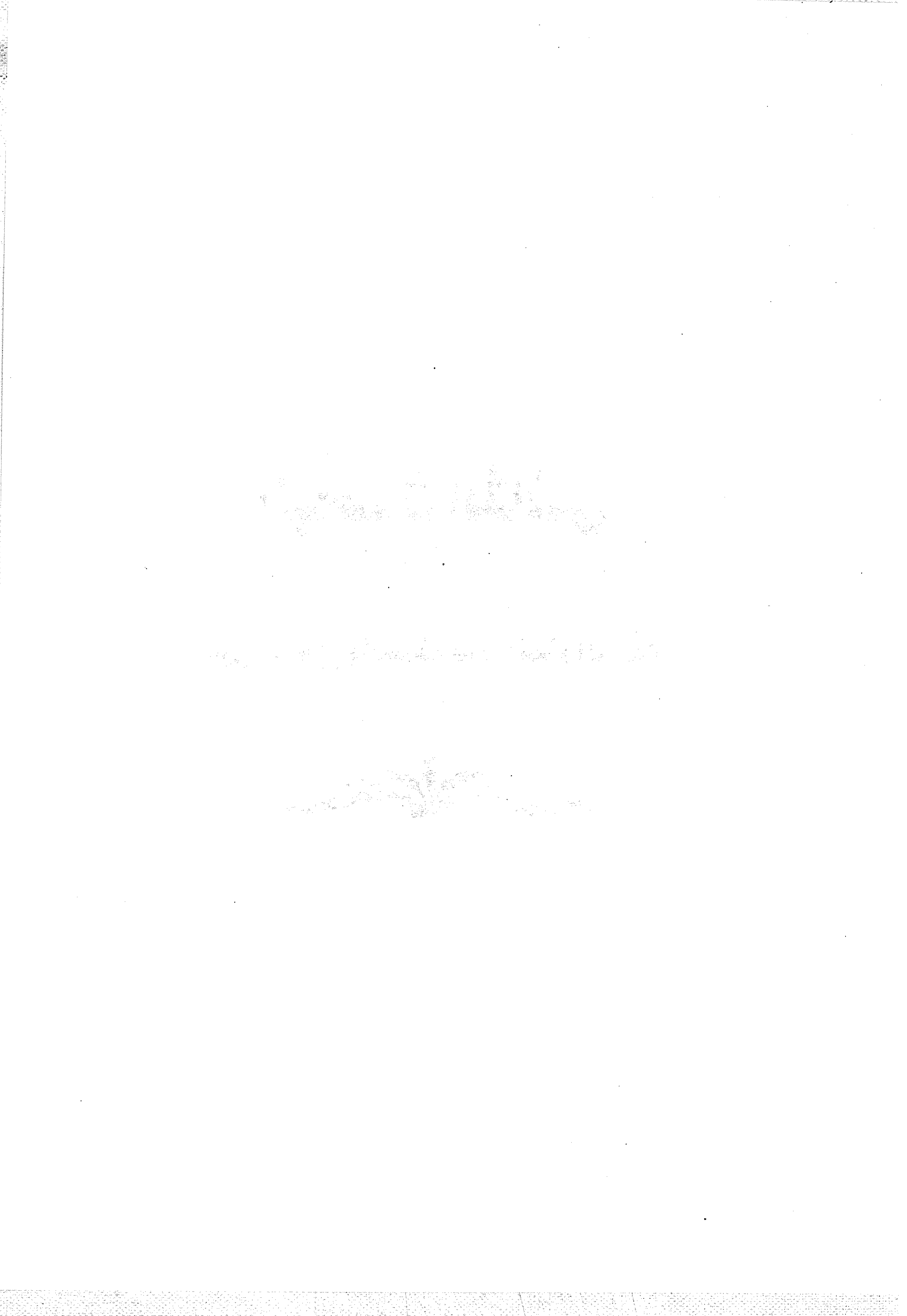
وليس أدل على ذلك من تناول المفسرين لنص كامل، وتناول الشراح لدواوين تمثل نصوصاً كاملة. لكنه من التعسف القول بأنه كانت هناك نظرية نصية متكاملة لديهم؛ فإنها لم تتجاوز إشارات تمثل جذوراً للتحليل النصى المعاصر؛ فالتحليل النصى المعاصر يعتمد وسائل التماسك كلها فى آن واحد، وكيف تتضافر معاً فى تحقيق التماسك بين أجزاء النص كلها داخلياً وخارجياً.

وهذا ما سوف تحاول الدراسة معرفته من خلال عرض بعض جهود علماء النص فى التحليل النصى. فماذا كان دورهم؟

المبحـــث الثانـــى

دور الضمير وأهميته عند علماء النصيَّة





لقد تعددت إسهامات علماء النص المعاصرين بخصوص أهمية الضمائر فى تحقيق التماسك الشكلى والدلالى. وتنوعت هذه الإسهامات بين تقسيم للمرجعية، كما ذكر فيما سبق، وأهمية الضمائر فى تحقيق التماسك، والمصاعب التى تواجه محلل النص من خلال الضمائر، خاصة إذا حدث الغموض،مما دفعهم إلى الاهتمام بدور السياق، وكذلك اهتمامهم بإبراز أساس النص، أو الجملة النواة التى يدور حولها النص، وكيف يرتبط النص كله بهذه الجملة، والتى تقع - فى الغالب - فى بداية النص، كما سيتضح فى التحليل بعد قليل، وكذلك إبرازهم لنصوص كثيرة، ثم تحليلها فى ضوء دور الضمائر، وغير هذا من القضايا المتصلة بتحليل النص.

وعرفنا، فيما سبق، أن مصطلح "Discourse Analysis" هو تلك الدراسة التى تنبئنا عن كيفية تشكيل الجمل المنطوقة والمكتوبة للمعنى الكامل. ولكى يحدث هذا لابد للخطاب من التعامل مع عدة أمور "أولها كيفية اختيار الأدوات والضمائر والأزمنة التى تؤثر فى تركيب الخطاب. وثانيها العلاقة بين الأقوال داخل الخطاب ... "(١).

إذن تشكيل المعنى أو إبرازه يعتمد على وضع الضمائر داخل النص؛ إذ إن هذه الضمائر من بين الوسائل التى تحقق التماسك الداخلى والخارجي؛ ومن ثم أكد علماء النص أن للضمير أهمية فى كونه "يحيل إلى عناصر سبق ذكرها فى النص ... وأن الضمير (هو) له ميزتان؛ الأولى: الغياب عن الدائرة الخطابية، والثانية : القدرة على إسناد أشياء معينة. وتجعل هاتان الميزتان من هذا الضمير موضوعاً على قدر كبير من الأهمية فى دراسة تماسك النصوص"(٢).

(1) J. Richards et. al., *Ibid*, p. 84.

(٢) جيزيل فالانسى : النقد النصى، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

وقد أكد علماء النص – كذلك – أن المرجعية علاقة دلالية تربط المثال من اللغة بالبيئة Environment[١]. على وجه الخصوص إذا كانت هذه المرجعية خارجية أما الداخلية ففى الغالب تعرف المرجعية من خلال تركيب النص.

فالضمير (it) على سبيل المثال، يشير إلى الجملة السابقة عليها .. وكذلك قد يرجع إلى ثلاث جمل سابقة أو أربع أو أكثر ... وكذلك الضميران "They, Their"[٢].

وبالفعل قد يشير الضمير إلى أكثر من جملة سابقة، وهذا كثير فى النص القرآنى كما سيتضح.

"فالضمائر مع غيرها من الوسائل تكون نسيجاً نصياً عالياً. . . لذا إذا ظهرت الضمائر مثل Them, They, These، فإنها لا تشير إلى أناس أو إلى أشياء فقط، بل ترجع أو تشير إلى فقرات مذكورة فيما سبق ... "[٣].

ويقابل هذه الضمائر فى العربية ضمائر تقوم بهذا الدور مثل (ذا) فى "هذا" و"ذلك"، وغيرهما من الضمائر التى سوف يعرض لدورها فى التحليل النصى.

وقد ذكر هاليدى ورقية حسن أمثلة كثيرة تبرز دور الضمائر فى تحقيق التماسك النصى عن طريق مرجعية الضمير[٤]. ونلاحظ المثال:

---

(1) Halliday & Hasan, Cohesion in English, p. 305 .

(2) *Ibid*, p. 14.

مثل المؤلفان بنص طويل فيه هذه الضمائر ليبرزا أهميتها فى تحقيق التماسك النصى.

(3) Halliday & Hasan, Context and Text, p.28.

(4) A) Halliday & Hasan, Cohesion in English, pp. 52- 53.

B) Halliday, An Intaoduction to Functional Grammar, pp, 290 - 295.

الأمثلة التى فى الصفحة التالية معربة بما يتناسب مع الجملة العربية .



أ – محمد انتقل إلى منزل جديد.

ب– منزل محمد جميل ← هو (محمد) بناه (المنزل) منذ عام

ج– هذا المنزل الجديد لمحمد.

فالضمير (هو) فى الجملة الرابعة يعود إلى "محمد "المذكور فى الجمل الثلاثة الأولى. والهاء المتصلة بالفعل "بناه" فى الجملة الرابعة تعود إلى المنزل المذكور فى هذه الجمل الثلاثة.

محمد ← هو

المنزل ← الهاء

فمرجعية هذين الضميرين حققت التماسك بين هذه الجمل الأربع، وكذلك أسهم كل من هذين الضميرين فى عدم تكرار الاسمين السابقين مرة أخرى، فالضمائر تحقق التماسك والإيجاز.

وقد ترجع الضمائر كذلك – كما ذكرها هاليدى ورقية حسن – إلى أفكار سابقة، كما ترجع إلى كلمات أو جمل أو فقرات(١).

ونلاحظ كذلك قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذي أَنْزَلَ منَ السَّمَاء مَاءً لَكُمْ منْهُ شَرَابٌ وَمنْهُ شَجَرٌ فيه تُسيمُونَ، يُنْبتُ لَكُمْ به الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخيلَ وَالأَعْنَابَ وَمنْ كُلِّ الثَّمَرَات إنَّ في ذَلكَ لآيَةً لقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل/ ١٠، ١١ .

(1) Halliday & Hasan, Cohesion in English, pp. 52- 53.

فنجد أن "ذلك" تشير إلى النعم المذكورة فى الجمل المذكورة كلها سابقاً، وفى هذا تماسك محقق بين هذه الجمل عن طريق وجود "ذلك" التى تفسر بالرجوع إلى ما سبقها.

وهذه الوظيفة لإحالة الضمير ليست شكلية فقط، بل دلالية كذلك، لأن الدلالة فى كثير من الأحيان تبقى غامضة، وكذلك تبقى الجمل متناثرة لا رابط يربطها، وبالطبع هذه الجمل تحمل دلالات متناثرة، إلى أن تظهر الضمائر لتمثل ذلك الجسر الذى يوصل بين هذه المتناثرات ويربط بينها.

ومع ذلك فهناك من الباحثين من جعل "الإحالة رابطاً دلالياً"(١). يربط بين عناصر النص المتباعدة. فنحن لا يمكننا تخيل النص دون روابط تربط بين عناصره. وهذا يوصلنا إلى سؤال مؤداه: أتوجد جمل متماسكة دون وجود الضمير الرابط؟

والإجابة عن هذا السؤال تعتمد على قوة العلاقة بين الطرفين؛ فمثلاً الجملة المفسرة، أو الجمل المفسرة لجملة سابقة، وهى كثيرة فى القرآن الكريم، نجدها "وردت لتفسير الأولى ... بالتفصيل بعد الإجمال ... وكذلك كل نص ... وإن تعددت جمله، لا يعدو أن يكون واقعة واحدة جرى تفصيلها فى جملة أو جمل كثيرة. فغياب الرابط كان لقوة الارتباط بين الجملتين؛ إذ حال الثانية منهما حال الصفة مع الموصوف - على حد تعبير عبد القاهر - والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون فيها العطف البتة لشبه العطف فيه بعطف الشىء على نفسه"(٢).

والجمل التى لا تحتاج إلى روابط ضميرية أيضاً البدل المطابق مثل قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ٦، ٧ الفاتحة. وكذلك التمييز وغيرها. وقد أشير سابقاً إلى الجمل التى تحتاج إلى رابط.

---

(١) د. سعيد بحيرى : من أشكال الربط، ص ١٤٦ .
(٢) انظر : أ – عبدالقاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز، ١٨٧ .

وبصفة عامة وجود الجملة مستقلة داخل النص دون رابط يربطها بأخواتها من الجمل الأخرى، أمر صعب تحققه؛ لأن الجملة ما هى إلا لبنة من لبنات بناء النص التى لا يمكن أن توجد منفصلة؛ لأنها جزء لا يتجزأ منه.

وتجدر الإشارة إلى إسهام آخر من إسهامات المحدثين فى التحليل النصى تتمثل فى تأكيدهم على دور السياق فى معرفة مرجعية الضمير، خاصة إذا كان الضمير غامضة مرجعيته. وكذلك إذا كانت مرجعيته خارجية؛ "فتعتمد المرجعية الخارجية على سياق الحال؛ لأنه فى الغالب، بدون السياق نقف عاجزين أمام تفسير ما يقال"(١).

وهذا ما دفع هاليدى ورقية حسن إلى مقابلة المرجعية الداخلية بمصطلح "Textual" والمرجعية الخارجية تقابل بمصطلح "Situational "

"وعلى سبيل المثال، الجملة

– هو قال ذلك

---

(1) Halliday and Hasan, Cohesion in English, pp. 33 – 55 .

هذا وقد أورد المؤلفان قصة واحدة بصورتين مختلفتين؛ الأولى بالأسماء الظاهرة الواضحة، ومن ثم فهى ليست فى حاجة إلى السياق لتوضيحها. بينما الثانية جاءت بالضمائر فقط، لذا كانت فى حاجة إلى السياق حتى يمكن تفسير مدلولات هذه الضمائر. وهاتان القصتان كالتالى:

"أ – ثلاثة أولاد يلعبون كرة القدم، ولدُ منهم قذف الكرة، فارتطمت الكرة بالنافذة، فكسرت النافذة، ونظر الأولاد إليها، فى حين خرج الرجل وصاح فيهم لأنهم كسروا النافذة، لهذا جروا بعيداً هاربين. عندئذ نظرت السيدة إلى نافذتها وطلبت من الأولاد الامتناع عن اللعب.

ب– هم يلعبون كرة القدم، وهو قذفها، وهى ارتطمت بالنافذة، وهى كسرتها، وهم نظروا إليها، فى حين خرج من البيت، وصاح فيهم، لأنهم كسروها، لذلك جروا بعيداً (هاربين) عندئذ نظرت إليها وطلبت منهم الامتناع عن اللعب.

ففى الأولى، القصة ليست فى حاجة إلى السياق، أما فى الثانية فإنها تتطلب ذلك السياق. . . بل فى حاجة كبيرة إليه".

- See, *Ibid*, p. 35.

لا تعرف من يكون (هو) وماذا قال. لهذا نؤكد شيئاً آخر؛ ألا وهو السياق؛ بمعنى : ماذا حدث قبل هذا القول"(١).

وقد أشير فيما سبق إلى أهمية السياق فى التحليل النصى، وأن معنى النص، فى الغالب، يتوقف على السياق المحيط، هذا فضلاً عن معرفة تماسكه.

وتجدر الإشارة هنا إلى أمر على قدر كبير من الأهمية فى التحليل النصى المعاصر، وهو أمر جملة النواة، أساس النص Base of the text، الذى يمثل المحور الذى يرتبط به ما فى النص كله من عناصر عن طريق شبكة من وسائل التماسك النصى فى الشكل والدلالة، ومن بينها المرجعية التى تتحقق عن طريق الضمائر. فمن المعلوم سلفاً أن النص يتكون- فى الغالب - من جمل أساسية، وجمل أخرى ثانوية، أما الأولى فإنه لا يمكن الاستغناء عنها فى النص؛ لأنها تمثل العمود الفقرى لأى نص، والذى تقوم عليه دلالة النص الكلية، أما الثانية فإنها كثيراً ما يمكن الاستغناء عن ذكرها فى النص، لأنها تستنبط لدى المتلقى وتعتمد على كفاءته Competence بلغة التحويليين Transformationals وتستنبط كذلك من خلال السياق. وقد مثلنا لها بقصة ملكة سبأ مع سيدنا سليمان عليه السلام والهدهد؛ فهى على الرغم من أنها وردت فى آيات قليلة، فقد استطعنا معرفة الجمل الثانوية غير المذكورة.

وبناء على ما سبق، وبناء على أنه"إذا كان المجال العلمى الذى نتحرك فيه هو علم النص، فإن بوسعنا أن نطلق تسمية "أساس النص Base du text "على مجموعة العبارات التى تعتمد عليها المتتالية النصية"(٢).

---

(1) 1- *Ibid.*
2- *Ibid*, p.11. .

(٢) د. صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢١٦- ٢٦٢ .
هذا وقد أطلق هاليدى على الجمل الأساسية : العناصر الإجبارية Obligatory Elements. والجمل غير الأساسية : العناصر الاختيارية، Optional Elements.
See : Ibid, PP. 61- 62.

فهناك إذن جمل أساسية محسوسة مذكورة، وجمل ضمنية غير محسوسة وهى مستنبطة من خلال الجمل الأساسية والسياق، ويمكن تمثيلها كالتالى :

جمل النص

جمل أساسية صريحة :	**جمل ثانوية غير صريحة (ضمنية)**
محسوسة – داخل النص مذكورة صراحة – مكتوبة أو مقروءة – لا يمكن الاستغناء عنها – تمثل صلب النص – إجبارية	غير محسوسة – غير مذكورة (لم يجر لها ذكر صريح غالباً) – غير مكتوبة أو مقروءة – محذوفة – يعتمد فى استنباطها على الجمل الأساسية والسياق – اختيارية.

هذا – بالطبع – إذا كانت هناك عدة جمل أساسية. لكن كيف يتعامل محلل النص مع النص الذى يمثل أساسه أو نواته كلمة واحدة؟

إذا لوحظ أن النص بدأ – كما فى سورة الأنعام – بقوله: ﴿**الْحَمْدُ للَّه الَّذي خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ**﴾ الآية / ١؛ فالبداية كانت بلفظ الجلالة. ومن خلال استقراء السورة لاحظنا أن بقيتها قد ارتبط بلفظ الجلالة بمجموعة من الوسائل التماسكية، منها الضمائر بما فيها الإشارة والموصول، وقد بلغ عددها أكثر من ألف وثلاثة مائة من الضمائر منها مائتان وثمانية وسبعون ضميراً تعود إلى الله تعالى. ومطالعة السورة وكثير من التأمل فيها أثبت أنها تعتمد فى أحداثها كلها، كما سيتضح، على مسند إليه واحد وهو الله تعالى. وبهذا ارتبطت السورة بالكلمة التى تمثل نواة النص أو أساسه.

وإذا طالعنا نصاً آخر نفترض أنه بدأ بـــ John، حينئذ "يجب أن يتبع بعدد كبير مماثل لجون ... وهذه الظاهرة تقدم أهمية كبيرة للتماسك الداخلى

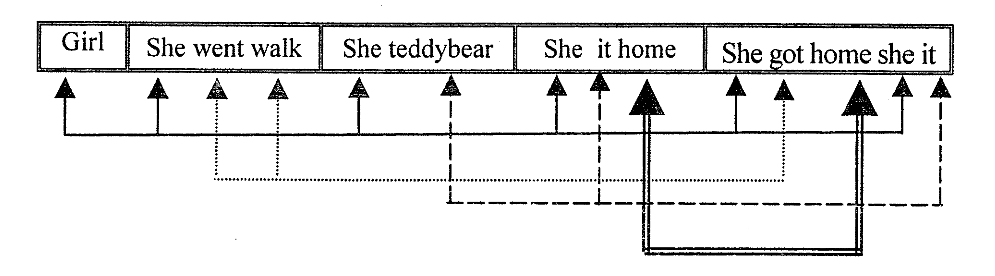
للنص ... فجون يمكن أن يحال إليه بشبكة من المرجعيات مثل His , Him, He والتى تفسر بالمرجعية إلى جون الأصلى"[1].

وهذه القضية النصية واضحة للغاية فى السور المكية؛ إذ تعالج قضية العقيدة والتوحيد والألوهية والعبودية، ومن ثم ترتبط هذه السور بذلك الموضوع الذى يمثل أساس القرآن المكى. كما أن السور المدنية تعالج قضية التشريع، ومن ثم ارتبطت هذه السورة بهذا الموضوع. فالموضوع المكى والموضوع المدنى يمثلان معاً أساسين للنص القرآنى. وسوف نحاول إثبات هذا بشأن السور المكية.

فنواة النص نمثلها بنواة الذرة التى يدور حولها كثير من الإلكترونات التى لا يمكنها الانفصال عن النواة.

ونضيف أن نواة النص قد تكون فكرة يدور حولها النص ويشير إليها، وهذا كثير فى نصوص القرآن الكريم.

وهذه النواة قد تكون كلمة واحدة، أو جملة واحدة، وهذه الجملة منها "يتطور النص وتسند جمل أخرى كثيرة إليها وتتعلق بها من خلال الروابط"[2]. وقد لاحظنا نماذج كثيرة فى كتب علم اللغة النصى تمثل نصوصاً معالجة فى ضوء التحليل النصى المعاصر. وإذا رأينا نصاً يعتمد على الكلمة الأولى، وهو مكون من أربع جمل، فإنه يمكن- بطريقة رمزية- تمثيل التماسك كالتالى :



(1) Halliday & Hasan, *Ibid* p. 52 .

(2) J. Richards & et al., *Ibid* pp. 45- 46.



وكذلك يمكن للمحلل أن يستخدم طريقة أخرى للدلالة على التماسك وهى النسب المئوية للمرجعيات"(١).

وإذا لاحظنا كذلك هذه القرءاة من كتاب فن الطهو :

"Wash and Core Six Cooking Apples. Put. Them into a Fireproof dish.

نجد أن Them فى الجملة الثانية تشير إلى أو ترجع إلى التفاحات الست فى الجملة الأولى. وهذه المرجعية وظيفتها تحقيق التماسك فى الجملتين ... ومعنى علاقة التماسك بين Them والتفاحات الست أنها تشير إلى الشئ نفسه"(٢).

وكذلك النموذج التالى :

" If you happen to meet the admiral , Don't tell him his Ship's Gone down .

(Him) و (His) فى النصف الثانى تحل شفرتهما بالرجوع إلى The admiral"(٣).

(1) Halliday & Hasan, Context and Text, p. 83 and p. 86.

(2) Halliday & Hasan, Cohesion in Enghish, pp. 2-3.

(3) *Ibid*, p.8

هذا وقد أورد Brown نصوصاً كثيرة مبرزة دور الضمائر فى تحقيق التماسك منها :

When the woman arrives at the chekout, Counter + ther's an old lady Following her + and + She pays for all goods except for + the bottle in her bag + I think + Outside the Super- market + the old lady Catches her up + and produces the bag + the bottle and + I think she must have changed with shoplifting + "See, G. Brawn & G.yule, *Ibid*, p. 221

وانظر كذلك : =

من هذا ندرك أهمية الضمائر فى الإحالة، وفى الربط بين مكونات الجملة الواحدة، ومكونات النص. وأهميتها من ثم فى التحليل النصى.

وجهود علماء النص قد عرض لكثير منها مفصلاً فى الفصلين السابقين وحاولنا فيهما، وفى هذا الفصل إيجاد المنفذ الميسر للتحليل النصى المعاصر، وكذلك حاولنا وضع جهود علماء العربية فى ضوء الجهود الحديثة على قدر المستطاع.

هذا وقد استخلصنا من هذا وذاك كيفية تحليل النص تحليلاً نصياً معاصراً يخرج باللغة من إطار الجملة بصفتها الوحدة الكبرى إلى إطار أرحب بكثير تمثل الجملة فيه لبنة من لبنات كثيرة فى المبنى الضخم المسمى بالنص بصفته أكبر وحدة لغوية يمكن تحليلها ولكن كيف يمكن تحليل السور المكية تحليلاً نصياً معاصراً؟

= Luigi Burzio (1991), "The Morphological basis of Anaphora" Journal of Linguistics, vol. 27, No. 2, September, 1991, pp. 81- 105.

المبحث الثالث

التحليل النصى للسور المكية



بعد هذا العرض لجهود بعض القدماء والمحدثين وإسهاماتهم فى تقديم تحليل نصى للنصوص، آن الوقت لأن نتعرض بالتحليل النصى المعاصر لبعض من السور المكية التى يمكن أن نعدها نماذج نحذو حذوها عند محاولة التحليل للسور الأخرى.

وتحليلنا سوف يعتمد فى هذا الفصل على الضمائر بأنواعها ومنها الضمائر الشخصية والإشارية والموصولة. وذلك مع الاستعانة بالجداول الإحصائية كلما تطلب الأمر ذلك. إذ من الواجب أن تحمل تلك الإحصائيات دلالات. تسهم فى التحليل النصى.

فى البداية ينبغى الانطلاق من الأساس الذى تدور حوله السور المكية؛ أى معرفة القضية التى تعالجها السور المكية؛ وذلك لندرك العلاقة بين وسائل التماسك النصى والموضوع الأساسى. وهذا الأساس يعد جملة النواة بالنسبة لهذه السور.

وعلى الرغم من نزول القرآن المكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدة ثلاثة عشر عاماً كاملة، فإنه "تحدث عن قضية واحدة؛ قضية واحدة لا تتغير ... لقد كان يعالج القضية الأولى، والقضية الكبرى، والقضية الأساسية، فى هذا الدين الجديد، "قضية العقيدة" فى قاعدتها الرئيسية، ... الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة"(١).

وإذا كان نزوله فى ثلاثة عشر عاماً، وتعدى أكثر من ثمانين سورة، وفى مناسبات متعددة. إذن من الطبيعى أن يحتاج إلى وسائل عديدة لتحقيق التماسك بينٍ هذا الكم الكبير من النصوص الكريمة؛ فمنها ما يتسم بالطول، ومنها أيضاً ما يتسم بالقصر الشديد، ومع ذلك فهناك رابط قائم على مستوى السورة الواحدة، وعلى مستوى السور كلها؛ إذ يجمع بينها فى النهاية قضية واحدة وهذا بالطبع يؤدى إلى الوحدة الموضوعية لهذه السور ومن ثم إلى التماسك النصى.

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن، ٢/ ١٠٠٤ .

وما دامت السور كلها تعالج قضية واحدة، وتدور حول محور واحد، وإن تعددت الوسائل، فإنه من الطبيعى ألا نتناولها كلها؛ إذ فى هذا تكرار يتنافى مع طبيعة البحث اللغوى. لذا فسوف نحلل نماذج منها فى كل فصل.

"سورة الفاتحـــــة"

لنبدأ بسورة "الفاتحة"، وذلك بصرف النظر عن الخلاف حول كونها مكية أو مدنية. وإن كنا نرجح كونها مكية؛ لأنه لا صلاة لمن لم يقرأ الفاتحة والصلاة معروف أنها فرضت فى رحلة الإسراء والمعراج، وكان ذلك ورسول الله مازال فى مكة لم يهاجر إلى المدينة(١).

التحليل النصى لهذه السورة يسير فى اتجاهين:

الأول: علاقات الآيات بعضها ببعض فى السورة نفسها.

الثانى: علاقات السورة مع السور الأخرى(٢).

وسوف نعالج فى هذا الفصل الاتجاه الأول، على حين نعالج فى الفصل الخاص بالمناسبة والتماسك بين السور.

بإيجاز فى الألفاظ، وإعجاز وإسهاب فى المعانى، تعالج سورة "الفاتحة" موضوع العقيدة الأول؛ وهو الربوبية، ومن ثم فهو سبحانه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وكذلك ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، ولذا فهو المستحق للعبادة له والاستعانة به والدعاء.

إذن العبودية لله والألوهية له كذلك، وملك يوم الدين له سبحانه، والاستعانة به، والعبادة له، والهداية والضلال بيده سبحانه، ومن ثم فهو المستحق للحمد.

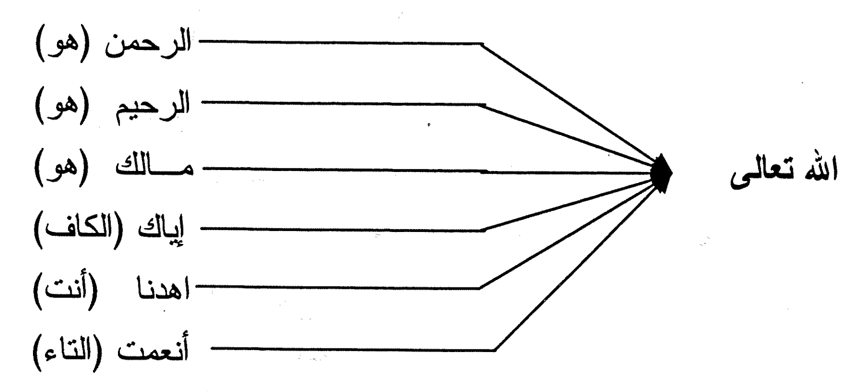
---

(١) انظر فى الخلاف حول كون الفاتحة مكية أو مدنية: أسباب النزول للواحدى، ص ١٢- ١٣.

(٢) هذا الاتجاه سوف نفصله فى فصل المناسبة؛ حيث توجد علاقة بين الفاتحة وبقية سور القرآن الكريم.

فالله تعالى هو المسند إليه هذه الأمور كلها، لذا وجدنا التوابع التى تحيل إليه سبحانه كثيرة؛ تبدأ من ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فى البسملة على أنها آية من الفاتحة ثم ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. مع تكرار لصفتى الرحمن الرحيم مرة أخرى فى آية مستقلة.

ثم جاء دور الضمائر الظاهرة والمستترة على النحو التالى: ﴿الرَّحْمَنِ - الرَّحِيمِ - مَالِكِ - إِيَّاكَ - اهْدِنَا - أَنْعَمْتَ﴾. وكلها تعود إلى لفظ الجلالة المذكور فى أول السورة، فهى إذن مرجعية سابقة Anaphoric reference .



فهذه السورة المباركة تناقش متطلبات الألوهية والعبودية، ومن ثم فدلالتها متماسكة، ويخدم هذا التماسك الدلالى، التماسك الشكلى فى وجود هذه الضمائر.

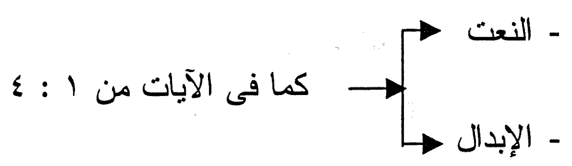
أما بالنسبة لوسيلة العطف، فإنها لا توجد إلا فى آيتين الآية الخامسة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والآية السابعة وذلك لتحقيق التماسك على مستوى الآية الواحدة، وللجمع بين المتعاطفين كما سيتضح فى فصل التوابع.

وإذا كانت علاقة الإسناد فى النحو العربى قد جعلت من الجملة الوحدة الكبرى التى تحتوى المسند والمسند إليه، فإننا هنا نوسع دائرة الإسناد لتشمل

السورة بصفتها الوحدة الكبرى؛ فالمسند إليه فى هذه السورة هوالله تعالى، والمسند هنا متعدد كما ذكرنا "الألوهية والربوبية، وملك يوم الدين؛ يوم البعث والجزاء، والعبودية والاستعانة، وحق الهداية والضلال. . . إلخ.

وعلاقة الإسناد هذه من بين الأنماط التى تحكم قضية التماسك الجملى والنصى كذلك. من منظور التماسك بين المسند والمسند إليه. إذن تحقق التماسك النصى للسورة من خلال عدة وسائل :

- المرجعية، كما فى الضمائر ومرجعيتها(١).



- العطف، كما فى الآيتين ٥،٧ .
- التكرار. وذلك بالصفات، وبالضمائر كذلك.
- علاقة الإسناد. كما هو واضح على مستوى السورة كلها.

وهذه الوسائل تجمع بين الشكلية والدلالية. تدور على مستويات متعددة: مستوى الآية مرجعية الضمائر فيها كانت واضحة ليس فيها غموض، ومن ثم لم تكن هناك حاجة إلى السياق لمعرفة إلى أى شيءٍ ترجع هذه الضمائر. وعلى مستوى أكثر من آية كما وجد مع الضمائر.

وإذا كان هذا التحليل النصى لسورة قصيرة من ناحية عدد الآيات. فكيف يمكن إذن تحليل سورة تتكون من عشرات الآيات الطوال ؟ كيف يمكننا تحليل سورة "الأنعام" تحليلاً نصياً معاصراً ؟

---

(١) فأساس النص، أو جملة النواة فى السورة، ليست جملة، بل لفظة واحدة، لفظ الجلالة "الله"، وتقوم شبكة من وسائل التماسك النصى، بالربط بين هذه النواة، وبين الآيات الأخرى. وهذا واضح من الشكل السابق، فيما يتعلق بوظيفة الضمائر.

"سورة الأنعـــــــام"

نقول بداية إن النظرة الكلية التى تشمل أبعاد السورة كلها أمر يحتاج كثيراً من التأنى فى القراءة والتأمل والفهم. وذلك من أهم عناصر التحليل النصى؛ معرفة الفكرة الرئيسية أو الموضوع الرئيسى للنص. وهذا أمر ينقص الكثير من التفاسير؛ إذ يكتفى أغلب المفسرين بالتفسير الحرفى أو المعنوى، لكن على مستوى الآية الواحدة فى الغالب(١).

"هذه السورة - الأنعام - نموذج كامل للقرآن المكى ... وهى تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه، فى موضوعها الأساسى بصورة فريدة ..."(٢).

وهذا يدفعنا إلى الوقوف عند هذه السورة بالتحليل؛ إذ فيها خصائص القرآن المكى ومنهجه، ومن ثم يكون من غير المنطقى تناول السور كلها بالتحليل.

الموضوع الأساسى الذى تعالجه السورة - مثل غيرها من السور المكية - هو موضوع العقيدة الأساسى؛ "موضوع الألوهية والعبودية". وتعالج هذا الموضوع من خلال تعريف العباد برب العباد: "من هو؟ ما مصدر هذا الوجود؟ ماذا وراءه من أسرار؟ من هم العباد؟ من ذا الذى جاء بهم إلى هذا الوجود؟ من أنشأهم؟ من يطعمهم؟ من يكفلهم؟ من يدبر أمرهم؟ من يقلب أفئدتهم وأبصارهم؟ من يقلب ليلهم ونهارهم؟ من يبدئهم ثم يعيدهم؟ ... هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك من بثها من هذا الموات؟ هذا الماء الهاطل. هذا البرعم النابع. هذا الحب المتراكب. هذا النجم الثاقب، هذا الصبح البازغ. هذا الليل السادل. هذا الفلك الدوار ... هذا كله من وراءه؟ ...

---

(١) من التفاسير المعاصرة التى نظر المفسر فيها إلى السور نظرة كلية قبل أن يشرع فى التفسير، تفسير "فى ظلال القرآن" للأستاذ سيد قطب. والنظرة الكلية نعنى بها النظر إلى النص من ناحية فكرته الأساسية.

(٢) السابق، ٢/ ١٠١٥ .



هذه القرون، وهذه الأمم، التى تذهب وتجىء، وتهلك وتستخلف .. من ذا يستخلفها؟ ومن ذا يهلكها؟"[١].

فهذه الأسئلة كلها عبارة عن أمور مسندة إلى الله تعالى لا شريك له فيها، وكلها مرتبطة به. ومن ثم كان من الطبيعى أن يكون اتجاه السورة كله "يمضى إلى هذا الهدف المحدد ... ولذا فالموضوع الرئيسى الذى تعالجه متصل ..."[٢]. على الرغم من تعدد مقاطعها.

ومن جهة أخرى حين ننظر إلى مناسبة السورة - حيث تمثل السياق الخارجى الذى يسهم فى بيان المرجعية الخارجية - نجد أنها ترتبط بالموضوع الرئيسى للسورة؛ فمن المعلوم أن "حق التحليل والتحريم فى أمور الذبائح والمطاعم، وحق تقرير بعض الشعائر فى النذور من الذبائح والثمار والأولاد..."[٣]. كل هذه أمور ليس لأحد حق فى تشريعها إلا الله تعالى. لكن الجاهلية كانت تبيح هذا التشريع لأنفسها لا إلى الله تعالى. وكذلك النظرة الثاقبة تقول إنه بما أن الذى خلق الخلق هو الله، فهو إذن الذى يعلم ما يصلح لهم وما لا يصلح؛ ومن ثم فهو الذى يحلل ويحرم. وهذا أمر عقائدى، ولهذا ارتبطت مناسبة السورة بهدفها.

والملاحظة للسورة تفضى إلى القول بأن السورة من بدايتها إلى نهايتها، تعالج موضوع العقيدة من خلال التعريف بالله تعالى، وذلك عن طريق وسائل عدة؛ منها كتاب الله المفتوح "الكون"، والعلم بما تخفيه النفس البشرية، والعلم بالغيب المتمثل فى الأمم السابقة ومستقبل الأمم الحالية فى الدينا والآخرة، والإخبار بمشاهد القيامة، ومصير الخير والشر، وعن طريق إرسال الرسل ... وغيرها من القضايا التى لا يمتلك التصرف فيها إلا الله العلى القدير.

---

(١) السابق، ٢/ ١٠١٧ .
(٢) السابق، ٢/ ١٠٢٢ .
(٣) السابق، ٢/ ١٠١٨ وارجع إلى الآيات ١١٨ : ١٢١، ١٣٦ : ١٤٠ فيما يتعلق بهذين الموضوعين.

إذا كان هذا باختصار موضوع السورة. فما علاقته بالتماسك النصى؟ ودور الضمائر فى تحليلها؟

من الطبيعى، بعد عرض هذه الأمور المتعلقة بمناسبة السورة وموضوعها، أن نجد للضمائر دوراً فى تحقيق التماسك بين الأجزاء التى تناقش هذه القضايا كلها لتربطها بخالقها ومسيرها.

السورة عبارة عن نص منزله الله تعالى، ومتلقيه الأول النبى صلى الله عليه وسلم، لينذر به الكافرين ويبشر المؤمنين. ليصحح فى النهاية قضية العقيدة، وإرجاع الأمر كله لله. ومن ثم تتوزع أغلب الضمائر على هذه المستويات الأربعة :

الأول : الله تعالى .

الثانى : الرسول صلى الله عليه وسلم.

الثالث : المشركين .

الرابع : المؤمنين.

بالرجوع إلى الإحصائيات الموجودة بالجداول نلاحظ أن الضمائر التى تحيل إلى الله تبارك وتعالى بما فيها الإشارة والموصول يمكن تمثيلها فى الجدول التالى :

الضمائر الشخصية	٢٦٥ ضميراً
الإشارات	إشارتان فى ٩٥، ١٠٢
الموصولات	أحد عشر

وهذه الضمائر كلها، والذى يصل مجموعها إلى (٢٧٨) ضميراً، تعود كلها إلى الله تبارك وتعالى. مع العلم بأن عدد آيات السورة (١٦٥) آية. فهل لهذه الإحصائية دلالة فى التحليل النصى؟

قلنا إن كل المسانيد فى السورة يمكن توزيعها كما سبق. أما ما يخص قضية الألوهية والعبودية وما يتعلق بهما، فإن الضمائر فيها تعود إلى الأساس الأول فى النص، وهو الله تعالى، ومن خلال ذلك تتطور فكرة النص من بدايته حتى نهايته. والجملة الأولى فى هذه السورة تحمل نواة النص أو مفتاح النص الذى تتصل به الأطراف كلها وتتماسك معه.

ونحاول فيما يلى بيان حركة الضمائر التى تعود إلى الله تعالى. فنلاحظ أن الفكرة الأولى فى هذه السورة تتمثل فى مواجهة الكافرين والمكذبين وبيان مصائر المذنبين فى الأمم السابقة؛ فنجد أن الآية الأولى تبدأ بـــ :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾/١؛

فعلى الرغم من بيان تلك النعم من الله، نجد أن الذين كفروا لم يزدهم هذا إلا انصرافاً عنه سبحانه.

وملاحظة توزيع الضمائر التى تحيل إلى الله تعالى نجدها موزعة فى السورة كلها. ولنلاحظ الكلمات التى تحمل ضمائر تعود إلى الله فى الآيات الأولى:

الذى – خلق – وجعل(١) هو- الذى- خلقكم- قضى- عند،(٢) وهو- يعلم- يعلم(٣) أهلكنا- مكناهم- نمكن- أرسلنا- جعلنا- فأهلكناهم- أنشأنا(٦) نزلنا (٧) أنزلنا (٨) جعلناه- لجعلناه- وللبسنا (٩) كتب- ليجمعنكم (١٢) وله- وهو (١٣) فاطر- وهو- يطعم- ولا يطعم (١٤) رحمه (١٦) كاشف- هو يمسسك- فهو (١٧) وهو- عباده- وهو (١٨) شهيد- هو (١٩) آتيناهم (٢٠). فنجد أن الضمائر هى : الذى- هو- هو – هو- الذى- هو – هو- الهاء- هو- هو- هو- هو نا- نا- نحن- نا – نا- نا- نا-نا-نا- نا- نا-هو- هو- الهاء- هو- هو- هو –هو – هو – هو – هو – هو – هو – هو – هو – الهاء – هو – هو – هو – نا.

فكلها تعود إلى الله تعالى السابق ذكره فى النص؛ فى الآية الأولى ومن ثم فهى مرجعية سابقة Anaphoric reference. وتعود كلها إلى نواة النص.

وكونها تعود إلى مرجوع واحد، إذن فهى مرتبطة به شكلاً ودلالة، وكذا ترتبط الآيات بالآية الأولى محققة التماسك النصى. Cohesion بنوعيه الشكلى فى اتفاق الضمائر، والدلالى فى الإسناد والتماسك المعنوى بين الآيات.

فهذه الآيات تعرض للمحاجة الشديدة وعناد الكافرين على الرغم من آيات الله الكثيرة، والآيات من الله، والعناد من المشركين، ومن ثم كانت الآيات التى تحمل ضمائر تعود للمشركين أكثر الضمائر وروداً فى السورة، وهذا تهويل من شأن هذا التكذيب والعناد، وحق التحليل والتحريم.

ولنتأمل مرة أخرى الضمير (هو) على مستوى السورة، ومرجعيته إلى الله تعالى، وما دلالة الآيات التى تحمل هذا الضمير التماسكية؟

من هذه الآيات قوله تعالى :

- ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾/٣

- ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ / ١٣

- ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ / ١٤

- ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ /١٧ – ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ / ١٧

- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ / ١٨

- ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ / ١٨

- ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾/١٩

- ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ /٥٧

- ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾/ ٥٩

- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾/ ٦٠
- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾/ ٦١
- ﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ / ٦٢
- ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾/ ٦٥
- ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ / ٧٢
- ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾/ ٧٣
- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾/ ٩٨
- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾/ ٩٩
- ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ / ١٠١
- ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾/ ١٠٢
- ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ / ١٠٢ (١).

وإذا كان هذا شأن توزيع الضمير المنفصل، فإن موقف المتصل كالتالى:

- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾/ ١
- ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾/ ٢
- ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾/ ٣
- ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾/ ١٧
- ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾/ ٣٠

---

(١) لمزيد من التفصيل ومعرفة بقية مواضع الضمير المنفصل (هو) والذى يعود إلى لفظ الجلالة :
١٠٣، ١٠٦، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٧، ١٣٦، ١٤١، ١٦٤، ١٦٥ .

- ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾/ ٣٠

- ﴿يُنَزِّلَ آيَةً﴾/٣٧

- ﴿مَنْ يَشَأ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾/٣٩

- ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾/٥٧

- ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾/٥٩

- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٦٠

- ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾/٦١[(١)].

أما الضمير المفرد المتصل، فأمثلته :

- ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾/٢

- ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ /١٢

- ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ /١٣

- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾/١٨

- ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾/٢١

- ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾/٣٦

- ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ /٤١

- ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾/٥٢

---

(١) لمزيد من الضمائر المستترة ارجع إلى الآيات التالية : ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٧٩، ٨٠ ، ٨١، ٨٨، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٨، ١١٤، ١١٧، ١١٩، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٣، ١٣٨، ١٤١، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٩، ١٦٤، ١٦٥.

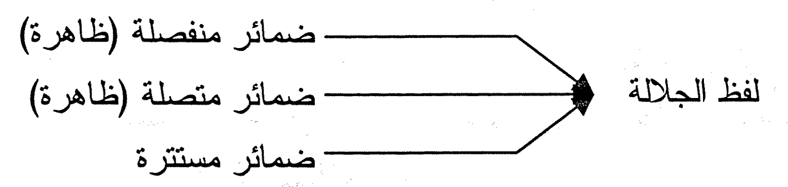
- ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾/٥٤

- ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾/٥٩

- ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾/٦٠. [١]

إذن تمثل تلك المرجعية كالتالى :

مرجعية داخلية سابقة



وتلك الضمائر منها الغائب والمتكلم. ومنها المفرد والجمع، وكلها تعود إليه سبحانه وتعالى[٢]. وتوزيعها على آيات السورة، أغلبها، حتى الآية الأخيرة يحقق التماسك النصى بين هذه الآيات؛ فلفظ الجلالة يمثل العنصر الأول فى بناء هذا النص.

والتماسك الدلالى فى الضمائر المنفصلة أو الضمير المنفصل (هو) يبرز فى كون الآيات التى بها هذا الضمير تتحدث عن الأمور التى تشرح هيمنة الله على الكون بأسره، وعلى الدنيا والآخرة، وتثبت أن كل شىء بيده تبارك وتعالى، وأنه قد أحاط بكل شىء علماً، وأنه خلق كل شىءٍ، وعنده مفاتح الغيب ... إلخ هذه الأمور التى أكدتها الآيات. ولكنها تؤدى فى النهاية إلى تأكيد القضية الأساسية التى تدور حولها السورة كلها، وهى قضية العقيدة : الألوهية والعبودية.

---

(١) وانظر كذلك : ٦١، ٦٢، ٦٣، ٧٢، ٧٣، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٧، ١٥١، ١٦٣، ١٦٥ .

(٢) لمزيد من البيان لمواضع بقية أنواع الضمائر التى تحيل إلى لفظ الجلالة. راجع جداول الضمائر.

وليس هذا فى الضمائر المنفصلة فحسب، بل فى الضمائر التى ذكرنا أمثلة لها ظاهرة ومستترة؛ كلها تؤكد، فى تماسك عجيب، هذه القضية التى تمثل نواة السورة، أو الفكرة الأساسية فى السورة، وهذا هو التماسك الدلالى الذى تحدثه الضمائر بالإحالة إلى مسند إليه واحد؛ وهو الله تعالى؛ فالإسناد هو العلاقة التماسكية الكبرى. التى تسهم فى تحليل هذا النص.

وسياق السورة خاصة، والسور المكية عامة، يؤكد أو يقوى هذه المرجعية؛ فتقرير الألوهية والعبودية وأمور العقيدة وما يتصل بها من أمور سردتها السورة، هذا كله يجعل من الطبيعى تضافر هذه الضمائر كلها فى الرجوع إلى الله تعالى. فلا يمكن، بحال من الأحوال، تصور هذه الآيات كلها بجانب بعضها دون رابط دلالى وشكلى يجمعها ويضمها فى عقد واحد.

ونوكد أن كل الضمائر التى ترجع إلى الله تعالى فى هذه السورة مرجعيتها داخلية، لأنه ذكر صراحة فى النص، فى بدايته.

أما المرجعية الخارجية فسوف نلاحظها فى أمور أخرى ستتضح بعد قليل.

ومن المعلوم أن قائل هذا النص الكريم هو الله، وأن المخاطب المتلقى هو النبى صلى الله عليه وسلم لينذر الكافرين ويبشر المؤمنين. ومن الطبيعى، وهذا الخطاب من الله إلى نبيه، أن تكون هناك ضمائر ترجع إليه عليه الصلاة والسلام.

وبالرجوع إلى الجداول أمكن معرفة عدد هذه الضمائر كالتالى :

الضمائر الشخصية	١٢٨ ضميراً
الإشارة	لا يوجد
الموصول	لا يوجد

إذن تتوفر فى هذه السورة وحدة المتكلم، وحدة المخاطب فى الغالب، وحدة المكان، وحدة الزمان، بل وحدة القضية التى تعالجها السورة. وهذا كله ييسر السبيل أمام تحقيق تماسكه. هذا خلافاً لدور وسائل التماسك الأخرى كالتى تعرض هنا.

وبينما كانت مرجعية الضمائر التى تحيل إلى الله تعالى كلها داخلية، فإن الضمائر التى تحيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها خارجية؛ ذلك لأنه لم يذكر صراحة فى النص، لكنَّ هناك كثيراً من الدلائل التى توضح أنها تعود إليه، وهى تمثل السياق الموضح للمرجعية؛ فالمرجعية الخارجية Exophoric ref., تكون للذى لم يجرله ذكر فى النص.

ونماذج الآيات التى توجد بها مرجعية خارجية للنبى صلى الله عليه وسلم:

- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾/٧
- ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾/٨
- ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ /١٠.
- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ / ١١
- ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾/١٢– ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾/١٢
- ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ /١٤
- ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ /١٤
- ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾/١٤
- ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾/٥
- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾/١٩

- ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾/١٩
- ﴿قُلْ لاَ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ /١٩
- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ /٢٥
- ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾/٢٥
- ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ /٢٦
- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ /٢٧
- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ / ٣٠[(١)].

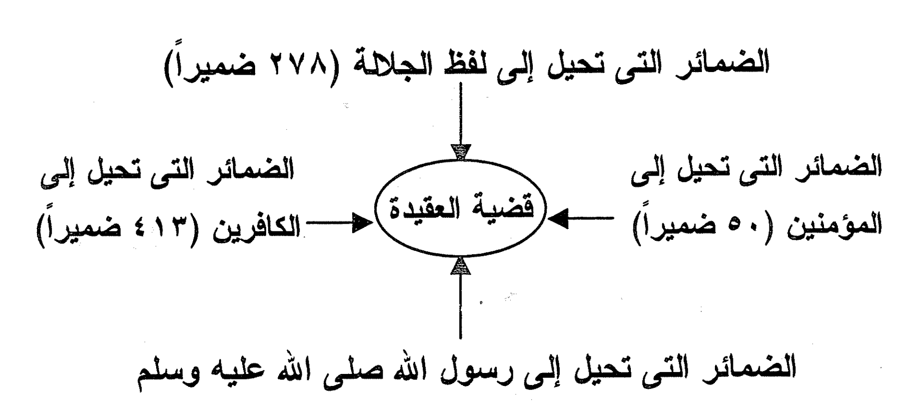
فالخطاب الموجه إليه صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن كونه تكليفاً بالتبليغ أو النذير أو البشير، أو رداً على حجج المشركين، أو تسلية له بإخباره أن ما يحدث له قد حدث للرسل من قبل. وهذه كلها أمور مرتبطة بقضية السورة الأساسية؛ قضية العقيدة التى يكذب بها المشركون ويؤمن بها المؤمنون.

إذن حتى مع تغير اتجاه الضمائر إلى الرسول عليه السلام، فإنها تصب فى الاتجاه نفسه الذى تصب فيه الضمائر التى ترجع إلى الله تعالى.

---

(١) ومن الكلمات التى تتصل بضمائر ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ليحزنك- يكذبونك- قبلك - جاءك- عليك- استطعت- تبتغى- فتأتيهم- تكونن - عليه- ربه- قل - قبلك- قل- انظر- قل- قل- أقول- عندى- أعلم- أقول- إنى- أتبع- إلى- قل- أنذر- لا تطرد- عليك- حسابك- فتطردهم- فتكون- فقل- لتستبين- قل- إنى- نهيت- أعبد- قل- أتبع- ضللتُ - أنا- إنى- ربى- عندى- قل- بينى- قل- قل- قل-انظر- قومك- قل- لستَ- رأيت- فأعرض- ينسينك- فلا تقعد- ذر- ذكر- قل- قل- ربك- اقتده- قل- أسألكم- قل- قل- ذرهم- لتنذر- ترى- اتبع- إليك- ربك- أعرض جعلناك- أنت- قل- فذرهم أبتغى- تكونن- ربك- تطع- يضلوك- ربك- ربك- قل- إنى- فذرهم- قل-قل- قل- إلى- ربك- فقل- قل- قل- إننى هدانى- ربى- قل- صلاتى- نسكى- محياى- مماتى- أمرت- أنا- قل- أبغى.

وهذا سوف يلاحظ كذلك فى الضمائر التى تعود إلى المشركين والمؤمنين؛ إذ كلها تدور حول المشرع الأول ثم الرسول الذى يتلقى التشريع ليبلغ به الناس كافة؛ فالله يريد لعباده الهداية إلى العبودية له تعالى، ورسول الله يبلغ هذه الإرادة عن الله، والمؤمنون يصدقون بما جاء به، والمشركون يكذبونه؛ فالكل يدور حول هذه القضية، ويمكن تمثيلها كالتالى :



الضمائر التى تحيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٢٨ ضميراً)

فالكل يتجه نحو هذه القضية إما بالتكليف أو التبليغ أو التصديق أو التكذيب.

أما الضمائر التى ترجع إلى المشركين فى هذه السورة، فإنها تتصل بالأفعال التى توضح أنهم الذين أباحوا لأنفسهم حق التحليل والتحريم، والذين كذبوا الرسل من قبل، وأشركوا بالله، واستهزءوا برسول الله والرسل من قبله، والذين لم يؤمنوا بآيات الله، والذين كانوا يمثلون الأغلبية، وكذا مع أغلب الرسل ... إلخ من أعمالهم السيئة التى عملوها مع رسول الله ومن قبله، والتى أشارت إليها السورة فى كثير من الآيات كما هو واضح من الإحصاء.

وربما يجيب هذا عن التساؤل القائل: لم كانت الضمائر التى تحيل إلى المشركين أكثر عدداً من غيرها؟.

وهذا أمر طبيعى؛ فالله واحد لا شريك له، والرسل كلهم دعوة واحدة، والمؤمنون كلهم طائفة واحدة، لكن المشركين ملل وطوائف كثيرة، وعددهم أكثر، وما فعلوه من تكذيب وسخرية واستهزاء وإعراض وكفر،هذا كله يحتاج إلى رد كثير على افتراءاتهم المتعددة، ومن ثم كانت الضمائر أكثر، وهى كالتالى: [1].

الضمائر الشخصية	٣٨٤ ضميراً
الإشارة	ضميران
الموصول	٢٧ ضميراً
المجموع	٤١٣ ضميراً

فالمواجهة بل المواجهات كثيرة وصعبة، وسبل الإقناع ينبغى أن تكون لذلك كثيرة من تعريف بحقيقة الألوهية التى تشمل الهيمنة على الوجود كله، ومن تعريف بمواقف المكذبين على مر العصور، ومصارعهم، وتعريفهم بموقفهم يوم القيامة؛ يوم الحشر، وأنهم الخاسرون.

هذا إضافة إلى السبب الرئيسى لنزول السورة الذى سبق ذكره، فالمواجهة بالطبع معهم لا غيرهم.

ولنعرض بعضاً من الآيات التى تحمل ضمائر تعود إلى المشركين :

- ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ /١ [2].
- ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ /٢
- ﴿إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ / ٤

(١) وهذا ارتباط واضح بين العدد الإحصائى والدلالة المستنبطة من هذا العدد على مستوى النص.

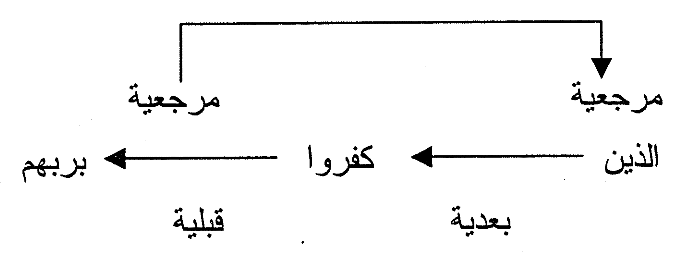
(٢) يلاحظ أن وظيفة "الذى" هى الربط بين ما تقدمها وما يأتى بعدها، مثل : فاز الذى أطاع الله.

- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾/٥
- ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ / ٦
- ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ /٧
- ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ /٩
- ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ /١٠.
- ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ /١٢
- ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ /١٩
- ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ /٢٠.
- ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾/٢٢
- ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾/٢٤
- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾/٢٥
- ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾/٢٦
- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾/ ٣٠ (١).

(١) أرقام الآيات الأخرى التى بها ضمائر ترجع إلى المشركين: ٣١، ٣٣،٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٣، ٥٦، ٥٨، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٨، ٨٠ ، ٨١، ٩١، ٩٣، ٩٤، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩. =

فالمواجهات لم تكن مع المشركين بالرسالة المحمدية فحسب، بل مع مشركى العصور السالفة كذلك، وضمنياً مع مشركى العصور القادمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه المرجعيات كلها بصفة عامة سابقة، إذ ذكر الذين كفروا فى الآية مفتاح السورة لكن بالنسبة للآيات التى بها موصولات نجد أن المرجعية سابقة ولاحقة؛ فمثلاً يقول تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾/١



ومن الملاحظ أن الضمائر تكاد تتوزع على الآيات كلها بصورة واضحة؛ بل وجدت بعض الآيات، مثل الآية (٢٥)، وصل عدد الضمائر التى تحيل إلى المشركين فيها إلى اثنى عشر ضميراً، والآية (٢٧) سبعة ضمائر. وهذه الضمائر تحقق التماسك الداخلى للآية التى هى نواة النص، وذلك بعودتها إلى محال إليه واحد.

والآية نفسها تحمل مرجعية بعدية كذلك مثل الضمير فى (به) فى الآية العاشرة، فإنه "يتعلق بـــ (يستهزءون)[1]. التالية. وفى الآية نفسها توجد مرجعية قبلية أو سابقة؛ فالضمير فى (منهم) يعود سابقاً إلى (رسل)، وتبادل هذه المرجعيات فى آية واحدة يماثل ما يحدث على مستوى السورة.

=وأغلب هذه الضمائر تتصل بأفعال تعبر عن أشكال من الكفر مثل : كفروا- يعدلون- تمترون - كذبوا - يستهزءون - ذنوبهم - يلبسون - سخروا - خسروا - تشركون - أشركوا - تزعمون - يفترون - يجادلونك - يهلكون ... إلخ.

(١) العكبرى : إملاء ما من به الرحمن، ٢٣٦/١ .

وكذلك المرجعية الخارجية يمكن أن تتضح فى قوله تعالى :

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾/ ٣١

"فالضمير فى .(فيها) يعود على الساعة، والتقدير فى عمل الساعة، وقيل يعود على الأعمال، ولم يجر لها ذكر صريح، ولكن فى الكلام دليل عليها"(١).

فالأعمال غير موجود ذكرها صراحة داخل النص، غير أن سياق الكلام بيَّنَهَا، لهذا فمرجعيتها خارجية.

أما العنصر الرابع من العناصر التى يدور حولها النص؛ فهو عنصر المؤمنين، وذكر أن مواضعه لم تتجاوز الخمسين موضعاً على الأكثر، وذكر السبب، فيما نعتقد سابقاً، أن المؤمنين طائفة واحدة مؤمنة، ولم تعترض حكم الله، ولم تجادل فيه، ولم تصنع لنفسها تشريعاً خاصاً بهم، وكذلك فالنص أصلاً فى هذه السورة كان يهدف إلى توبيخ المشركين على ما فعلوه.

وأول ذكر ضمنى لا صريح للمؤمنين كان فى الآية السادسة عشرة:

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

وذكرهم لم يقتصر على المؤمنين برسول الله وحدهم، بل تعداه إلى المؤمنين بالأنبياء الآخرين، وكذلك من الضمائر التى تعود على المؤمنين، نعد الآيات التى تعود على الأنبياء منها؛ لأن الأنبياء بالطبع مؤمنون مثل قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ الآية/ ٣٤ (٢).

---

(١) العكبرى : السابق، ١/ ٢٣٨ .

(٢) أرقام الآيات التى بها ضمائر تعود إلى المؤمنين هى: ١٦، ٣٤، ٣٦، ٤٨، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٧١، ٧٢، ٨٢، ٨٣، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ١٠٥، ١٢٦، ١٥١، ١٥٢، ١٦٠، ١٦٤ .

ونظراً لعدم ذكر المؤمنين صراحة فى النص، فإن المرجعية لهم، بصفة عامة، مرجعية خارجية. وتعرف من خلال السياق؛ فالآية (١٦) من المعروف أن الذين يصرف الله عنهم العذاب، هم المؤمنون، وهذا يعرف من خلال السياق الذى يوضح أن العذاب للكافرين، والنعيم للمؤمنين. وهذا يرجع إلى دور المتلقى فى هذه المعرفة.

وهناك آيات كثيرة لا تدرك مرجعيتها إلا بالسياق المحيط بالنص القرآنى، ونستعرض بعضها فيما يلى : يقول تعالى :

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ /٢٦

الآية السابقة على هذه الآية مخاطبة للنبى صلى الله عليه وسلم فى مثل (إليك، جاءوك، يجادلونك)، وهذه الآية تواصل ذلك الحوار؛ ومن ثم فالسياق اللغوى يبين أن الهاء فى (عنه) و(عنه) ترجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. لكن السؤال :

إلى من ترجع الضمائر (هم) و(الواو) فى (ينهون) و(ينأون) ؟

هذا الغموض من الصعب إزالته بدون الرجوع إلى السياق كما أكد ذلك علماء النصية. والسياق هنا هو مناسبة النزول. وبالرجوع إلى كتب أسباب النزول نجد السيوطى يقول : "روى الحاكم وغيره عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى أبى طالب، كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتباعد عما جاء به.

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى هلال قال: نزلت فى عمومة النبى صلى الله عليه وسلم، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه فى العلانية، وأشد الناس عليه فى السر"[(١)]. ويضيف الواحدى قوله : "وقال محمد بن

(١) السيوطى : أسباب النزول، ص ٨٥ .

الحنفية والسدى والضحاك : نزلت فى كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع محمد، ويتباعدون بأنفسهم عنه ... "(١).

وفى هذه المناسبة إجابة عن السؤال السابق؛ فالضمائر إما إلى عمومه النبى صلى الله عليه وسلم، أو مشركى مكة أو أبى طالب، وأيا كان المرجوع إليه، فإنه لم يجر له ذكر صريح فى السورة، ومن ثم فهى مرجعية خارجية تعتمد على السياق.

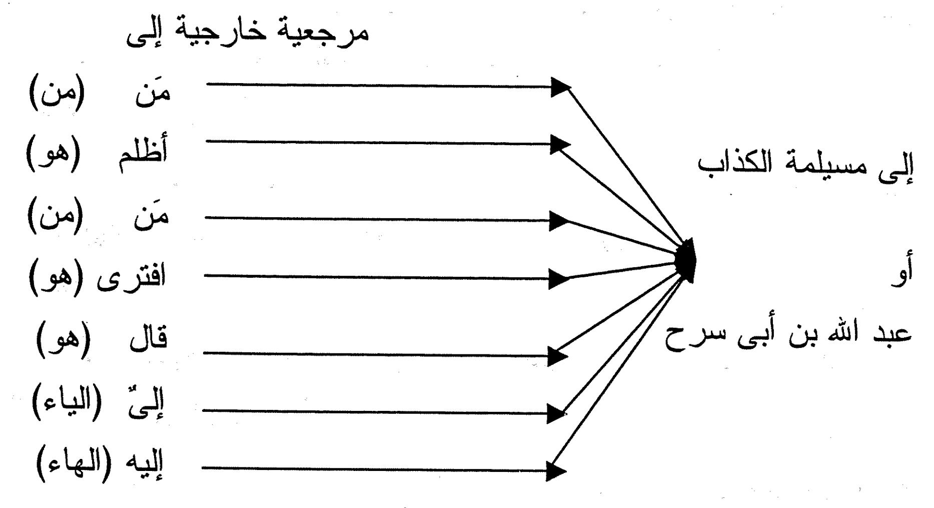
ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾/٩٣ .

فتوجد سبعة ضمائر اجتمع فيها الغموض لعدم معرفة المرجوع إليه. ويقال إنها : "نزلت فى مسيلمة (ومن قال سأنزل مثلما أنزل الله)، قال نزلت فى عبدالله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فيملى عليه : عزيز حكيم، فيكتب : غفور رحيم، ثم يقرأ عليه، فيقول : نعم سواء، فرجع عن الإسلام ولحق بقريش. وأخرج عن السدى نحوه وزاد : قال : إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إلى، وإن كان الله ينزله فلقد أنزلت مثلما أنزل الله، قال محمد : سميعاً عليماً، فقلت أنا : عليماً حكيماً"(٢).

(١) الواحدى : أسباب النزول، ص ١٦١ .
(٢) انظر : أ- السيوطى : السابق، ص ٨٧- ٨٨ .
ب-الواحدى : السابق، ص ١٦٥ .

ونمثلها كالتالى :



ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾/٩٤. "أخرج ابن جرير وغيره عن عكرمة قال: قال النضر بن الحارث: سوف تشفع لى اللات والعزى، فنزلت هذه الآية .. إلى قوله: (شركاء)"[١].

مرجعية خارجية

النضر بن الحارث وأمثاله ← جئتمونا (الواو)

والآية هنا ترتبط بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فكل من قال مثلما قال النضر بن الحارث، فهذا وعيد له.

وهناك نماذج عديدة فى السورة أسهمت مناسبات النزول فى حل شفرة غموض الضمائر فى مرجعيتها[٢]. وبناء عليه تظهر الصلة القوية بين النص والسياق ومن ثم المتلقى.

---

(١) السيوطى : السابق، ص ٨٨ .

(٢) لمزيد من النماذج ارجع إلى : أ – السيوطى : السابق، من ٨٥ : ٨٩ .
ب– الواحدى : السابق، من ١٥٩ : ١٦٨ .

فمناسبة النزول هذه من بين الأمور الواجب توفر إدراكها لدى المتلقى للنص؛ فلولا إدراكه لهذه المناسبات لما استطاع معرفة مرجعية الضمير، ومن ثم يغيب كثير من معالم الدلالة، وقد ينقص من تماسكها نظراً لعدم وضوح مرجعية الضمائر بها، وغموض دلالتها.

ما سبق، فى الغالب، يرتبط بدور الضمائر الشخصية؛ حيث لوحظ أنها تربط بين كلمات الآية الواحدة، وبين آيات السورة، وبين النص والبيئة المحيطة.

أما بالنسبة للإشارة فإنها تقوم، غالباً، بالدور نفسه الذى تقوم به الضمائر الشخصية، غير أن (هذا) لا تتعدى إشارته الآية الواحدة فى الغالب.

أما (ذلك) فإن (ذا) يتعدى الجملة الواحدة إلى الربط بين أكثر من جملة مثل :

- ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾/٨٨ .

فقبلها قوله تعالى :

- ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾/٨.

وقوله:

- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾/٨٢

وقوله:

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ /٨٤

وقوله:

- ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾/٨٧

فالإشارة (ذا) إلى الهدى المذكور فى هذه الآيات السابقة، فمرجعيته سابقة،

وربطت بين الآيات ٨٠ ، ٨٢، ٨٤، ٨٧، ٨٨ . وهذه من وظائف الضمير؛ فـ(ذا) أشار إلى ما سبق كله. مع ملاحظة أن الهدى مسند إلى الله تعالى.

وقد أشار الزمخشرى إلى أن الضمير يجرى مجرى الإشارة(١). وهنا نؤكد أن الإشارة قد جرت مجرى الضمير من ناحية وظيفته الرابطة.

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ(١٣٠)ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ(١٣١)﴾.

فقد ربط (ذا) بين دلالة الآيتين؛ فالله تعالى لا يهلك الناس دون أن يرسل إليهم رسولاً مبشراً ونذيراً، فإذا كذبوه حق عليهم العذاب؛ فالآية الثانية تبرر سبب الهلاك وهو تكذيبهم للرسل(٢).

وكذلك الآيتان ٩٥، ٩٦ :

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٩٥)فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٩٦)﴾.

فـ (ذا) يشير إلى قدرة الله فى فلق الحب والنوى، وإخراج الحى من الميت والعكس، وفلق الإصباح، وجعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً. فذلك كله تقدير الله، وربطه كله بـ (ذا) مرجعية سابقة، ولكن المرجوع إليه متعدد والمرجع واحد وهذا مرتبط كذلك بقضية الألوهية.

---

(١) الزمخشرى : الكشاف، ٢/ ١٩ .

(٢) والسبب والمسبب، أو علاقة السببية من بين الأنماط التى تسهم فى التحليل النصى، وكذا تسهم فى تحقيق التماسك.

وما يقوم به (ذا) فى تركيبه (ذلك)، يقوم به كذلك فى (ذلكم)[1]. و(كذلك)[2]؛ فيذكر مثلاً آيات كثيرة من آيات الله فى الكون مثل التى ذكرها فى الآيتين ٩٥، ٩٦ ثم يزيد جعله النجوم للاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر، والنشأة من نفس واحدة، وإنزال الماء من السماء، وإخراج النبات من كل شيء .. إلخ.

ثم يربط هذه الآيات كلها من ٩٥، ٩٨ بتعقيبه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ﴾ /٩٩

أما الموصولات، فإن دورها فى التماسك النصى يعتمد، فى أغلب الأحيان، على الجملة الواحدة، لكنها فى النهاية ترجع إلى مرجوع واحد هو الله تعالى[3]. فمرجعية (الذى) على مستوى الجملة داخلية، ولكن بملاحظة المرجعية العامة نجد أنها تعود إلى الله تعالى.

وكذلك (الذين) أغلب مرجعيتها إلى المشركين، وقليل منها يشير إلى المؤمنين[4].

فالضمائر الشخصية تحتل المرتبة الأولى فى الانتشار فى أرجاء السورة، وفى دورها فى تحقيق التماسك النصى (الشكلى والدلالى)، ومن بعد تأتى الموصولات والإشارات ومن ثم كان عدد الضمائر الشخصية أكثر من الإشارات والموصولات بأضعاف كثيرة [5].

---

(١) الآيات التى بها الإشارة (ذلك) ١٦، ٨٨، ٩٦، ١٣١، ١٤٦، أما (كذلك) ف ـــ ٥٣، ٥٥، ٧٥، ٨٤، ١٠٥، ١٠٨، ١١٢، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٧، ١٦٣، و(ذلكم) ٩٥، ٩٩، ١٠٢، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ .

(٢) السابق .

(٣) الآيات التى بها (الذى) وترجع إلى الله تعالى : ١، ٢، ٦٠، ٧٢، ٧٩، ٩٧، ٩٨، ٩٩ ١١٤، ١٤١، ١٦٥ .

(٤) الآيات التى بها (الذين) وترجع إلى المشركين : ١، ٧، ١٠ ، ٢٠ ، ٢٢، ٢٥، ٣١، ٣٩، ٤٥، ٤٩، ٦٨، ٧٠ ، ١٠٨، ١١٣، ١٢٠، ١٢٤، ١٢٥، ١٤٠ ، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٧، ١٥٩.

(٥) عدد الضمائر الشخصية ١٣٢٠ ضميراً.
عدد ضمائر الإشارة ٥١ ضميراً.
عدد ضمائر الموصول ٨٥ ضميراً.

وبصفة عامة يلفت النظر وجود (١٤٥٦) ضميراً فى سورة الأنعام التى يبلغ عدد آياتها (١٦٥) آية، وهذا أمر يدعو للتأمل، والقول بأن للضمائر دوراً بارزاً فى تحقيق تماسك هذه السورة[١].

سورة " الكـــــهف "

تختلف حركة الضمائر تبعاً لاختلاف القصص أو الموضوعات التى تضمنتها السورة؛ إذ إنها تشتمل على قصص أهل الكهف، من ٩: ٢٦، وتعقيب عليها، من ٢٧: ٣١. ثم قصة الرجلين، من ٣٢: ٤٤، وتعقيب عليها، من ٤٥: ٤٩. ثم إشارة إلى قصة السجود لآدم، فى الآية ٥٠، والتعليق من ٥١: ٥٩ . ثم قصة موسى مع فتاه، والرجل الصالح، من ٦٠: ٨٢. ثم قصة ذى القرنين، من ٨٣: ٩٩، ثم التعليق من ١٠٠: ١١٠.

والرابط الدلالى بين هذه الموضوعات المتنوعة هو تأكيد نصر الجانب المؤمن على الجانب غير المؤمن، وسوف يظهر ذلك فى الفصول التالية. ومن ثم القضية واحدة، والقصص مختلفة[٢].

ولا شك أن كل قصة تتماسك دلالياً، بصفة أساسية، لأنها تتحدث عن موضوع واحد؛ فقصة أهل الكهف تتحدث عنهم، وكذا قصة الرجلين، وموسى والرجل الصالح، وذى القرنين. ولا شك أيضاً فى أن للضمائر وظيفة بارزة فى الإسهام فى تحقيق هذا التماسك، لا على مستوى العبارة أو الجملة فحسب، بل على مستوى الآية وأكثر من آية. فكيف تسهم الضمائر إذن فى تحقيق هذا التماسك؟ وهل توجد ضمائر مشتركة بين هذه الموضوعات؟

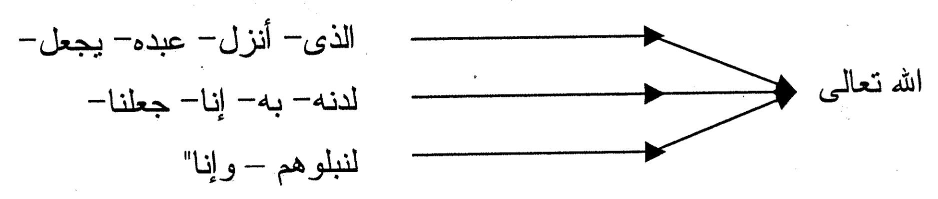
(١) المتصل من هذه الضمائر أكثر من ألف ضمير. وهذا يتمشى مع طبيعة اللغة. وكثرة المتصل عن غيره من الضمائر أمر أكده ابن جنى فى خصائصه كثيراً : الخصائص، ٢ / ١٩٤ وما بعدها.

(٢) هذا الاستدعاء لهذه القصص هو ما يطلق عليه النصيون : التناص، ولم يكن لمجرد التسلية، بل لخدمة موضوع السورة خاصة، والسور المكية عامة، وهو ترسيخ عقيدة ما؛ وهى نصر الفئة المؤمنة.

تبدأ الوحدة الدلالية الأولى من ١: ٨ ، فى الحديث عن حمد الله على إنزاله الكتاب، وعن صفات الكتاب أو بعضها، وعن وظائفه، وعن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من تبليغ الدعوة. ولهذا نجد الضمائر التى تحيل إلى الله تعالى تتمثل فى : الذى – أنزل– عبده– يجعل – لدنه– به– إنا– جعلنا – لنبلوهم– وإنا.

ويلاحظ أن لفظ الجلالة مذكور صراحة فى أول الآية الأولى، وبناءً عليه فإن المرجعية داخلية، وقد ذكرت الضمائر متأخرة عن المرجوع إليه، ولذا فالمرجعية سابقة. ومن ثم فالمرجعية داخلية سابقة.

"مرجعية داخلية سابقة"



والعنصر الثانى من الآية ذكر لفظ "عبده" مشيراً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهى صفة من صفاته، ثم جاءت الضمائر فى ألفاظ : لينذر– ويبشر– وينذر– فلعلك– نفسك وقد ذكر صراحة بصفة من صفاته، وذكر داخل النص، وذكر أولاً : قبل الضمائر التى تحيل إليه.

ولذا فإن المرجعية داخلية سابقة، ويمكن تمثيلها فى :

" مرجعية سابقة أو داخلية سابقة "

عبده
لينذر– يبشر– ينذر–
لعلك– نفسك.

أما العنصر الثالث فهو "الكتاب"، وإليه إحالات فى : له – هذا. وهى تتسم بسمات الإحالة للعنصرين السابقين؛ داخلية سابقة. لكن السؤال : أتقف

الإحالات إلى هذه العناصر عند حد هذه الوحدة فقط؟ أم تتعداها إلى بقية السورة؟

المتتبع للإحصاء، ولسياق السورة، يجد أن لفظ الجلالة، استمرت الضمائر التى تحيل إليه على مدار السورة كلها، وذلك فى خمسين آية بالضمائر، غير الأسماء الظاهرة، كما سيتضح فى فصل التكرار، وكانت هذه الإحالات فى القصص كلها، وفى التعقيبات كلها، وكلها- أى الضمائر- تحيل إلى لفظ الجلالة المذكور صراحة فى أول الآية الأولى؛ ومن ثم فمرجعية الضمائر التى تحيل إليه كلها داخلية سابقة[1].

وهذا الانتشار للضمائر التى تحيل إلى مرجوع واحد يوحى إلينا بحقيقة مهمة، تتمثل فى وظيفة الضمائر فى تحقيق التماسك النصى بين آيات السورة كلها، وأيضاً بين وحداتها الدلالية كلها. وأيضاً يؤكد الاستمرارية القائمة من الآية الأولى حتى الآية الأخيرة. وأن الوحدات ليست مستقلة عن بعضها.

فمفتاح السورة إذن فى الآية الأولى؛ فإذا كان موضوع السورة الأساسى، العقيدة المتمثلة فى نصر الله للجانب المؤمن، والعكس لغير المؤمن، فإن الذى بيده هذه القضية الله تعالى. بل الذى بيده إنزال الكتاب، وإدخال الجنة والنار، وتسيير الآيات الكونية هو الله تعالى.

أما العنصر الثانى فى هذا المفتاح، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد ذكر فى الآية الأولى، ثم وردت الضمائر التى تحيل إليه فى خمس وعشرين آية من السورة، موزعة من ١ : ١٠٦. وهذا طبيعى لأن السورة

---

(١) الآيات التى بها ضمائر تحيل إلى الله تعالى، غير الآيات من ١ : ٨ ، هى : ٩، ١٠، ١١،١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠ ، ٣٢، ٣٣، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤٤، ٤٧، ٤٨، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٥، ٨٤، ٨٧، ٩٠ ، ٩١، ٩٨، ٩٩، ١٠٠ ، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦. هذا إضافة إلى الأسماء الظاهرة.

كلها، مناسبة نزولها، سؤال أهل مكة عن ثلاث، عن أهل الكهف، وعن ذى القرنين، وعن الروح[1]، لذلك تكرر الفعل "قل" كثيراً كما سنرى فى التكرار، وهذه السورة لم تقف عند حد إجابته عن هذه الأمور، بل أضافت بعضاً من وظائفه صلى الله عليه وسلم.

وانتشار هذه الإحالات فى أركان السورة، يؤكد الأمور التى أكدها انتشار الإحالات التى تحيل إلى "الله" تبارك وتعالى، كما سبق الذكر[2].

أما العنصر الثالث؛ الكتاب، فلم يُذكر كثيراً فى جنبات السورة؛ فقد ورد بلفظه فى ١، ٢٧، ٥٦، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٩. وبالضمائر فى ١، ٦، ٥٤. ومع ذلك فقد توزعت من ١ : ١٠٩، الآية قبل الأخيرة. وعلى الرغم من عدم ذكره كثيراً، فإننا نرى أن هذه القصص ذكرت بوحى من الله لتكون مكوناً من مكونات كتابه العزيز، وعليه فإن هذه الآيات كلها تتعلق بكتاب الله ضمنا.

ما نتوصل إليه إذن هو الإجابة عن السؤال الثانى الذى سبق طرحه على مائدة البحث: أتوجد ضمائر مشتركة بين وحدات هذه السورة؟ وقد ثبت هذا بالإيجاب، وعليه يتحقق التماسك النصى العام بين آيات السورة، من خلال المرجعية إلى العناصر الثلاثة المذكورة فى الآية الأولى، مفتاح السورة. وإذا كان هذا الإسهام على المستوى العام للسورة، فكيف تسهم الضمائر على مستوى كل وحدة على حدة؟

عرض للوحدة الأولى، المتمثلة فى مقدمة السورة. أما الثانية فتكمن فى ذكر قصة أصحاب الكهف؛ فلم تذكر السورة أسماءهم، بل اكتفت بصفة لهم؛ أصحاب الكهف. وهم العنصر الأساسى الذى تدور حوله القصة، ومن

---

(١) ارجع إلى : ابن كثير : مختصر تفسير ابن كثير، ٢/ ٤٠٨ .

(٢) الآيات التى بها ضمائر تحيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الآيات من ١: ٩ ١٣، ١٧، ١٨،٢٢،٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٢، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٧، ٥٨، ١٠٣، ١٠٩، ١١٠.

ثم فهم نواة هذه القصة، ومفتاحها، لذلك نرى الضمائر التى تحيل إليهم جاءت بعد التصريح اللفظى "أصحاب الكهف" فى الآية "٩"؛ الأولى من القصة :

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾/٩

ثم ترد الضمائر التى تحيل إليهم فى الكلمات : فقالوا- ربنا- آتنا- لنا- أمرنا- آذانهم- بعثناهم- نبأهم- إنهم- آمنوا- بربهم- وزدناهم- قلوبهم- قاموا- فقالوا- ربنا- ندعو- قلنا- قومنا- فأووا- لكم - ربكم- لكم- أمركم- كهفهم- تقرضهم- وهم.

وتحسبهم - وهم - نقلبهم - كلبهم - عليهم - منهم - منهم - بعثناهم - ليتساءلوا - بينهم. منهم. لبثتم - قالوا - لبثنا - قالوا - ربكم - لبثتم - أحدكم - بورقكم - فليأتكم - بكم - عليكم - يرجموكم - يعيدوكم - تفلحوا - عليهم - عليهم - بهم - عليهم - رابعهم - كلبهم - سادسهم - كلبهم - ثامنهم - كلبهم - بعدتهم - يعلمهم - فيهم - فيهم - لبثوا - كهفهم - ازدادوا - لبثوا" فترددت الضمائر التى تحيل إليهم فى واحد وسبعين موضعاً، على مدى سبع عشرة آية فقط، هذا إضافة إلى ذكر صفتهم، إما أصحاب الكهف أو الفتية. وهذه الضمائر تجتمع كلها فى الإحالة إلى المذكور صراحة فى أول القصة "أصحاب الكهف"، ومن ثم فالمرجعية داخلية سابقة. ووظيفة الضمائر هنا واضحة فى تحقق تماسك هذه القصة، إضافة إلى وحدتها الدلالية، وتعاقب أحداثها، والإجمال والتفصيل بين آياتها، وغيرها من الوسائل التى سنعرض لها فى الفصول التالية.

ثم يأتى التعقيب من ٢٧ : ٣١ ، فتتغير حركة الضمائر ومرجعيتها إلى الله تعالى والرسول والكتاب، والحديث عن الذين آمنوا؛ أصحاب الجنة، والذين كفروا، أصحاب النار.

أما القصة الثانية، قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين دون الثانى، فبغى وكفر. فعناصر القصة إذن: الرجلان، ثم كل رجل على حدة، الجنتان. ومن ثم تحددت مرجعية الضمائر؛ فالعنصر الأول: الرجلان، وإلى هذا اللفظ جاءت الإحالة فى: "أحدهما". أما الرجل المؤمن فضمائره: "لصاحبه - يحاوره - منك - هو - ربى - أشرك - بربى - ترنى - أنا - ربى - يؤتينى". والرجل الجاحد ضمائره "له - فقال - لصاحبه - وهو - أنا - ودخل - جنته - وهو - لنفسه - قال - أظن - وما أظن - رددت - ربى - لأجدن - له - صاحبه - يحاوره - أكفرت - خلقك - سواك - دخلت - جنتك - قلت - ترنى - منك - جنتك - تستطيع - بثمره - فأصبح - يقلب - كفيه - أنفق - ويقول - ياليتنى - أشرك - بربى - له - ينصرونه - وما كان". أما الجنتان فضمائرهما : "حففناهما - بينهما - أكلها - خلالهما - هذه - منها - عليها - فتصبح - ماؤها - فيها - وهى - عروشها".

والملاحظ أن هذه العناصر ذكرت صراحة فى أول القصة، ثم وردت الضمائر لتحيل إلى كل منها، وعليه فإن المرجعية إلى هذه العناصر كلها؛ داخلية سابقة. وهى تسهم بدورها فى تحقيق تماسك القصة، إضافة إلى وحدتها الدلالية، وتماسك أحداثها وتعاقبها. وغير ذلك من الوسائل التى سنفصلها فى مواضعها.

والضمائر فى الوحدات الثلاث السابقة لا تسهم فى تحقيق التماسك النصى على مستوى الآية المفردة، بل بين العديد من الآيات.

ثم يأتى التعقيب من ٤٥ : ٥٩ ليضرب مثلاً للحياة الدنيا وزينتها، ويتحدث عن يوم القيامة وموقف الناس فيه، من ٤٨ : ٤٩. ثم موقف إبليس من الأمر بالسجود لآدم. والتعقيب بالحديث عن هؤلاء الذين اتخذوا شركاء من دون الله. وعن موقف الناس من القرآن الكريم، وإهلاك الذين ظلموا. وقد توزعت الضمائر التى تحيل إلى هذه العناصر لتربط أحياناً بين عناصر آية واحدة كما فى ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥٥، ٥٦، ٥٩. وأحياناً أخرى تربط بين أكثر من آية كما فى ٤٩، ٥٠، ٥٧، ٥٨.

أما قصة موسى عليه السلام مع فتاه والرجل الصالح، فعناصرها موسى، والفتى، والرجل الصالح، أما الأول فضمائره :"لفتاه - أبرح - أبلغ - أمضى - فاتخذ - سبيله - قال - لفتاه - أرأيت - قال - أتبعك - تعلمنى - إنك - تستطيع - تصبر - تحط - قال - ستجدنى - أعصى - اتبعتنى - تسألنى - لك - قال - إنك - تستطيع - قال - سألتك - تصاحبنى-لدنى - قال - وبينك - سأنبئك - تستطع - تسطع". أما الفتى، فضمائره :" آتنا - قال - فإنى - نسيت - أنسانيه - أذكره - واتخذ - سبيله". والرجل الصالح، ضمائره :" آتيناه - علمناه - له - أتبعك - تعلمنى - علمت - قال - معى - ستجدنى - لك - قال - اتبعتنى - تسألنى - أُحدث - خرقها - أخرقتها - لتغرق - جئت - قال - أقل - معى - تؤاخذنى - ترهقنى - فقتله - أقتلت - جئت - قال - أقل - معى - سألتك - تصاحبنى - بلغت - فأقامه - شئت - لاتخذت - قال - بينى - سأنبئك - فأردت - أعيبها - فعلته. أمرى". وهناك ضمائر مشتركة؛ ضمائر تحيل إلى موسى وفتاه معاً مثل :"بلغا - نسيا - حوتهما - جاوزا - آتنا - غدائنا - لقينا - سفرنا - أوينا - فارتدا - فوجدا". وضمائر تحيل إلى موسى والرجل الصالح معاً، مثل . " فانطلقا - ركبا - فانطلقا - لقيا - فانطلقا - أتيا - استطعما - يضيفوهما - فوجدا".

وهكذا أسهمت الضمائر، بإحالاتها المختلفة فى تحقيق تماسك نص هذه القصة؛ فقد ذكر موسى صراحة، وفتاه، والرجل الصالح، وذكرت هذه العناصر فى أول القصة، ومن ثم فالمرجعية داخلية سابقة. والتلاحم الدلالى الحادث بين أحداث القصة ذات الشطرين؛ أولهما موسى مع فتاه، والثانى موسى مع الرجل الصالح. وهذه العناصر الثلاثة تمثل نواة القصة الأساسية التى تدور حولها الأحداث والضمائر.

وتعقبها مباشرة قصة ذى القرنين، وهو العنصر الأساسى فى هذه القصة، وتظهر عناصر أخرى مثل يأجوج ومأجوج، ومن ثم تتحرك الضمائر أولاً حول محور ذى القرنين فى "منه - له - آتيناه - فاتبع - بلغ - وجدها -

ووجد – تُعذب – تتخذ – قال – نعذبه – وسنقول – أمرنا – أتبع – بلغ – وجدها – لديه – أتبع – بلغ – وجد – لك – تجعل – قال مكنى – فأعينونى – أجعل – آتونى – سأوى – قال – جعله – قال – آتونى – أفرغ – قال – ربى – ربى". أما يأجوج ومأجوج، ففى :"بينهم – بينهم – اسطاعوا – يظهروه – استطاعوا – بعضهم – فجمعناهم".

ونلاحظ أنه كلما ازداد دور العنصر الرئيسى فى القصة، ازدادت الضمائر التى تحيل إليه. كما حدث فى الإحالات إلى لفظ الجلالة، والرسول صلى الله عليه وسلم، والفتية – والرجلين – وموسى – والرجل الصالح – وذى القرنين – وهذا أمر له أهميته؛ فالضمائر لا تتوزع بصورة عشوائية، لكنها حسب الدلالة التى يريد النص أن يوضحها. ودليل ذلك أن العناصر الهامشية أو الثانوية فى النص، تجد الضمائر التى تحيل إليها أقل بكثير.

ثم تختم السورة بتعقيب يتناسب مع موضوعها، ومع أولها؛ فيتحدث عن مصير الجانب الكافر، ومصير الجانب المؤمن، ليؤكد القضية الأساسية للسورة. ثم يتحدث إلى رسول الله عن الإعجاز فى هذا الكتاب الكريم، الذى سبق ذكره فى أول السورة. ومن ثم تُذكر العناصر الثلاثة : الله – الرسول – الكتاب فى آخر السورة كذلك. كما سبق ذكرها فى أول السورة.

وتجدر الإشارة إلى أن ذكر لفظ الجلالة أو ضمائره كان فى الوحدات كلها، وهذا يمثل عنصراً مشتركاً بين أجزاء السورة المختلفة.

وعليه نصل إلى حقيقة موداها أن الضمائر أسهمت فى تحقيق التماسك النصىعلى محورين :

الأول : المحور العام للسورة من خلال الضمائر المشتركة بين آيات السورة.

الثانى: المحور الخاص من خلال كل وحدة دلالية على حدة. مع مراعاة الدلالة.

المشتركة بينها – كما ذكرنا – وهى نصر الجانب المؤمن. وكذلك يظهر دور الضمائر فى التحليل النصى لهذا النص الكريم، وكيف يعتمد التحليل عليها.

ولننتقل إلى تحليل سورة أخرى تحمل نموذجين للقصص القرآنى، موسى مع فرعون وقومه، وقارون مع قومه، وهى سورة "القصص".

سورة " القصـــــــص "

هذه السورة تشتمل على قصتين، على كل منهما تعقيب، وفى بداية السورة، توجد مقدمة قصيرة تتحدث عن الكتاب المبين، وعن تنويه الله تعالى عن تلاوة أنباء موسى مع فرعون. وهنا تبدأ قصتهما معاً، وهما العنصران الأساسيان فى القصة، وبناء عليه تتحدد مرجعية الضمائر؛ فنجد الضمائر التى تحيل إلى موسى عليه السلام، تأتى بعد ذكر اسمه صراحة فى أول النص، من هذه الضمائر:" أرضعيه – عليه – فألقيه – رادوه – جاعلوه – فالتقطه – ليكون – لا تقتلوه – ينفعنا – نتخذه – به – قصيه – به – عليه – يكفلونه – له – فرددناه – أمه – بلغ – أشده – استوى – آتيناه – ودخل – فوجد – شيعته – عدوه – فاستغاثه – شيعته – عدوه – فقضى – قال – قال – ربى – إنى – ظلمت – نفسى – لى – له – قال – ربى – على – أكون – فاصبح – يترقب – استنصره – يستصرخه – أراد – يبطش – أتريد – تقتلنى – قتلت–تريد – تكون – وما تريد – تكون – بك – ليقتلوك – فاخرج – لك – فخرج – يترقب – قال – ربى – نجنى – توجه – قال – ربى – يهدينى – ورد – ووجد – قال – فسقى – تولى – فقال – ربى – إنى – إلى – فجاءته – يدعوك – ليجزيك – سقيت – جاءه – قص – لاتخف – نجوت – استأجره – أنكحك – تأجرنى – أتممن – عندك – عليك – ستجدنى – قال – بينى – قضيت – على – سار – آنس – قال – لاهله – إنى – آنست. . . . إلخ".

فهذه الضمائر وعددها مائة وثلاثة وسبعون ضميراً تحيل كلها إلى لفظ "موسى" المذكور فى أول السورة. وهو يمثل المرجوع الأول فى السورة، إضافة إلى تكرار اسمه ظاهراً. وهى – أى المرجعية – داخلية سابقة، تربط بين آيات القصة كلها ربطاً شكلياً ودلالياً. مع تضافر الأحداث وتلاحمها وتعاقبها، وغير ذلك من الوسائل التى تحقق التماسك النصى.

فنواة القصة الرئيسية هى لفظ "موسى" عليه السلام، وبناء عليه تحرك اتجاه الضمائر مصوباً نحو هذه النواة ليحدث الالتئام بينها وبين الآيات المحيطة بها :

موسى "عليه السلام" ← مرجعية داخلية سابقة الأسماء – الأفعال – التراكيب – أشباه الجمل التى تعبر عن الأحداث التى مرت بها القصة – وتحيل إلى موسى.

وإذا كان الحديث فى بداية السورة موجهاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾/٣

فإن التعقيب على قصة موسى مع فرعون يبدأ كذلك بالحديث إلى رسول الله:

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾/٤٤

وهذا طبيعى؛ إذ إن الحديث كله موجه إليه صلى الله عليه وسلم. وسوف نلاحظ هذا فى التعقيب الأخير فى السورة كذلك.

أما العنصر الثانى الرئيسى فى القصة، فهو فرعون، العدو الأول لدعوة موسى عليه السلام، وعليه كانت الضمائر التى تحيل إليه، بعد ذكره صراحة فى الآية الثالثة، تتشكل كما فى : "علا – جعل – يستضعف – يذبح – يستحى – إنه، ويلاحظ أنها كلها فى آية واحدة، وذلك بعد ذكره صراحة فى موضعين، فى ٣،٤، ولا شك أن هذا يسهم فى تحقيق تماسك هاتين الآيتين. بل يتعدى الأمر هاتين الآيتين إلى ما يليها من آيات فى مثل : لك –ملإه – علمت – غيرى – لى – لى – لعلى – أطلع – وإنى لأظنه – واستكبرهو – وجنوده – فأخذناه – وجنوده".

وأيضاً يظهر عنصر "أم موسى" فى الآيات من ٧ : ١٣؛ فيُذكر صراحة فى أول الآية السادسة :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾

ثم تتوالى الضمائر فى هذه الآية وغيرها لتحيل إليها : "أرضعيه – خفت – فألقيه – ولا تخافى – ولا تحزنى – إليك – كادت – لتبدى – قلبها – لتكون – وقالت – عينها – ولا تحزن – ولتعلم".

وقد ذُكر فرعون صراحة، وكذلك أم موسى، فى أول الآيات، قبل دور والضمائر، ومن ثم، فالمرجعية إليهما داخلية سابقة.

والتعقيب كما ذكرنا يتشابه مع المقدمة، إذ الحديث فيهما معاً موجه من الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، لذلك نجد الضمائر التى تحيل إلى الله تعالى قد انتشرت فى أركان السورة كلها[1]. كما حدث فى السور السابقة، ومن ثَمَّ فورود هذه الضمائر التى تحيل إلى الله تعالى بهذه الكيفية، يوحى بالاستمرارية الدلالية بين آيات السورة كلها، وأنه ليس هناك استقلال لوحدة عن الأخرى، خاصة وأن القصتين تهدفان إلى إبراز حقيقة مهمة؛ وهى نصر المؤمنين على الطغاة، وإن كان المؤمنون ضعفاء من الناحية المادية، وهذا رابط دلالى بين القصتين، ومن ثم بين آيات السورة كلها كما سنؤكد فى الفصول التالية.

ونظراً لأن الحديث موجه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإن الضمائر التى تحيل إليه قد انتشرت كذلك فى جنبات السورة فى مثل : "عليك

(١) الآيات التى بها ضمائر تحيل إلى الله تعالى هى :
٣،٥، ٦، ٧، ١٢، ١٣، ١٤، ١٦، ١٧، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٣٠ ، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٠ ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠ ، ٥١،٥٢، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٨، ٦٩، ٧٠ ، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٨. إضافة إلى الأسماء الظاهرة.

- كنت - كنت - كنت - تتلو - كنت - ربك - لتنذر - قبلك - قل - أتبعه - لك - فاعلم - إنك - لا تهدى - أحببت - معك - ربك - ربك - ربك - قل - قل - عليك - لرادك - قل - ربى - كنت - ترجوا - إليك - ربك - تكونن - يصدنك - إليك - ادعُ - ربك - لا تكونن - لا تدع".

غير أن المرجعية هنا تختلف؛ فإذا كانت مع موسى وأمه وفرعون؛ مرجعية داخلية، فذلك لأنه صرح بأسمائهم فى السورة، لكن هنا لم يحدث هذا التصريح؛ فلم يجر ذكر صريح للفظ الجلالة ولا لفظ رسول الله، فى أول السورة، ولكن علم أن المرجعية إليهما من خلال السياق. وهذه من مهام المتلقى النموذجى للنص الذى تتوفر فيه شروط المتلقى، كما سنعرف فى فصل الحذف، فقد دل السياق عليهما. وما دام الأمر كذلك، فإن المرجعية، فى هاتين الحالتين خارجية. وهى تحقق التماسك النصى أيضاً؛ لأنها - أى الضمائر - تتفق كلها، شكلاً ودلالة فى المرجوع أو المحال إليه، لأن ذكر الضمائر هكذا، يعد نمطاً من أنماط التكرار، كما سنعرف فى فصل التكرار. والتكرار واحد من الوسائل التى تحقق التماسك النصى.

ولقد اشتمل التعقيب على قصة موسى، على موقف المعارضين لرسول الله من ٤٧ : ٥١، وموقف المؤمنين من ٥٢ : ٥٥، ثم عود إلى المعارضين ومصيرهم من ٥٧ : ٥٩، ومن ٦١ : ٦٦ وعلى الحوار بين رسول الله والمجادلين من ٧١ : ٧٣ .

ولذلك تجد الضمائر التى تحيل إلى المعارضين فى : "تصيبهم - أيديهم - فيقولوا - ربنا - إلينا - فنتبع - ونكون - جاءهم - قالوا - يكفروا - قالو - فأتوا - كنتم - يستجيبوا - يتبعون - أهواءهم - لهم - لعلهم - يتذكرون - وقالوا - نتبع - نتخطف - أرضنا - لهم - أكثرهم - لا يعلمون - مساكنهم - بعدهم - متعناه - هو - يناديهم - كنتم - تزعمون - الذين - عليهم - ربنا - هؤلاء الذين - أغوينا - أغويناهم - غوينا - تبرأنا - كانوا - يعبدون - ادعوا - شركاءكم - فدعوهم - لهم - رأوا - أنهم - كانوا يهتدون ... إلخ.

أما التى تعود إلى المؤمنين فمنها : "الذين – آتيناهم – هم – يؤمنون – عليهم – قالوا – آمنا – ربنا – إنا – كنا – أولئك – يؤتون – أجرهم – صبروا – ويدرءون – رزقناهم – ينفقون – سمعوا – أعرضوا – قالوا – لنا – أعمالنا – لا نبتغى – من – تاب – آمن – عمل – يكون".

وهكذا تلتقى الضمائر فى هذا التعقيب حول محاور أربعة :

١ – الله تعالى، ومرجعيته خارجية.

٢ – رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرجعيته أيضاً خارجية.

٣ – الذين كفروا. ولم يذكروا، فمرجعيتهم كذلك خارجية.

٤ – الذين آمنوا ولم يذكروا، فمرجعيتهم كذلك خارجية.

والمرجعية الخارجية تعتمد أساساً على السياق المحيط بالنص، وهذا السياق يدركه المتلقى، لتكتمل كفاءته وقدرته على فك شفرة النص، وإبعاد الغموض عن الضمائر الكائنة فيه بمعرفة مرجعيتها، ومن ثم دلالتها.

فكما أبرزت مناسبات النزول، فى سورة الكهف، أن الذين :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾/ ٨٣،

وعن أهل الكهف، وعن الروح، "هم: النضر بن الحارث وعقبه بن أبى معيط .."[(١)]. فإن السياق هنا، أو مناسبات النزول تبين بعضاً منها؛ فقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾/٥١

والسؤال: إلى من تعود الضمائر فى "لهم – لعلهم – يتذكرون"؟ "أخرج ابن جرير والطبرانى عن رفاعة القرظى قال: نزلت ... فى عشرة أنا أحدهم، وأخرج ابن جرير عن على بن رفاعة قال: خرج عشرة رهط من أهل

(١) ابن كثير : مختصر التفسير، ٢/ ٤٠٨ .

الكتاب: منهم رفاعة ... إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فآمنوا فأوذوا. فنزلت ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾/٥٢"[١].

وأيضاً الضمير فى قوله تعالى :

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾/٥٦

"فقد أخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه : قل لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة، قال: لولا أن تعيرنى نساء قريش ... "[٢].

وأيضاً الضمائر فى قوله تعالى:

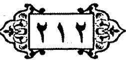
﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾/٥٧

"... أخرج النسائى عن ابن عباس : أن الحارث بن عامر بن نوفل هو الذى قال ذلك ... "[٣]. وغيرها من الآيات التى تبهم فيها مرجعية الضمائر، فإن السياق هو الذى يكشف ذلك الإبهام. وبناء عليه فإن المرجعية خارجية؛ إذ لم يجر ذكر صريح لهذه الأسماء فى النص.

أما قصة قارون، وبغيه على قومه بما أتاه الله من سلطان، فإن الضمائر تتحرك صوب اسمه المذكور فى أول القصة كالتالى :

"كان – فبغى – آتيناه – له – قومه – لا تفرح – ابتغ – آتاك – لا تنس – نصيبك – وأحسن – إليك – لاتبغ – قال – أوتيته – عندى – يعلم – قبله – منه – فخرج – قومه – زينته – إنه – به – وبداره – له – ينصرونه – كان – مكانه" فورود تسعة وعشرين ضميراً، فى خمس آيات، ترجع إلى محال إليه واحد، مذكور فى أول النص، يوحى بالتماسك النصى بين آيات هذه

(١) انظر : السيوطى أسباب النزول، ص ١٥١. والواحدى : أسباب النزول، ص ٢٥٤ : ٢٥٦ .
(٢) السابقان.
(٣) السابقان.



القصة من خلال المرجعية الداخلية السابقة. ومن خلال تعاقب الأحداث وتماسكها دلالياً.

ثم يأتى التعقيب الأخير فى السورة ليربط بين القصتين، وبين مقدمة السورة وموضوعها كذلك :

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا﴾ /٨٣

أى للذين آمنوا مع موسى، ومع رسول الله وغيرهما. وليست لفرعون الذى علا فى الأرض، وليست لقارون الذى بغى فيها كذلك، وليست لمثلهما. ثم يأتى الحديث مع رسول الله مباشرة بضمائر المخاطب إلى آخر السورة .

إذن هناك ضمائر مشتركة فى الآيات، تعود إلى الله تعالى، وإلى رسوله، وإلى الذين آمنوا، وإلى الذين كفروا. وهناك ضمائر تختص بها كل قصة، مثل موسى وأمه وأخته وفرعون وهامان وجنودهما، ومثل قارون. لكن فى النهاية تجمع الدلالة بين هذه الوحدات كلها لتلتقى مع قضية السور المكية عامة، والقصص خاصة، وهى قضية الألوهية، ومن مقتضياتها: نصر الله للمؤمنين. وذلك واضح فى الوحدات كلها. وكذلك التوحيد لله تعالى، كما أكدته الآيات حتى أخر جملة.

ومما سبق يتضح أن للضمائر وظيفة أساسية فى الإسهام فى تحقيق تماسك نص هذه السورة على المحاور التى ذكرناها. وأن توزيعها تناسب مع دلالتى القصص فيها.

واتضح أيضاً أن للسياق دوراً مهماً أو واضحاً فى الإرشاد إلى ما يكشف غموض الضمائر، ولا شك أن للسياق أهميته فى التحليل النصى، وأنه من أهم ما يجب على المتلقى أن يعيه لفك شفرة النص.

ونواة النص كله تسير على محورين :



الأول : أن هاتين القصتين وحى، وتلاوة على رسول الله، لذلك أشارت الآية الثانية والثالثة إلى هذه الطبيعة، وأن السورة كلها من الوحى أو التلاوة.

الثانى: الدلالة المقصودة من هاتين القصتين، وهى نصر الفئة المؤمنة، مهما كانت قوة الفئة الظالمة مثل فرعون وقارون.

سورة "الملك"

ونموذج آخر من نماذج السور المكية سورة "الملك"، تناقش أيضاً القضية التى يعالجها القرآن المكى" قضية العقيدة"، وذلك من جهة هيمنة الله تعالى وامتلاكه لكل شىء. ومفتاح السورة، بدايتها تشير إلى هذا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾/١

فهل شاركت الضمائر فى تحقيق التماسك النصى ليبرز هذه القضية؟ وبمعنى آخر: كيف يمكن أن تبرز مهمة الضمائر فى التحليل النصى؟ بداية نتأمل الآيات التالية :-

- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾/١
- ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾/٢
- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ /٣
- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾/٥
- ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾/١٣
- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾/١٥

- ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾/١٦
- ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾/١٧
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾/١٩
- ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾/٢١
- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ / ٢٣
- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾/٢٤
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾/٣٠.

فهذه الأشياء كلها، والتى ذكرتها الآيات تقع فى ملك الله تبارك وتعالى، وكأن الآيات من (٢) إلى آخر السورة تفصيل لهذا الملك، وهذا التفصيل كلما طال، احتاج إلى رابط يربطه بنواة النص، أو جملة الأساس، وهذا ما حدث فى هذه السورة، والسورة التى سبق تحليلها.

ولفظ الجلالة لم يجر له ذكر صريح فى أول السورة ومن ثم فمرجعية هذه الضمائر خارجية. ولكنها فى الآية (٢٨) مرجعية داخلية سابقة.

مرجعية داخلية

(الله) ← رحمنا (هو)

سابقة

وكذا الآية (٢٩) (هو – به – عليه) تعود إلى (الله) المذكور صراحة فى (٢٨).

ولسائل أن يسأل : بما أن (الذى) حل فى الآية الأولى محل لفظ الجلالة، وهذه الآية مفتاح السورة. وإذن فمرجعية هذه الضمائر داخلية سابقة؟

نقول: مع إيماننا بإمكانية هذا الاحتمال، فإنه مع ذلك احتمال ضعيف. وذلك لسبب واضح وهو أن (الذى) يقوم بوظيفة الضمير، وهناك رأى بأن (الذى) من الضمائر. ولهذا فـ (الذى) نفسه من الضمائر التى تعود إلى الله تعالى. ومن ثم فالمرجعية خارجية وليست داخلية.

والآيات نفسها لا يمكن استغناؤها عن الضمائر، وهذا يؤكد تماسك النص الشكلى. والآيات كذلك تسير كلها فى اتجاه واحد وهو تأكيد قضية الألوهية من خلال امتلاك الله لكل شيء. وهذا يمثل وحدة موضوعية معنوية للنص.

والتماسك القائم ليس على مستوى السورة وحدها، بل على مستوى الآيات المفردة، فالآية الأولى بها ثلاثة ضمائر، والثانية أربعة ضمائر، والثالثة بها ضميران، والخامسة بها ثلاثة ضمائر، والخامسة عشرة بها خمسة ضمائر ... وهكذا؛ فهى تحقق التماسك على مستوى الآية الواحدة، وعلى مستوى النص؛ إذ كلها تتجه إلى أساس النص (الله) تعالى.

ولكن أعرِفت مرجعية الضمائر كلها فى السورة؟

فمثلاً يقول تعالى :

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾/١٣ .

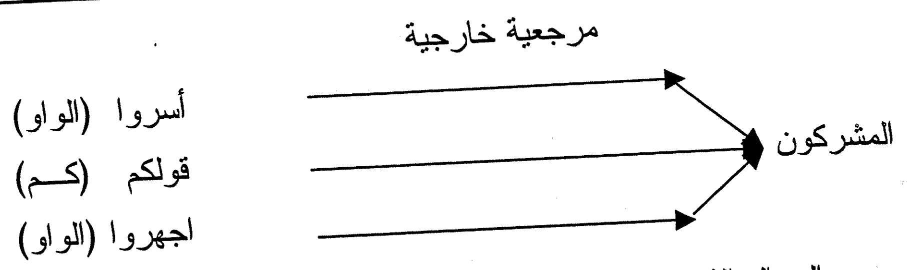
فإلى من ترجع الضمائر فى ﴿أَسِرُّوا – قَوْلَكُمْ – اجْهَرُوا﴾؟

"قال ابن عباس: نزلت فى المشركين؛ كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخبره جبريل عليه السلام بما قالوا فيه ونالوا منه، فيقول بعضهم: أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد"[١].

إذن مرجعيتها خارجية إلى المشركين :

---

(١) الواحدى : أسباب النزول، ص ٣٢٧ .



والسؤال الذى يطرح نفسه : هناك آيات من ٥ : ١١ تعود الضمائر فيها إلى المشركين. ما علاقة ذلك بقضية السورة الأساسية ؟

هذه الآيات تتوجه إليهم بالنذير بسوء العاقبة بعد تذكيرهم بنعمه عليهم، وهذه النعم من ملك الله، والجنة والنار كذلك ملك لله، بل هؤلاء الكفار أنفسهم ملك لله. هذا إضافة إلى أن تبليغ هؤلاء الكفار بأن هذا الكون كله لله، أمر من البديهى انه سيجعلهم يدخلون الإسلام، فالحوار كذلك موجه إليهم. وبذلك أسهمت الضمائر، على اختلاف مرجعها، فى تحليل ذلك النص.

سورة "نـــــــوح"

أما سورة "نوح" عليه السلام، فهى تقص فى عمومها قصة نوح مع قومه. وعند التحليل نلاحظ أنها تدور حول ثلاثة محاور؛ فهى عبارة عن إرسال نوح بالرسالة وتكليفه بالدعوة، ثم تلبية نوح لهذا التكليف وعرضه للرسالة على قومه، ثم استنكار قومه وتكذيبهم واستهزائهم وسخريتهم به وبدعوته. وبناء عليه فهى كالتالى :

١ – تكليف الله سبحانه لنوح بالرسالة والتبليغ.

٢ – طاعة نوح للأمر والقيام بعرض الدعوة.

٣ – موقف قومه الرافض المستنكر الساخر.

وهذه المحاور كلها تسير فى إطار المحور العام للسورة وهو قصة نوحٍ عليه السلام. فلا يمكننا أن نقول بأن كل محور يمكنه أن يمثل مقطعاً مستقلاً

بنفسه، لكنها تسير جنباً إلى جنب فى آيات السورة كلها. وهذا يؤكد تضافر هذه المحاور جميعاً لتحقيق التماسك النصى للسورة.

وطبيعة السورة التى بهذا الشأن أن يكون الحوار هو طابعها؛ فالله هو المكلِّف، ونوح هو المكلَّف، وقومه هم المبلَّغون، والحوار يدور على هذه المحاور. والحوار نفسه نمط من أنماط التماسك الدلالى.

نتأمل الآيتين (١)، (٢): ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ، قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

الله تعالى ← مرجعية خارجية — إنا – ارسلنا (نا)

نوح عليه السلام ← مرجعية داخلية — قومه – أنذر (الهاء – أنت)
نوح عليه السلام ← سابقة — قومك – قال (الكاف – هو)
نوح عليه السلام ← إنى (الياء)

قوم نوح ← مرجعية داخلية — يأتيهم (هم)
قوم نوح ← سابقة — لكم (كم)

وإذا استعرضنا بقية السورة وجدناها تسير كلها على هذا النمط حتى نهاية السورة الكريمة.

فعدد الضمائر التى ترجع مرجعية خارجية إلى الله تعالى (٢٦) ضميراً كالتالى :

١، ٣، ٤، ٧، ١٠ ، ١١، ١٢، ١٤،١٦،١٧، ١٨،١٩، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٢٨

وعدد التى ترجع داخلياً إلى نوح عليه السلام (٢٦) ضميراً كذلك كالتالى :

١، ٢، ٣، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١. ٢١، ٢٦، ٢٨.

أما التى ترجع داخلياً إلى قومه فعددها (٤٤) ضميراً فى الآيات : ٦، ٧ ، ٨، ٩، ١٠، ١١،١٢، ١٣، ١٥، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧

فمفتاح السور يحمل مراجع هذه المحاور الثلاثة : الله، نوح، قوم نوح :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾/١

(١) (٢) (٣)

ثم تأتى الضمائر من بعد لتمثل شبكة من التماسكات بهذه الآية لتحقق فى النهاية التماسك الكلى للنص عبر هذه الكلمات الثلاث.

والضمائر فى السورة كلها لا تخرج عن هذه المحاور الثلاثة باستثناء موضعين :

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ﴾/٤ و ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا(١٥)وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ /١٦

ومع ذلك فمجىء الأجل مرتبط بالله، وكذا جعل القمر نوراً والشمس سراجاً كلاهما مرتبط بالله وقدرته. إذن الضمائر كلها لا تخرج عن هذه المحاور الثلاثة.

فالمسند إليه هنا ثلاثة؛ يسند إلى الأول الإرسال والتكليف بالدعوة وإلى الثانى السمع والطاعة وعرض الرسالة وإلى الثالث الرفض والسخرية.

فالتماسك الدلالى إذن واضح من خلال وحدة موضوع السورة، ومن خلال ارتباط دلالات الآيات بعضها مع البعض. والشكلى فى انتشار الضمائر فى الآيات وعدم استغنائها عنها.

وهناك تماسك يظهر من خلال الحوار نفسه بين هذه الأطراف الثلاثة :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾/١ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾/٢

فالثانية استجابة للرسالة :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا(٥)فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا﴾

وزيادة فى تأكيد رفض المشركين نجد الآية (٧) بها تسعة ضمائر تحيل إلى المشركين.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾/٧

فالعرض والرفض، وقال وقالوا، يمثل تماسكاً بين المتحدث والمخاطب. وهذا يطبع كل السور التى عرضت لمواقف الأنبياء وأصحاب الدعوات؛ أمر بالدعوة، وتلبية الأمر، والتبليغ، وتكذيب المشركين وهذا نوع من التكرار القصصى، والمناسبة بين السور. وهذا ما سوف نعرضه فى فصلى التكرار والمناسبة.

سـورة "الجـــن"

هذه السورة تعالج قضية التوحيد كذلك، لكنها تعالجها من منظور آخر، فالتوحيد هنا لم يكن على لسان البشر، بل باعتراف الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا(١)يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا(٢)﴾ .

ثم تأتى الآيات التالية متتابعة فى إظهار كلام الجن ومبررات إيمانهم. لذلك تكررت (إنا - أنا) و(نا) المتصلة بالأسماء والأفعال والحروف مثل قوله تعالى :

- ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ / ١
- ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾/٢
- ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾/ ٣
- ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾/٤
- ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾/٥

- ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾/٨
- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾/٩
- ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾/١٠
- ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾/١١
- ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ ١٢
- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ /١٣
- ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾/١٤
- ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ /١٩

مرجعية الضمائر هنا وعددها (٣٣) ضميراً ترجع إلى الجن المذكور فى السورة، وبناء عليه فهى مرجعية داخلية سابقة Anaphoric Endophoric Reference.

والإقرار بالوحدانية لله تعالى على لسان الجن، والذى اتضح من خلال الآيات السابقة. نجده كذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تحول الضمائر إلى مخاطبة الرسول عليه السلام :

- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ /٢.

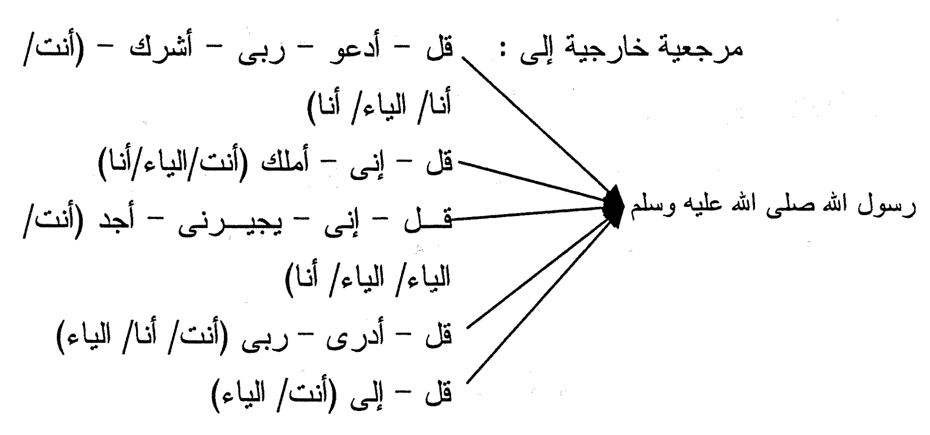
ثم يتصل الخطاب : - ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا﴾ /٢١

- ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾/٢٢
- ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾/٢٥

مع ملاحظة أن الخطاب من أول السورة كان لرسول الله عليه السلام :

- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾/١

ويمثل مرجعية هذه الضمائر الشكل التالى :



فالذى حدث من الجن؛ قولاً وفعلاً، هو ما أَوْحَى الله به إلى نبيه؛ فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يشاهد الجن ولم يسمع قولهم، ولكن أخبره الله بهذه الأحداث كلها. بمعنى أن السورة كلها حوار مع النبى صلى الله عليه وسلم حول مواقف الجن هذه. ولم يذكر لفظ النبى صراحة فى النص.

لذلك نلاحظ تحول الضمائر من مخاطبة الرسول عليه السلام إلى الضمائر التى تعود إلى الجن لتحكى ما حدث منهم، ثم تعود مرة أخرى إلى رسول الله عليه السلام. وهذا كله فى إطار إبراز الحقيقة الكبرى التى تهدف السورة إلى إجلائها وهى قضية الإقرار بالألوهية والوحدانية وذلك باعتراف الثقلين (الإنس والجن).

وهذا يبرز التماسك الدلالى فى السورة من خلال وحدة الهدف الذى تسعى إليه السورة.

وبما أن وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم هى الدعوة إلى الله؛ فلابد إذن من مدعوين، ولابد كذلك من المنكرين، وبناء عليه توجد ضمائر تعود إلى الكافرين، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾/١٦؛

"فقد أخرج مقاتل أن هذه نزلت فى كفار قريش حين منع المطر سبع سنين "(١). إذن تسير كالتالى :

مرجعية خارجية إلى

مشركى قريش ← استقاموا - أسقيناهم (الواو + هم)

وعلى الرغم من اختلاف محاور الضمائر إلى : (٢).

- الرسول صلى الله عليه وسلم { مرجعية خارجية}

- الجن [مرجعية داخلية] - المشركين [مرجعية خارجية]

فإنها جميعاً تسعى إلى تحقيق التماسك النصى للسورة، وحدث ذلك بعد تأكيد وحدتها الموضوعية، ومن ثم الدلالية.

أما التماسك الشكلى فهولا شك يظهر فى عدم استغناء هذه الآيات عن الضمائر. وإلا أصبحت الجمل متراصة دون رابط يربطها.

سـورة "المزمـل"

ويظهر التماسك النصى كذلك جلياً فى سورة مكية أخرى؛ سورة "المزمل"، فسياقها اللغوى والاجتماعى يؤكدان دَوَرَان السورة حول موضوع واحد؛ فيروى "عن جابر رضى الله عنه قال : اجتمعت قريش فى دار الندوة

(١) السيوطى : أسباب النزول، ص ٢٠٨ .

(٢) وكذلك توجد آية اختلف المفسرون فى مرجعية الضمير فيها : ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾/٢٨ ذكر ابن كثير أنه : "قد اختلف المفسرون فى الضمير فى قوله ﴿لِيَعْلَمَ﴾ إلى من يعود؟ فقال إنه عائد إلى النبى صلى الله عليه وسلم .... وقيل المراد ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم .... ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل ... ".
انظر: مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابونى، ٣/ ٥٦٠ - ٥٦١، دار الصابونى، د. ت ونميل إلى الرأى الأخير، ودليل ذلك الجمل المعطوفة عليها ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ فالذى يفعل هذا هو الله تعالى فقط.

فقالوا: سموا هذا الرجل - [يقصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم] - اسماً يصد الناس عنه، فقالوا : كاهن، قالوا : ليس بكاهن، قالوا : مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا : ساحر، قالوا ليس بساحر، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبى صلىالله عليه وسلم، فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال :

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾"(١).

فالسورة إذن أمرٌ بالإقلاع عن هذا ، والهم إلى القيام والصلاة وترتيل القرآن استعداداً لما سيعانيه فى طريق الدعوة.

وما دامت السورة تركز على تكليفه صلى الله على وسلم؛ فما دور الضمائر فى تحقيق تماسك هذا الموضوع؟

نلاحظ آيات السورة بالترتيب كما يلى :

- ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ /٢
- ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾/٣
- ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ /٤
- ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ / ٥
- ﴿إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾ / ٧
- ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾/٨

---

(١) السابق، ٣/ ٥٦٢ وهناك روايات أخرى لمناسبة نزول هذه السورة ذكرها صاحب "فى ظلال القرآن"منها" أن قريشاً اجتمعت فى دار الندوة تدبر كيدها للنبى ... وللدعوة التى جاءهم بها. فبلغ ذلك رسول الله، فاغتم له، والتف بثيابه وتزمل ونام مهموماً. فجاءه جبريل عليه السلام بشطر السورة الأول [١: ١٩] وتأخر شطرها الثانى عاماً كاملاً. حين قام رسول الله وطائفة من الذين معه، حتى ورمت أقدامهم، فنزل التخفيف فى الشطر الثانى بعد اثنى عشر شهراً ... أهـ الظلال، ٦/ ٣٧٤١ .

- ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ / ٩
- ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ / ١٠.
- ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ / ١١
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾/٢٠.

لم يجر ذكر صريح للنبى صلى الله عليه وسلم فى النص، ومن ثم فمرجعية هذه الضمائر كلها خارجية. ولكن السياق أوضح إلى من تعود الضمائر.

وبقية الضمائر تعود إلى المؤمنين، وإلى رسول الله ضمنياً إذ هو معهم (تحصوه - عليكم - فاقرءوا - منكم - يضربون - يبتغون - يقاتلون - فاقرءوا - وأقيموا - وآتوا - وأقرضوا - وما تقدموا - لأنفسكم - تجدوه - واستغفروا).

فالضمائر إذن تتجه فى اتجاه واحد، إذ يعود أغلبها إلىالنبى صلى الله عليه وسلم.

وهذا الاتجاه يتجه صوب "المزمل" وهى تعود إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ ، فهى المفتاح الذى تتشابك معه بقية الضمائر فى السورة، وهى تبعاً للسياق تمثل نواة السورة، أو جملتها الأساسية التى يدور حولها النص.

وعلى الرغم من مرور اثنى عشر شهراً بين شطرى السورة، فقد أدت الضمائر إلى تماسك الشطرين؛ فكلاهما يحمل ضمائر المخاطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والشطر الأول أمر بقيام الليل ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ والشطر الثانى استجابة لهذا الأمر

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ .

وهذا يحقق تماسكاً دلالياً جلياً بين عناصر السورة كلها، على الرغم من التباعد الزمنى بين طرفيها.

وفى الواقع توجد كذلك نماذج للتماسك بين عدة آيات متجاورة داخل السورة، ثم يحدث الالتفات بتغير مجرى الضمائر إلى موضوع آخر، لكنها فى النهاية تسير فى نفس الاتجاه؛ فالآيات (٢، ٣، ٤) بها (نصفه – منه – عليه) تعود إلى الليل مرجعية سابقة داخلية، ومن ثم يوجد تماسك دلالى شكلى بين هذه الآيات المتجاورة.

وكذا استخدام ضمير الإشارة (هذه) للربط بين عدة آيات كالتالى :

- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾/١٥
- ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾/١٦
- ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ /١٧
- ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ /٨٨

ثم يربط هذه الآيات الأربع كلها بجعلها تذكرة لمن شاء العودة إلى الله:

- ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾/١٩

فعاقبة فرعون بعد ما كذب الرسول عاقبة سيئة، لهذا أرادها الله تذكرة لنا حتى لا نفكر فى المعصية، لأن هناك يوماً أشد يجعل الولدان شيباً.

وهذا تماسك دلالى رائع بين الآيات الخمس. وهى ترتبط كذلك بقضية السورة الأساسية وهى القيام بالدعوة لله تعالى. وأن ما يحدث لرسول الله حدث للرسل من قبله.

* وننتقل إلى بعض السور القصار محاولين رؤية قدر تماسكها النصى وكيفية تحليلها؛ ولنبدأ بسورة "**الضحى**" ومن المعروف أنها نزلت بعد ما شاع

فى مكة أن رب محمد قد قلاه وأن الوحى لن ينزل عليه، فنزلت السورة تسريه له صلى الله عليه وسلم، وتدفع عنه الحزن والسأم، وكى ترد كيد المشركين واستهزاءهم وتندرهم بهذا الأمر[1].

ولهذا وجدنا آيات السورة كلها، بعد آيتى القسم، تتوجه إلى الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كالتالى:

- ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾
- ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾
- ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾/٥
- ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾/٦
- ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾/٧
- ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾/٨
- ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾/٩
- ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾/١٠.
- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾/١١

فهذه سبعة عشر ضميراً موزعة على تسع آيات ترجع كلها إلى الرسول عليه السلام، بما يوحى بتماسك هذه الآيات فى وحدة موضوعها وهو التسلية له، وتذكيره بآلاء الله الكثيرة عليه، وما يجب عليه ليس الحزن على ما يقال له

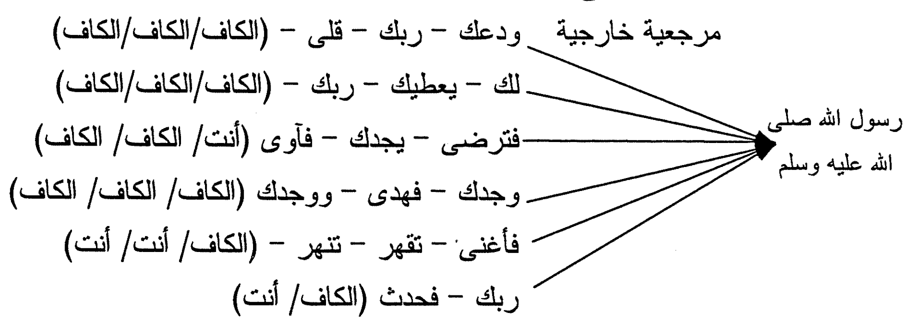
---

(١) انظر فى أسباب نزول هذه السورة :
أ - أسباب النزول للواحدى، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .
ب- أسباب النزول للسيوطى، ص ٢١٦ - ٢١٧ .
ج- مختصر تفسير ابن كثير، ٣/ ٦٤٩ .
د - فى ظلال القرآن، ٦/ ٣٩٢٥ .

من الكافرين، بل عدم رد اليتيم وعدم نهر السائل، وأن يحدث بنعم الله عليه، ومنها نعمة الهدى إلى الإسلام، فعليه أن يحدث بها ويدعو إليه.

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يجر له ذكر صريح فى السورة، وبناء عليه

فمرجعية الضمائر كلها خارجية، اعتمد فى معرفة مرجعيتها على السياقين اللغوى والاجتماعى.



ويتابع الله تعالى عنايته برسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه عليه وعطفه والبشرى باليسر والفرح، وذلك فى السورة التالية لسورة الضحى. مباشرة فى الترتيب المصحفى (الشرح).

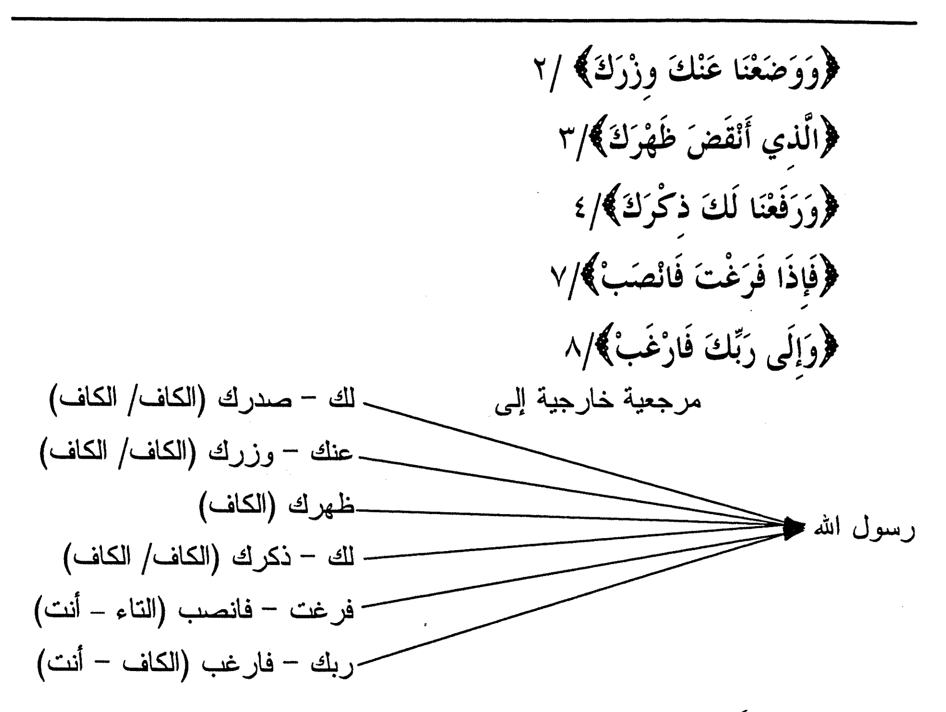
وكذلك مناسبة السورتين؛ فالأولى معايرة بتخلى الله عن رسوله صلى الله عليه وسلم والثانية معايرة المشركين للمسلمين بالفقر "فقد أخرج ابن جرير عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبشروا أتاكم اليسر لن يغلب عسر يسرين"(١). فالمعايرة إذن كانت السبب الرئيسى فى نزول السورتين. ولذلك فالخطاب.

موجه هنا كذلك إلى الرسول عليه السلام:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ /١

(١) السيوطى : أسباب النزول، ص ٢١٧ .





فهى حقاً تكملة للسابقة؛ حيث إنها عرض لنعم الله على نبيه، وكلها نعم تستحق منه صلى الله عليه وسلم أن ينسى هذه المعايرة التى وجهت إليه وإلى المسلمين.

والملاحظ كذلك التماسك الشكلى فى وحدة المخاطب، ووجود الضمائر الرابطة بين آيات السورة. كما يوجد التماسك الدلالى فى وحدة السورة المعنوية؛ إذ تعالج موضوعاً واحداً، وهو التسرية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

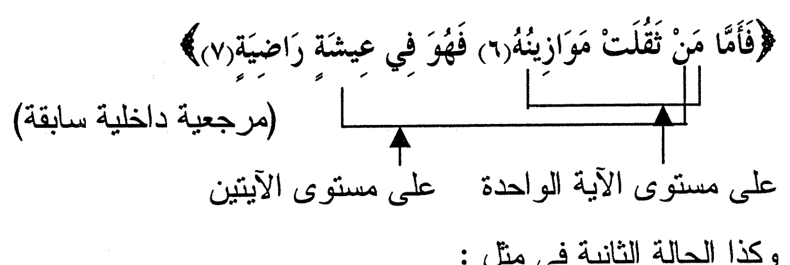
وأساس النص هنا، ليس كلمة واحدة، وليس جملة، بل هو الفكرة التى تدور حولها السورة، وهى التسرية عن رسول الله، وواضح أن التسرية هنا كلها معنوية لا محسوسة.

* **أما سورة "القارعة"** فالحديث فيها كله عن مشاهد القيامة، أو القارعة؛ موقف الناس، موقف الجبال، موقف من ثقلت موازينه، موقف من خفت موازينه.

غير أن موقف الضمائر هنا يتغير عنه فى السور السابقة؛ إذ وجدنا فى السابقة اتحاد أغلب الضمائر، إن لم يكن كلها، فى العودة إلى مرجع واحد. بينما هنا، على الرغم من قلتها، فإنها توزعت فى اتجاهات متعددة، ومع ذلك هناك تماسك دلالى قائم فى السورة، وهذا من مميزات النص القرآنى، فالسورة كلها تتحدث عن موضوع واحد، وهو القارعة وما تستدعيه من مواقف فى هذا اليوم.

أما الضمائر فهناك اثنان يعودان إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى الآيتين ٣، ١. وهناك ستة ضمائر تعود إلى الناس فى ٦، ٧، ٩،٨. وضمير واحد يعود إلى النار.

ووجود هذه الضمائر منها ما يحقق التماسك عن طريق المرجعية، بين آيتين متجاورتين، ومنها ما هو بين ثلاثة؛ فالأولى فى قوله تعالى :



وكذا الحالة الثانية فى مثل :

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨)فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(٩)وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(١٠)نَارٌ حَامِيَةٌ(١١)﴾

(أ) ترابط داخلى على مستوى الآية الواحدة (مرجعية داخلية سابقة) (٨)

(ب) ترابط داخلى على مستوى الآيتين (مرجعية داخلية سابقة) ٨، ٩

(ج) ترابط داخلى على مستوى الآيتين (مرجعية داخلية سابقة) ٩، ١٠

(د) ترابط داخلى على مستوى ثلاث آيات (مرجعية داخلية سابقة) ٩، ١٠، ١١

وبما أن ٨ تتماسك مع ٩، و٩ تتماسك مع ١٠، و٩ تتماسك مع ١١.

إذن (٨، ٩، ١٠ ، ١١) متماسكات معاً.

ونلاحظ أن ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١ تفصيل لكلمة (الناس) فى الآية الرابعة ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾، والناس يوم القيامة على هذين الصنفين.

ومفتاح السورة الذى تدور حوله السورة كلها هو كلمة (القارعة) إذ كل ما فيها يرتبط دلالة بهذه الكلمة.

وموقف الضمائر فى سورة "**التكاثر**" يختلف عن "القارعة"؛ فالضمائر هنا نلاحظ فى مرجعيتها إلى مرجع واحد، والسؤال إلى من ترجع هذه الضمائر؟

وبما أن هناك غموضاً فى مرجعية الضمائر، فمن الواجب الرجوع إلى البيئة المحيطة بالنص ونزوله كما أكد علماء النص ذلك؛ "فقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن بريدة قال: نزلت فى قبيلتين من الأنصار بنى حارثة، وبنى الحارث تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان وفلان، وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان ومثل فلان، يشيرون إلى القبر، وتقول الأخرى مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾(١). وقد ذكر الواحدى" أنها نزلت فى حيين من قريش بنى بعد مناف وبنى سهم ..."(٢).

بدون السياق نجد الضمائر كلها تفيد العموم؛ فلا نعرف هل للناس جميعاً أم لفئة من الناس ؟ لكن السياق خصص هذه الضمائر بهاتين القبيلتين أو هذين الحيين، ومن ثم جاءت الضمائر كالتالى:

---

(١) انظر : أ – الواحدى : أسباب النزول، ص ٣٤١ – ٣٤٢
ب – السيوطى : أسباب النزول، ص ٢١٩ .

وتوجد رواية أخرى: "أخرج ابن جرير عن على قال : كنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فى عذاب القبر" السيوطى، ص ٢١٩ .

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾/١

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾/٢

﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾/٣

﴿ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾/٤

﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾/٥

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾/ ٦

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾/٧

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾/٨

وتلك مرجعية خارجية؛ لأنه لم يجر ذكر لهاتين القبيلتين فى النص، وكذا توجد مرجعية داخلية بين الآيتين (٦،٧) بين الكلمتين (الجحيم) و(لترونها) فـــ (ها) تعود سابقة إلى (الجحيم).

فالآيات تجمعها وحدة معنوية متمثلة فى العرض لما حدث بين القبيلتين من تفاخر فى الدنيا ثم إرشادهم إلى أن الأهم هو ما سوف يأتي فى الآخرة لا فى الدنيا، وهذا الإطار الدلالى الواحد يحقق بالطبع تماسكاً دلالياً. فاللهو بالتكاثر إذن هو مفتاح النص، وما دام هذا اللهو غير مهم عند الله، فقد ألحق به الأهم وهو يوم القيامة والجحيم.

فالضمائر هنا تماسكت لتحقيق مقصدية السورة؛ فكلها تتجه من ناحية الشكل إلى مخاطب واحد، ومن ناحية الدلالة حملت الآيات معنى واحداً قصدت إليه السورة.

وتلك المقصدية يمكن أن تطبق فى مرجعيات الضمائر فى النصوص كلها؛ فكل نص له مقصدية أو هدف، والضمائر تسهم فى تحقيق هذه المقصدية من خلال الرجوع إلى السابق أو اللاحق فى داخل النص أو خارجه. هذا

إضافة إلى المقصدية الأساسية للسور المكية بصفة عامة، والتى تعرضنا لها كثيراً فيما سبق من الرغبة فى إقرار حقيقة العقيدة.

* **أما سورة "الفيل"** فهى تناقش قضية أخرى من القضايا المتصلة بإقرار حقيقة العقيدة، والتى تقرها كل سورة بكيفية قد تتفق مع غيرها وقد تختلف؛ فالسورة السابقة أقرت هذه الحقيقة عن طريق التذكير بالموت وبالآخرة وأنها خير من الدنيا وزينتها وأن المرجع إلى الله. أما هنا فتقر السورة هذه الحقيقة فى دفاع الله سبحانه وتعالى عن دينه وتلقين أعداء الله فى كل زمان درساً لن ينسى، وتمثل هذا الدفاع هنا بردع أبرهة وجيشه عن بيت الله الحرام عندما أرادوا الاعتداء عليه، وذكره سبحانه لنا فى قرآن يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

بإيجاز شديد تشير هذه السورة إلى ذلك الحادث الهائل، فى بضعة جمل، ومفتاح السورة، أساسها، فى الجملة الأولى؛ **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾** وعليها اعتمد النص كله، وتماسك معها بروابط، نأخذ منها الضمائر؛ الضمائر التالية كلها تحيل إلى أصحاب الفيل كالتالى :

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾/٢

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾/٣

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾/٤

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾/٥

مرجعية داخلية سابقة

كيدهم (هم)
عليهم (هم)
ترميهم (هم)
فجعلهم (هم)

← أصحاب الفيل

فالتماسك الدلالى يبرز فى تفصيل ما حدث لأصحاب الفيل رداً على كيدهم، ودفاعاً عن حرمات الله، وهذا من أمور العقيدة. والتماسك الشكلى فى وجود هذه الضمائر التى تربط هذه الآيات بالآية الأولى نواة النص. ويظهر نمط آخر فى التحليل النصى فى الجمل التفسيرية لتلك النواة؛ فالجمل التالية للأولى كلها تفسيرية. والتفسير نمط مهم فى التماسك.

وبالطبع هذه الجمل القصار لا تذكر إلا الخطوط العريضة فى الحدث، وعلى المتلقى للنص أن يكمل بتفاصيل الحادث كله، وذلك عن طريق السياق المحيط بالنص، وهذه أمور تتعلق بالفصل الخاص بالحذف إن شاء الله فيما بعد. وعلى ذلك اعتمد التحليل النصى هنا على السياق والمتلقى ومفتاح النص والتماسك الشكلى والدلالى.

ويواصل الله تبارك وتعالى عرض منه على أهل مكة؛ فهناك مَنَّ عليهم بالدفاع عن البيت الحرام، ومن ثَمَّ الدفاع عنهم أنفسهم. وفى هذه السورة "قريش" كذلك يعرض لبعض المنح الأخرى عليهم، منها رحلتا الشتاء والصيف، والتوسيع فى الرزق، والأمن فى حياتهم.

وتظهر نواة النص أولاً فى تسمية السورة "قريش"، وكذلك فى الآية الأولى ذكر لهم صريح: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ هل معنى هذا أن النص كله يدور حولهم؟ هذا ما سنراه فى مرجعية الضمائر التالية :

﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾/١

﴿إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ /٢

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ /٣

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ /٤

(هم)	إيلافهم	مرجعية داخلية سابقة	
(الواو)	فليعبدوا	←	قريش
أطعمهم/ آمنهم (هم – هم)			

نلاحظ أن عدد الضمائر يقل كلما قل عدد الآيات، وتزداد كلما ازداد عدد الآيات؛ فهنا السورة أربع آيات، وبها ستة ضمائر، وسورة الأنعام مثلاً أكثر من ألف وثلاث مائة ضمير فى مائة وخمس وستين آية. وهذا أمر طبيعى؛ فكلما طال النص، احتاج إلى روابط تربط بين عناصره الكثيرة التى تبدو متباعدة متنافرة إذا خلت من هذه الروابط. بينما فى حالة قصر النص، فإن الأمر يختلف من حيث الكم والكيف.

ومرجعية الضمائر بصفة عامة داخلية سابقة لذكر المرجوع إليه، ومع ذلك توجد داخل السورة مرجعية داخلية لاحقة Cataphoric reference بين ضمير الإشارة (هذا) و(البيت) فى قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾. وكذلك مرجعية سابقة بين (رب) فى الآية الثالثة، و (الذى) فى الآية الرابعة. وفى هذا ربط بين الآيتين غير الربط العام فى السورة.

والتماسك الدلالى واضح فى وحدة موضوع السورة، وفى الإحالة إلى مرجوع واحد. بينما التماسك الشكلى يوجد فى اتحاد الضمائر فى المرجعية، وعدم استغناء الآيات عنها.

وإذا كانت سورتا الفيل وقريش خالصتين لقريش، وإذا كانت سورتا الضحى والشرح/ الانشراح خالصتين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن سورة "الكوثر" من الصنف الثانى الخالص لرسول الله، وتتفق معهما كذلك فى أنها تسريه عنه من معايرته بأنه صلى الله عليه وسلم أبتر، لأنه لا يعيش له ابن ذكر، وكل أولاده إناث. فأراد الله تعالى أن يعلمه أنه سوف يبدله خيراً من هذا، بنهر فى الجنة يسمى الكوثر[1].

(١) الواحدى : أسباب النزول، ص ٣٤٣ .

وهذا يمثل وحدة دلالية متماسكة للسورة، إذ مقصدية السورة واحدة : التسرية عنه، مع أمره بالصلاة والنحر؛ بمعنى آخر : لا تلتفت إلى ما يقولون، فسوف أبدلك خيراً منه فى الجنة، واعلم أن هذا الأمر هو منى لحكمة أريدها، ودع هذا واشغل نفس بالعبادة.

والمخاطبة لرسول الله، فى الغالب، بضمير المخاطب لا الغائب، ونظن أن فى هذا تعظيماً لشأنه صلى الله عليه وسلم.

ولفظ رسول الله نفسه لم يذكر صراحة فى النص، ومن ثم فمرجعية الضمائر هنا مرجعية خارجية كالتالى :

مرجعية خارجية

أعطيناك (الكاف)
لربـــك (الكاف)
انحـــر (أنت)
شانئـــك (الكاف)

← رسول الله

ونظراً لأن المَنَّ من الله تعالى، كان من الطبيعى أن يكون فى السور ضمائر تحيل إليه سبحانه وتعالى، وظهر هذا من أول كلمة فى السورة ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ /١ ثم ذكر لفظ الجلالة (ربك) فى الآية الثانية، ثم تتجه هذه الضمائر، أو هذان الضميران بالإحالة الخارجية إلى الله تعالى :

مرجعية خارجية

إنـــــا (نا)
اعطيناك (نا)

← الله تعالى

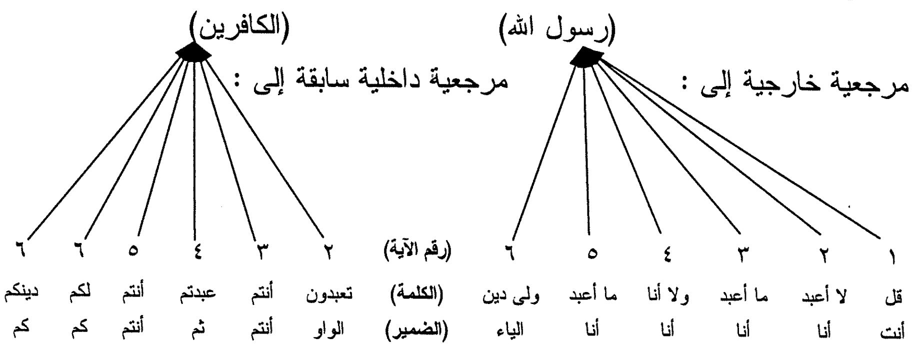
* **وسورة "الكافـــــرون"** نزلت فى مساومة الكافرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ "فقد نزلت فى رهط من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك؛ تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذى بين أيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك! فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره"(١).

---

(١) السابق، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

فهذه السورة إذن قطعت على الكافرين محاولاتهم الرديئة التى اتضحت من خلال السياق، ونزلت قاطعة لهذا الأمر بحزم مؤكد أكثر من مرة ليشيع اليأس فى قلوبهم، وتقرير حقيقة التوحيد لله وحده لا شريك له. ولا يخفى أن إدراك المتلقى لهذا السياق يبرز الوحدة الدلالية أوالتماسك الدلالى لنص السورة ويبرز حركة الضمائر أو أهميتها فى التحليل النصى.

وكون هذه السورة عبارة عن مساومة، فهى بين أكثر من طرف، وبالطبع كان لهذا أثره فى توزيع ضمائر السورة؛ فقد انقسمت آيات السورة كلها، كل آية إلى شطرين الأول خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم والثانى بالكافرين كالتالى:



والتماسك الدلالى واضح هنا فى مقصدية السورة؛ الرد على هؤلاء الكافرين فى مساوماتهم. وقد أسهمت الضمائر فى إبراز هذه المساومات، والرد عليها؛ فقد أوضحت الضمائر أن هناك طرفين فى السورة.

ونواة النص هنا فى الآية الأولى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ثم أتت الآيات الخمس الأخيرة تفصيلاً لهذا القول؛ فكلها أقوال عن النبى صلى الله عليه وسلم وسلم.

وإذا كانت السورة السابقة محاجة بين رهط من الكافرين ورسول الله، فإن سورة "المسد" تعالج أمراً شبيهاً، وهو الرد على "أبى لهب" وزوجه فيما فعلاه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً؛ فقال له أبو لهب عندما

جهر رسول الله بدعوته: "تبا لك ألهذا جمعتنا"(١). وكذا "أم جميل" كانت تحمل الشوك وتضعه فى طريق الحبيب المصطفى، "وقيل إن حمل الحطب كناية، عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة"(٢).

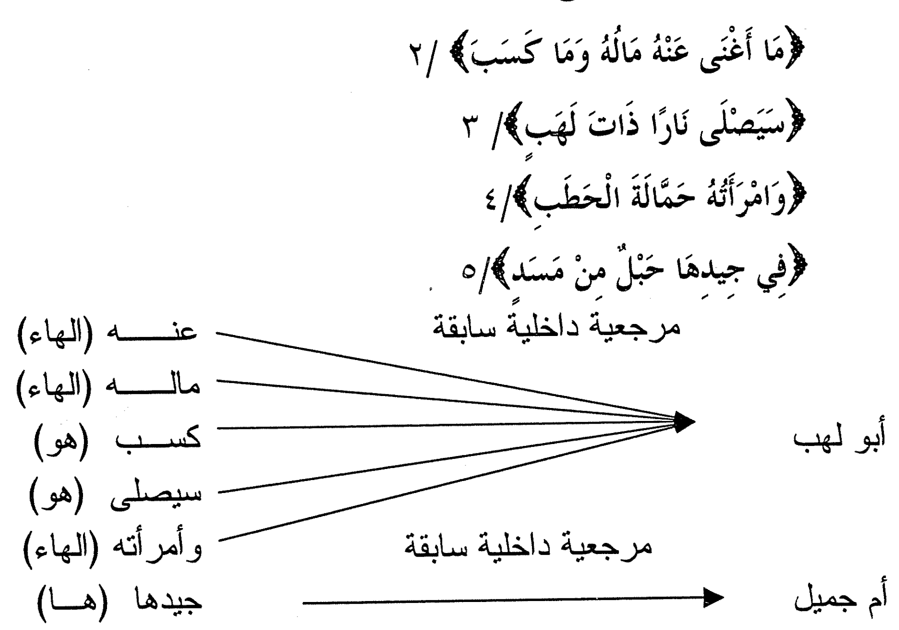
ولهذا وجدنا الضمائر فى السورة تترجم هذا فى صورة إحالات مرتبطة بالآيات وتحيل إليهما كالتالى :

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ /٢

﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾/ ٣

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾/٤

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾/٥



فالسورة بعد سب الله تعالى لأبى لهب وتوكيد السب، توضح ما هو أشد، وهو النار ذات اللهب له ولزوجه يوم القيامة. وهى فى ذلك - أى السورة - مرتبطة بالقضية الأساسية للقرآن المكى، قضية العقيدة، ومن متطلباتها الإيمان باليوم الآخر وما فيه من نعيم للمؤمنين، ونار ذات لهب لأبى لهب وزوجه وأمثالهما. وأن جزاء أعداء الله النار. والحوار بين النص والمتلقى يظهر هنا؛ فبعد سماع الآية الأولى نجد المتلقى يطرح على النص سؤالاً :

---

(١) الواحدى : السابق، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٢) فى ظلال القرآن، ٦/ ٤٠٠٠.

لماذا تبت يدا أبى لهب وتب؟ فيأتى السياق ليوضح ما كان يفعله هو وزوجه مع رسول الله وفى هذا نمط من أنماط التحليل النصى يظهر فى التواصل بين النص والمتلقى ودور السياق فى الإجابة عن الأسئلة التى يطرحها المتلقى على النص، فالنص عبارة عن حوار دائم بين المتلقى وبينه.

وترتبط سورة "**الإخـــــلاص**" بهذه القضية ارتباطاً واضحاً فى إقرار الألوهية والوحدانية لله تعالى، كما كانت سورة "الكافرون" إقراراً هى الأخرى لحقيقة العبودية لله تعالى لا شريك له.

وانعكس هدف السورة هنا ومقصديتها على ضمائرها :

- ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ /١
- ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ / ٣
- ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾/٤

وهذه السورة فى مجملها عبارة عن إجابة عن سؤال لبعض الناس من اليهود عندما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صف لنا ربك ..."[1]. فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

لهذا وجدنا مرجعية الضمائر – إضافة إلى تكرار لفظ الجلالة فى الآيتين ١،٢ – كلها ترجع إلى الله تعالى :

مرجعية لاحقة داخلية إلى :

هو (ضمير شأن) ← الله تعالى

مرجعية سابقة داخلية :

لم يلد (هو) → الله تعالى

لم يولد (هو) → الله تعالى

لـــه (الهاء) → الله تعالى

مرجعية خارجية إلى :

قـــل (أنت) → رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الواحدى : السابق، ٣٤٥ – ٣٤٦ .

فالتماسك الدلالى يظهر فى وحدة مقصدية السورة هنا؛ إقرار حقيقة التوحيد والألوهية لله تعالى. والتماسك الشكلى فى دور الضمائر الظاهر فى ربط هذه الآيات وتوجيهها إلى مراجع متعددة كلها تصب فى إطار الموضوع الأساسى.

وجملة الأساس؛ أساس النص، هى مفتاح السورة؛ الجملة الأولى التى ارتبطت بها بقية الآيات عن طريق مرجعية الضمائر والتكرار والعطف والدلالة.

أما "المعوذتـــــان" فوسائل التماسك فيهما متنوعة سوف نعرضها فى مكانها من الكتاب إن شاء الله.

وما يخص الضمائر فيهما مرتبط بالآية الأولى لكل منهما

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾/١ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

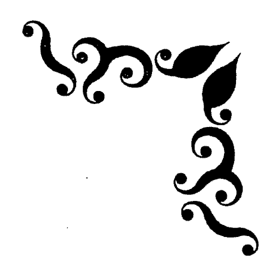
فيوجد ضميران فى كل سورة يرجعان خارجياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكذا قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ /٤

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾/٥

(فالذى) يعود إلى (الوسواس الخناس) فى الآية الرابعة، وكذلك الضمير فى (يوسوس) يعود إلى (الذى) فى الآية نفسها مرجعية داخلية سابقة.

نخرج من هذا الفصل إلى تأكيد وظيفة الضمائر فى تحقيق التماسك النصى، وكيف أسهمت فى إماطة اللثام عن كثير من جنبات النص.



الفصل الرابع

وينقسم إلـــى:

❁ **المبحـــث الأول:** أهمية التوابع عند القدماء.

❁ **المبحث الثانـــى:** أهمية التوابع عند النصيين.

❁ **المـبحث الـثالث:** التحليل النصى للسور المكية من خلال التوابع.





يناقش الكتاب الآن مرحلة من المراحل النصية التى تستعرض وسائل التماسك النصى ودورها فى التحليل النصى، ألا وهى التوابع، وقد اكتفى علماء النص منها بالعطف والإبدال غير أن الباحث وجد أن النعت والتوكيد على الدرجة نفسها من الأهمية فى تحقيق التماسك النصى كما سنعرض فى هذا الفصل.

ويأتى دور التوابع فى التماسك النصى وتحليل النص من مصطلح التابع نفسه؛ إذ التابع يتبع متبوعه فى بعض الأمور، ومن ثم يرتبط به لدرجة جعلت عدَّ بعض التوابع مع متبوعها كالكلمة الواحدة. وكذلك يرتبط التابع بمتبوعه من خلال المشاركة معه فى الوقوع تحت تأثير عامل واحد؛ فالعامل فى المتبوع هو العامل فى التابع. وعلى سبيل المثال نلاحظ أن النعت يتبع منعوته فى إعرابه، وتعريفه وتنكيره، وتذكيره وتأنيثه، وإفراده وتثنيته وجمعه. ومن ثم يمثل التابع امتداداً نصياً للمتبوع؛ إذ نلاحظ أن صدى المتبوع يظهر فى التابع كذلك.

وحال مرجعية الضمائر- كما عُرِضَ فيما سبق - يظهر تعدى المرجعية من الجملة الواحدة إلى عدد كبير من الجمل المكونة للنص، لتربط الضمائر بينها جميعاً فى عقد واحد يسمى النص. لكن التوابع تسير- فى الغالب- أو تتعامل مع مستوى العلاقة بين المفردات داخل الجملة، وقد يتعداها إلى العلاقة بين جملتين فأكثر. فهل يتعدى دور التوابع إلى عدد كبير من الجمل؟ هذا ما سوف نحاول إثباته.

ولقد توفرت التوابع فى النص القرآنى بصورة كبيرة، على وجه الخصوص العطف؛ إذ لا نكاد نجد آية خالية منه كما فى الجداول.

المبحث الأول

أهمية التوابع عند القدماء



إن إشارات علمائنا المتعلقة بمرجعية الضمير تشابهت فى عدة أمور مع ما توصل إليه علماء النص. غير أن إشاراتهم هنا قد اقتصرت، فى الغالب، على ذكر التابع ومعناه الاصطلاحى، وأدوات كل تابع، وشروط عمل بعض التوابع، والمعانى المتعددة لكل أداة، وجواز حذف الأداة من عدمه. ومع ذلك وجدت إشارات خفيفة توضح وظيفة التوابع فى الربط بين التابع ومتبوعه.

من أبرز الأبواب التى تسهم فى إبراز الفكر العربى المتعلق بالتماسك من خلال التوابع باب الفصل والوصل؛ متى تتصل الكلمتان أو العبارتان أو الجملتان؟ ومتى لا يجوز هذا الاتصال أو الانفصال؟. وهو باب وجه إليه الاهتمام اللغويون والبلاغيون والمفسرون.

والعطف بصفته واحداً من التوابع، بل أكثرها وروداً فى القرآن الكريم، قد نال حظاً كبيراً من الدراسة؛ فلا ترى كتاباً من كتب النحو العربى، قديماً وحديثاً، خالياً من الحديث عنه، وهذا يدفعنا إلى عدم التكرير، وإلى انتقاء ما يتناسب مع موضوع الكتاب فقط.

ولم يكن حظ العطف من الدراسة مرتبطاً بإفراز العقل البشرى العربى وحده، بل نال العطف حظه من علماء النص كذلك.

أما القدماء فقد ربطوا العطف بقضية الفصل والوصل، وعرضوا القضية على ثلاثة محاور:

١- **كمال الاتصال:** وهذا لا يجوز العطف فيه.

٢- **كمال الانقطاع:** مثل سابقة لا يجوز فيه العطف.

٣- **التوسط بينهما:** بمعنى وجود جهة جامعة تجيز العطف، وهذا الحالة الوحيدة التى أجازوا فيها العطف.

فينقل الزركشى (٧٩٤)هـ عن البيانيين قولهم: "للجملة ثلاثة أحوال:

فالأول: أن يكون ما قبلها بمنزلة الصفة من الموصوف، والتأكيد من المؤكد، فلا يدخلها عطف لشدة الامتزاج ... كقوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ لقمان/٧

الثانى: أن يغاير ما قبلها، وليس بينهما نوع ارتباط بوجه، فلا عطف أيضاً، إذ شرط العطف المشاكلة؛ وهو مفقود، وذلك قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ البقرة/٥/٦ بعد قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الثالث: أن يغاير ما قبلها؛ لكن بينهما نوع ارتباط، وهذه هى التى يتوسطها العاطف؛ كقوله:

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ البقرة/٥ "(١).

فالأول: هو كمال الاتصال؛ فلا يعقل أن يعطف الشىء على نفسه، بينما الثانى عكسه؛ كمال الانقطاع، فلا توجد علاقة تبيح الربط بأى وجه من الوجوه، أما الثالث فهو الوجه الذى يباح فيه العطف إذ يوجد نوع ارتباط، وهو وجود مشاكلة تبيح الربط بين المتعاطفين، وذلك مثل التضاد "كمناسبة الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة. . . "(٢).

---

(١) الزركشى: البرهان، ٤/١٠٤: ١٠٧ .

(٢) الزركشى: السابق، ١/٤٠ .

انظر: منير سلطان: الفصل والوصل فى القرآن الكريم، دار المعارف، مصر، ١٩٨٣م.

حيث عرض فيه للتعريف والأدوات والأهداف وذلك من خلال سابقى عبد القاهر ولاحقيه من البلاغيين وكانت نظراته كلها تسير فى اتجاهين تاريخى وبلاغى.

ويؤكد الجرجانى(٤٧١هـ) أننا "لا نقول: زيد قائم وعمرو قاعد، حتى يكون عمرو بسبب من زيد، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حال الأول عناه أن يعرف حال الثانى. يدلك على ذلك أنك إن جئت فعطفت على الأول شيئاً ليس منه بسبب ولا هو مما يذكر بذكره ويتصل حديثه بحديثه لم يستقر، فلو قلت: خرجت اليوم من دارى. ثم قلت: وأحسن الذى يقول بيت كذا. قلت ما يضحك منه ... وجملة الأمر أنها لا تجئ حتى يكون المعنى لفقاً لمعنى فى الأخرى ومضاماً له، مثل زيد وعمرو إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكى الأحوال على الجملة بأن كانت الحال التى يكون أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مضمومة فى النفس إلى الحال التى عليها الآخر من غير شك" عليها ... والمعانى فى ذلك كالأشخاص؛ فإنما قلت مثلاً: العلم حسن والجهل قبيح لأن كون العلم حسناً مضموم فى العقول إلى كون الجهل قبيحاً"(١).

فشرط العطف إذن وجود سبب أو علاقة مشتركة بين المعطوف والمعطوف عليه. ولذا استخدم مصطلحات الإشراك والتضام والتعلق والمشاكلة والمناسبة، وهى تقترب من مصطلح التماسك.

وعلى الرغم من كون أداة العطف شكلية تابعة لأبواب نحوية، فالعلاقة بين المعطوف والمعطوف عليه دلالية؛ فالتماسك إذن شكلى الأداة دلالى المضمون والمعنى. لذلك لا تكتسب أداة العطف معناها العطفى إلا من خلال وقوعها فى تركيب العطف.

فالعاطف إذن يربط بين معانى الكلمات المتجاورة، وكذلك الجمل المتجاورة، ويكون حسناً ذلك الربط إذا كانت الكلمات "متتاليات معطوفات

(١) الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص ٢٤٢- ٢٤٣ وانظر ص ٢٤٤ حيث تحدث فيها عن كمال الاتصال. وقد تحدث أيضاً عن العطف بين جملة وجملة والعطف بين جمل متعددة وبين مجموعة جمل ومجموعة جمل أخرى، انظر ص٢٢٥ .

متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً بحيث إذا أفردت كل جملة منه قامت بنفسها واستقل معناها بلفظها، ومنه قوله تعالى:

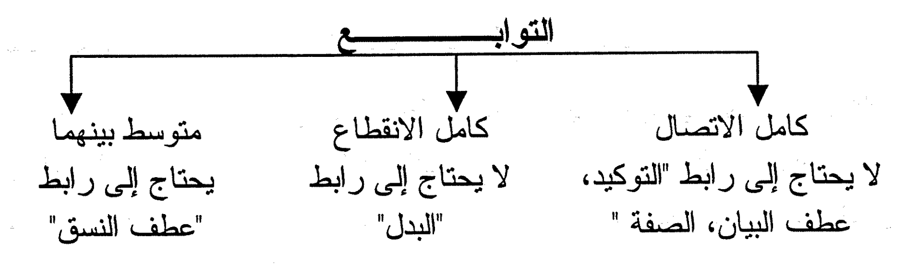
﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ هود ٤٤

فإن جملة معطوف بعضها على بعض بواو النسق"(١).

فالعطف يؤدى إلى الإشراك "واستقلال الكلام ليدل على معناه ... (٢).

فكمال الاتصال وكمال الانقطاع يتصل بالتوابع؛ "فالتابع: إما كامل الاتصال بمتبوعه، فينزل منه منزلة جزئه فلا يحتاج إلى رابط، وهو التوكيد وعطف البيان والصفة. وإما كامل الانقطاع عنه، فينزل منزلة ما لا علاقة له مع ما قبله، فلا يحتاج -أيضاً- إلى رابط، وهو البدل؛ لأنه فى نية الإضراب عن الأول، واستئناف الحكم للثانى. وإما متوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع، فيحتاج إلى الرابط، وهو المعطوف عطف النسق"(٣).

لهذا يمكن تمثيل هذه العلاقات كالتالى:



(١) السيوطى: الاتقان، ٢/٩٢ .
(٢) انظر: أ – أبو حيان: البحر المحيط، ٢/ ٣٠١ .
ب- محمد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ق٣ م٤، ص٣١ .
(٣) ابن الناظم: شرح ألفية ابن مالك، تحقيق د. عبد الحميد السيد، دار الجيل، بيروت، د. ت، ص ٥١٩ .

الرابط المقصود فى هذا النص هو العطف. لأن التوكيد المعنوى والصف والبدل يوجد فيهم روابط مثل الضمائر، مثل قولك: جاء الطالب نفسه، جاء رجل يسير على قدميه، رأيت محمداً وجهه. مع العلم بأن البدن ليس كله على نية الإدراب.

أما وظيفة العطف فهى وصل الكلام بعضه ببعض، والإشراك بين المعطوف والمعطوف عليه[١]. فهى - أى أدوات العطف - "علامات على أنواع العلاقات القائمة بين الجمل، وبها تتماسك الجمل، وتبين مفاصل النظام الذى يقوم عليه النص"[٢]. وكذلك "الغرض من عطف الجمل ربط بعضها ببعض واتصالها والإيذان بأن المتكلم لم يرد قطع الجملة الثانية من الأولى والأخذ فى جملة ليست من الأولى فى شىء"[٣].

ونلاحظ أن ابن يعيش ذكر العطف بين الجمل، ومن ثم كانت نظرته أكبر من النظر إلى الجملة الواحدة بصفتها الوحدة الكبرى، فذكر العلاقة بين أكثر من جملة ليقترب بذلك من تحليل النص.

وظهرت هذه الحاسة النصية كذلك عند السيوطى عندما نقل عن فخر الدين قوله "إن أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط. وقال ابن العربى فى سراج المريدين: ارتباط أى القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعانى منتظمة المبانى علم لم يتعرض له إلا عالم واحد ... وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: المناسبة علم حسن. لكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ... "[٤].

---

(١) أنظر: أ - سيبويه: الكتاب، ١/٤٣٧- ٤٣٨ .
ب- ابن جنى: الخصائص، ٢/ ١٩٨، تحقيق: محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٦م
ج- ابن الناظم: شرح الألفية، ص ٥١٩ - ٥٢٠ إذ يقول عن (أم) المتصلة: "هى التى ما قبلها وما بعدها لا يستغنى بأحدهما عن الآخر ... " وذلك لقوة التماسك بينهما.
د - الزركشى: البرهان، ٤/ ١٠٢.

(٢) أ - الأزهر الزناد: نسيج النص، ص ٣٧ ب- تحدث عن هذه الوظيفة، من قبل، مع بيان دور العطف فى تلاحم الجمل، ابن أبى الإصبع المصرى (ت٦٥٤هـ): تحرير التحبير، ص ٤٢٥، باب "حسن النسق".

(٣) ابن يعيش: المفصل، ٣/ ٧٥

(٤) السيوطى: الاتقان، ٢/ ١٠٨ .

ولهذه الأهمية لحروف العطف لاحظنا أنه من الشاذ حذف حرف العطف مع بقاء المعطوف به فى مثل: "راكب الناقة طليحان، أى راكب الناقة والناقة طليحان. فإن قلت: فهلا كان التقدير على حذف المعطوف عليه، أى الناقة وراكب الناقة طليحان؟ قيل: يبعد ذلك ... لأنه لو كان تقديره: الناقة وراكب الناقة طليحان، لكان قد حذف حرف العطف وبقى المعطوف به، وهذا شاذ ... (١).

ونرى أن شذوذ حذف حرف العطف راجع إلى الرغبة فى إيجاد الرابط بين الكلمات أو الجمل التى لا ترتبط بدون هذه الحروف، وفى هذا حرص على التماسك النصى بين العناصر المكونة للنص.

وعندما قسم ابن الناظم حروف العطف إلى ضربين:

"**أحدهما:** ما يعطف مطلقاً، أى يشرك فى الإعراب والمعنى، وهو (الواو، ثم، الفاء، حتى، أم، أو) **والثانى:** ما يعطف لفظاً فحسب، أى يشرك فى الإعراب وحده، وهو (بل، لا ، لكن)"(٢).

---

(١) انظر: أ – ابن جنى: الخصائص، ١/ ٢٩٠ – ٢٩١ .

ب– ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة، الأولى، ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م، مطبعة السعادة، القاهرة، ١/ ٢٨٠ – ٢٨١، وقد اعترض على رأى ابن جنى فى الشاهد :

كيف أصبحت كيف أمسيت مما ... يزرع الود فى فؤاد الكريم

قال: " ليس هناك حذف للواو، وليس حرف العطف مراداً هنا البتة، ولو كان مراداً لا نتقص الغرض الذى أراده الشاعر، لأنه لم يرد انحصار الود فى هاتين الكلمتين من غير مواظبة عليهما – [الإصباح والإمساء] – بل أراد أن تكرار هاتين الكلمتين دائماً يثبت المودة، ولولا حذف الواو ولا نحصر إثبات الود فى هاتين الكلمتين من غير مواظبة ولا استمرار عليهما، ولم يرد الشاعر ذلك ... وأحسن من هذا أن يقال: دخول الواو وهنا يفسر المعنى، لأن المراد أن هذا اللفظ وحده يثبت الود، ولو أدخل الواو لكان لا يثبت الود إلا باللفظين معاً. ونظير هذا: أطعم فلاناً تمراً أقطاً زبيباً لحماً، لم ترد جمع ذلك، بل أردت: أطعمه واحداً من هذه أيهما أيسر "ويذكر أن السر فى عدم جواز إضمار حرف العطف فى "ان الحروف أدلة على معان فى نفس المتكلم، فلو أضمرت لاحتاج المخاطب إلى وحى يفسر له ما فى نفس مكلمه ..." وقد ذكر ابن جنى أن "القياس ألا يجوز حذف الحروف ولا زيادتها. ومع ذلك فقد حذفت تارة، وزيدت أخرى ... انظر: الخصائص ، ٢/ ٢٨٢ .

(٢) ابن الناظم: السابق، ص ٥١٩ – ٥٢٠.

حينما فعل ذلك كان لإدراكه لنوعى التماسك؛ الشكلى والدلالى اللذين سعى النصيون المعاصرون لتحقيقهما.

ونرى أن (بل، لا، لكن) غير عاطفة؛ فالعطف يعنى الإشراك بين المعطوف والمعطوف عليه، ونحن إذا لاحظنا الأمثلة:

- جاءِ محمدٌ بل علىٌ

- نجح المجتهدُ لا المهملُ

- ما قام زيدٌ لكن علىٌ

نجد أن الأول أخرج محمداً من العطف؛ إذ التقدير: جاء علىٌ. والثانى أخرج المهمل؛ فالتقدير: نجح المجتهدُ. والثالث أخرج زيداً؛ إذ التقدير: ما قام علىٌ. ومن ثم ليس هناك عطف، خاصة من ناحية الدلالة.

وكذلك هذه الحروف غير رابطة نصياً؛ إذ كيف تربط بين اثنين أحدهما خارج من الإشراك الدلالى بين المتعاطفين.

وجملة الأمر إذا جعلناها عاطفة، فإنها تكون من الضرب الثانى الذى ذكره ابن الناظم. فهذه الحروف وظيفتها الأساسية هنا، غير كونها مخرجه لأحد الطرفين دلالة، هى توصيل العلامة الإعرابية إلى ما يليها. والقضية أنه ليس لها إعراب آخر غير كونها عاطفة، مع العلم بأن لها دلالات أساسية غير العطف؛ فالأولى للإضراب، والثانية للنفى، والثالثة للاستدراك (١).

ومما سبق يتبين إدراك علمائنا العرب لأهمية حروف العطف فى تحقيق التماسك على مستوى الجملة، والجملتين، وأكثر على مستوى النص. وجاءوا بنماذج كثيرة تثبت نظرتهم لكن ما موقف علماء النص المعاصرين من هذه الحروف ودورها التماسكى؟.

---

(١) لهذا السبب سوف نقتصر فى التحليل على الأدوات التى تحقق التماسك الشكلى والدلالى.

المبحـــث الثـــانى

أهميـة التوابـع عنـد النصيين



من أبرز القضايا التى عنى بها النصيون، قضية دور العطف فى تحقيق التماسك النصى. وتحليل النصوص فى ضوء مبادئ علم اللغة النصى.

فقد صنفوا وسائل التماسك النصى تصنيفاً يدرج داخله العطف والإبدال، فيذكر هاليدى أننا نستطيع "أن نصنف العلاقات الدلالية إلى عدد من الفصائل الجلية هى (المرجعية، الإبدال، الحذف، العطف، ثم التماسك المعجمى) وهى فصائل تمثل روابط واضحة للتماسك ... وكذلك تمدنا بوصف للنصوص وتحليلها ... "[١].

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن كتاب Cohesion in English قام كله على هذه الأدوات الخمسة.

وكذلك جعل كريستال العطف أول وسيلة من وسائل التماسك النصى. ولم يذكر من التوابع سوى العطف والإبدال. ثم ذكر وسائل أخرى مثل الإحالة بأنواعها، والحذف، والتكرار والعلاقات المعجمية، والمقارنة"[٢].

لكن ما وظيفة أدوات العطف؟

نلاحظ الأمثلة التالية:

- جاء محمدٌ وعلىٌّ. - جاء محمدٌ فعلىٌّ .

- جاء محمدٌ ثم علىٌّ.

فالأول يعنى جاء محمد جاء على، والثانى: جاء محمد وبعده مباشرة جاء على، والثالث: جاء محمد وبعده بفترة جاء على.

فحدث الربط بين مجئ الاثنين من ناحية، وكذلك الاختزال أو الاختصار وهاتان تمثلان أهم وظائف هذه الأدوات.

---

(1) Halliday & Hasan, Cohesion in English, p. 4 & p. 13 & p. 29.

(2) David Crystal, The Cambridge Encyclopedia of language, p. 119.

أما ما تبقى من أدوات؛ فإن لكل منها دلالات مختلفة يمكن معرفتها من خلال التركيب الذى ترد فيه أى من هذه الأدوات(١).

وإذا تأملنا عدد أدوات العطف الواردة فى القرآن الكريم أدركنا إلى أى حد اتسم هذا النص الكريم بالإيجاز والتماسك(٢). فكل أداة من هذه الأدوات أدت، حين استخدامها، إلى حذف كلمات وجمل كثيرة، كانت بالطبع سوف تؤدى إلى الحشو الزائد الذى يتنزه عنه النص الكريم.

ومن ناحية التماسك النصى، نرى أنه كلما ازداد عدد أدوات العطف، ازدادت قوة التماسك بين مكونات النص القرآنى؛ بين كلماته وعبارته وجمله وقصصه وسوره، لتخرج فى النهاية نصاً محكماً متماسكاً. وسوف يلاحظ ذلك عند التطبيق بعد قليل.

ويذكر د. محمد خطابى عدة عبارات ارتبطت بالواو العاطفة كالتالى:

"أكثر من زيتونة ونهر ونسمة تروح أو تجئ. أكثر من جزيرة وغابة ... فيعاد إخراجها كالتالى:

أكثر من زيتونة (وأكثر من) نهر (وأكثر من) نسمة تروح أو تجيء. أكثر من جزيرة و(أكثر من) غابة ... "(٣).

ويذكر كريستال أن الجمل المركبة تتكون من "عبارة أساسية بسيطة وعبارة أو عبارات أخرى بسيطة تعتمد على العبارة الأولى، ويربط بين هذه العبارات كلها أدوات العطف ... "(٤).

---

(١) انظر تفاصيل معنى هذه الحروف فى ضوء التماسك: د. محمد حماسة عبداللطيف: بناء الجملة العربية، ١٥٨- ١٥٩ .

(٢) تحفل السور القرآنية بأدوات العطف؛ إذ نجد أحياناً آيات تتعدى حروف العطف فيها العشر، ولا تجد سورة خالية من هذه الأدوات، وهى تكثر وتقل حسب طول السورة وقصرها.

(٣) د. محمد خطابى: لسانيات النص، ص ٢٢٩ .

(4) D.Crystal & D.Davy, Investigating English Style , Alongman Paper Back, London, P. 47 .



غير أن التماسك العطفى ليس ناتجاً عن وجود حرف العطف وحده، لكن "يقوم حرف العطف مع التطابق فى العلامة الإعرابية بالدور العظيم فى تماسك المعطوف بالمعطوف عليه. وقد تتوفر عناصر أخرى من خارجهما، كأن يكون المعطوف عليه والمعطوف مطلوبين لما يدل على المشاركة، مثل: اختصم واشترك وتصالح. . . ويقوم حرف العطف نفسه بدور فى مشاركة المعطوف والمعطوف عليه"(١).

ومن ثم يتحقق التماسك فى جمل العطف نتيجة توفر عدة عوامل هى:

١- حرف العطف. ٢- العلامة الإعرابية.

٣- أفعال المشاركة. ٤- معنى حرف العطف.

ونظراً لأن حروف العطف تكتسب معانيها، فى الغالب، بناءً على السياق الذى توجد فيه هذه الحروف. كان من الطبيعى أن تكون هناك علاقة ما تربط بين المعطوف والمعطوف عليه، وهى الجهة الجامعة التى أباحت العطف بينهما.

ولقد راعى علماء النصية هذا فجعلوا العطف - بصفته مظهراً تماسكياً - يتفرع إلى المعانى التالية: "إضافى Additive، وعكسى Adversative، وسببى Casual، وزمنى Temparal. والأول تمثله And، والثانى تمثله yet، والثالث تمثله So، والرابع Then" (٢).

ومن ثم صنف هاليدى ورقية حسن أدوات العطف بناءً على هذه العلاقات الأربعة حسب الجدول التالى:(٣).

(١) . د محمد حماسة عبد اللطيف: السابق، ص ١٥٦- ١٥٧ .

(2) See: A) Halliday & Hasen, *Ibid* pp. 238 – 239 .

ب- د. محمد خطابى: لسانيات النص، ص ٢٣ .

(3) Halliday & Hasan, *Ibid,* pp. 242- 243.

وقد آثر الباحث ذكر هذه الأنماط كما هى فى الإنجليزية؛ لأنهم جعلوا منها أنماطاً تحقق التماسك النصى من قبيل أنها عاطفة. أما وظيفتها فى العربية فلم نجد من جعلها عاطفة مثل الواو والفاء وثم ...

	External / internal	Internal (unless otherwise Specified)		
Additive	Additive, Simple : Additive, : And, And also Negative : nor, and,… not. Alternative : or, or, else.	Complex, emphatic : Additive : Further more, In Addition, Besides Alternative: Alternatively Complex, de – emphatic : After thought : incidently, By the way	Apposition : Expository : that is , I mean, in, other words Exemplificatory : For unstance, thus	Comparison : Similay : likewise, similarly, in the same way Dissimilar : on the other hand, by Contrast,
Adversative	Adversative, proper' : Simple yet, though, only Containing: but, and, Emphatic: however,nevertheless, despite this.	Cantrastive : Avowal : In fact, actually, as amaterof fact. Contrastive (External) Simple : but, and Emphic : However, on the other hand, at the same time.	Correction : Of meaning : instead Rather, on the Contrary Of wording, at least, rather, I mean,	Dismissal : Closed : in any case, In either Case, Which ever way It is. Open – ended : in any Case, anyhow, At any rate, However it is.



	External / internal	Internal (unless otherwise Specified)		
Causal	Causal, General: Simple, so, then, hence, therefore Emphatic: cansequently, because of this Causal, Specific: Reason: for this reason, on account of this Result: as aresult, in consequence Purpose: for this purpose, with this in mind.	Reveraled causal: Simps: for, because Causal, specific: Reason: in follows, on this basis. Result: arising out of this Purpose: to this end.	Conditional(also external): Simple: Then Emphatic: In The Case, In Such an Event, that Being So. Generalized: Under the circumstances. Reversed Polarity: Under other circumstances. Causal, Specific: Reassn: in fallaws, on thiy basis Result ; arising out of thiy Rurpase : to this end	Respective : Direct, in this respect, in this regard, with reference to this. Reversed otherwise, in palarity: other respects, aside from this.
Temporal	Temporal, Simple (External only): Sequental: then, next, after that Simultan- just, then, at the same time. Preceding: Previously, before that Conclusive. Simple : Finally,at last, Carrelative : forms. Sequential : first.... Then Canclu- Sive : at first.....in the end.	Complex (external only): Immediate: at onco, thereupon Interrupted: Soon, after Atime Repetitive: next,time, on anather occasion Specific: next day, an hour later. Rurative: meanwhile Terminal: until Then Runctiliar: at this moment.	Internal temporal: Sequential: then, next, secondly, Conclusive: finally, in conclusion. Correlative forms: Sequential: first ... next. Conclusive : ... finally	" Here and now: Past, : up to now, hitherto Present: at this point, here future: from now on, henceforward. Summary: To sum up, in Summarizing short, brifly. Resumptive : to resume, to return to the point.



وهذا الجدول يمدنا بحقيقة مهمة، وهى ذكر هاليدى ورقية حسن لأنماط أخرى للعطف غير الحروف المعروفة وهذه الأنماط مثل :

Then, That, and, or, at the same time, on the other hand, in any case, before that, to this end, with reference to this, in conclusion, at, this moment, an hour later, to return to the paint, up to now ... etc

وهذا يخرجنا عن الإطار الطبيعى الذى وضعه اللغويون للعطف؛ إذ لا يقف هذا عند حد الحروف أو الأدوات المخصصة للعطف، بل يتعداها إلى الكلمات والعبارات. ومع إيماننا بأن هذه الأنماط تؤدى إلى معنى العطف والربط بين أجزاء النص، فإننا لا يمكننا وضعها تحت أدوات العطف أو حروفه. ولكن يمكن وضعها تحت عنوان آخر وهو "أنماط أخرى للعطف" فنحن إذا تأملنا هذه العبارات وجدناها بالفعل رابطة لما سبق ذكره بما يلحق ذكره فى النص، وتلك وظيفة نصية ضرورية لتحقيق التماسك النصى.

والنص العربى لا يختلف فى استخدام هذه الأنماط عن النص الإنجليزى؛ فترجمة هذه الأنماط إلى العربية يؤكد هذا، ويؤكد دورها فى تحقيق تماسك النص، وهذه الأنماط يمكن وضعها تحت عنوان ثان هو "أنماط أخرى للربط النصى"، خاصة وأنها لا تشتمل كلها على حروف عطف، وكذلك بعضها يحتمل العطف والآخر لا يحتمله.

وقد ذكر علماء النص أمثلة كثيرة للعطف لا تندرج تحت أدوات العطف الأساسية(١). لأن الذى يقوم بالعطف فيها ليس حروفاً للعطف؛ بل عبارات تحقق هذه الوظيفة.

---

(1) See:

A) Halliday & Hasan, *Ibid*, p. 231 & pp. 267 - 271 .

B) Robert, de Beaugrande and wolfgang Dressler, Introduction to text, Linguistics, p.71

وإذا عدت هذه العبارات فى العربية - عاطفة، فإن ذلك سوف يحدث تصنيفاً جديداً لباب العطف فى النحو العربى، يتمثل فى إضافة هذه العبارات لينقسم بذلك إلى حروف وعبارات. ولكن كيف يمكن إعراب عناصر هذه العبارات؟

وهذه الروابط، فيما نرى، ليست سوى عبارات تعبر عن نتيجة للجملة السابقة وهذه تسمى "أنماط رابطة".

ولكن أتكون أداة العطف رابطة على الأحوال كلها؟

ذكرنا فى بداية الفصل آراء القدماء، واعتمادهم فى ذلك على كمال الاتصال وكمال الانفصال والتوسط بينهما، وأن الحالة الثالثة هى التى أجازوا فيها الربط بالعطف. ولا يختلف رأى المحدثين عن رأى القدماء؛ فنجد الدكتور الزناد يقول "... بعد النظر فى وجوه الربط بالأداة بين الجمل فى النص نتبين أن حضور أداة الربط مشروط بالخلاف بين الجملتين أو المقطعين المتصلين أو المتباعدين. ومصطلح الخلاف يجمع عدداً من الوجوه:

- تعاقب فى الذكر و/ أو
- تعاقب على أساس السببية: النتيجة تعقب السبب.
- تعاقب على أساس إضافة عنصر إخبارى جديد.
- تعاقب على أساس الترديد أو التذكير.
- تعاقب يجمع نظرياً هذه الوجوه كلها أو بعضها، أو بعضها مع غيرها.
- تعاقب على أساس البيان وهو أمر يكثر فى الجمل الاعتراضية المفسرة"[1].

وهذه الوجوه تمثل الجهة الجامعة التى أقرها علماؤنا القدماء؛ تلك الجهة التى تبيح العطف أو الربط بين ما تقدم وما تأخر. ويلخص د. الزناد

(١) د. الأزهر الزناد: نسيج النص، ص ٥٦ ، ٥٧ وانظر ص ٢٨، ٤١ ، ٤٢ .

القاعدة بقوله: "كل جملتين متتاليتين فى النص، ثانيتهما تخالف الأولى، ترتبطان بأداة ربط:

نص: [ج١، ج٢] ← ج١ أداة ج٢ .

شرط: ج٢ خلاف ج١

وكل جملتين متتاليتين فى النص، ثانيتهما بيان للأولى، ترتبطان ارتباطاً مباشراً بغير أداة:

نص: [ج١ ، ج٢] ← ج١ بغير أداة ج٢

أى : [ج١ ، ج٢] ← ج١ Φ ج٢

شرط: ج٢ بيان لـ ج١" [(١)].

وفى هذا الرأى تناقض بين وجود الخلاف الذى تبيح العطف أو الربط بالأداة والربط بغير الأداة؛ فقد ذكر من وجوه الخلاف، الوجه الأخير: أن تكون الثانية بياناً للأولى. ثم ذكر قاعدة الربط بين الجملتين دون أداة بشرط أن تكون الثانية بياناً للأولى. والأفضل عدم ذكر الوجه الأخير من بين أوجه الخلاف التى تبيح العطف بالأداة. لأنه ذكر فى شروط الربط بالأداة أن تكون الثانية بياناً للأولى، وذكر فى قواعد الربط بغير الأداة أن تكون الثانية بياناً للأولى. وفى هذا تناقض.

فعندما نقول: قال رسول الله محمد، فإنه لا يجوز أن تقول: قال محمد ورسول الله؛ لأن محمدًا بدل كل من كل أو عطف بيان، ومن ثم فى حالة البيان يجب ترك الأداة. وإذا كان هذا بين المفردات "فالأمر كذلك فى الجمل فإنه يمتنع العطف أو الوصل بين الجملتين إذا كانت ثانيتهما واحدة مما ذكرت ... "[(٢)].

---

(١) السابق،

(٢) د. أحمد درويش: دراسة الأسلوب، ص ١٤٠. وقد تحدث عن مواضع الوصل والفصل (كمال الاتصال والانقطاع) ص ١٣٦ . وقد تحدثت كتب البلاغة كثيراً عن هذه القضية.

إذن الجهة الجامعة بين المترابطين هى أساس التماسك بالأداة. وهذه الجهة تمثل - فيما نرى - نوعاً من التماسك الدلالى مثل التناسب بين المترابطين، والتضاد "فى مثل قوله تعالى:

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ النجم/٤٤،٤٣

فالتضاد بين الضحك والبكاء وبين الموت والحياة يعد الجهة الجامعة، سوغه أن الشىء يحضر فى الذهن عند حضور نقيضه "[١]. فهذا يمثل تماسكاً دلالياً.

ومن اللافت للنظر أن علماء النصية عندما اقترحوا الأدوات السابق عرضها للقيام بدور الرابط، عندما اقترحوا ذلك، اقترحوا كذلك أن للتنغيم -Into nation- دوراً فى تحقيق تماسك النص، خاصة النص المنطوق[٢].

ولا يخفى أن للتنغيم دوره الواضح فى النص القرآنى الشريف، فكثيراً ما ترتبط الدلالة بالأداء الصوتى للآيات - ويرتبط أكثر بالآيات التى تنتهى بحرف واحد متشابه، وفى الوقت نفسه تتحدث هذه الآيات عن موضوع واحد. وهذا ما سوف يناقش فى الجزء الخاص بمناسبة نهايات الآيات لموضوع السورة.

أما النعت: بوصفه واحداً من التوابع؛ فقد أجمع علماؤنا على قوة التماسك بين النعت والمنعوت، وملخص ما قالوه أن النعت مثل المنعوت لأنهما كالاسم الواحد على حد تعبير سيبويه [٣]. فهو - أى التابع - دال على معنى فى المتبوع، أو فى متعلق به، بل متم له، ومكمل له. والنعت - كما ذكر ابن الناظم - إنما يجىء لتكميل المنعوت[٤]. وعندما يكون النعت جملة

---

(١) السابق :ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(2) Halliday & Hasan, *Ibid,* pp. 271- 273.

(٣) سيبويه: الكتاب، ١/ ٤٢١- ٤٢٢ .

(٤) ابن الناظم: شرح الألفية. ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

فإن الربط لا يتوقف على وجود النعت والمنعوت فقط؛ بل لابد من أداة أو وسيلة أخرى من وسائل التماسك؛ وهى ما أكدها النحويون بوجوب وجود ضمير فى جملة النعت(١).

والنعت لم يذكره النصيون من بين وسائل التماسك النصى، لكنه - كما أشرنا - يقوم بالربط بين المفردات، وكذلك بين الجمل، وبين الآيات كما سيتضح بعد قليل.

والتوكيد لا يقل أهمية كذلك عن كل من العطف والنعت والإبدال فى تحقيق التماسك بين عناصر النص، مع عدم ذكر النصيين له مثل النعت، فإننا نعدهما معاً من وسائل التماسك النصى كما سيتضح دورهما فى الآيات.

ويبرز دور التوكيد فى تحقيق التماسك النصى بملاحظة تأكيد علمائنا أن التوكيد تكرير باللفظ أو بالمعنى(٢). والأول هو التوكيد اللفظى والثانى هو التوكيد المعنوى. ومن المعلوم أن التكرير نوع من أنواع التماسك.

وهذا طبيعى؛ فالتوكيد تعبير عن الرغبة فى إقرار السابق ذكره وتثبيته، وهنا تبرز حقيقة التماسك بين المؤَكَّد والمؤكِّد. هذا إضافة إلى أن التوكيد المعنوى يحتوى على وسيلة أخرى من وسائل التماسك وهى مرجعية الضمير إلى السابق ذكره. فهناك إذن تماسك دلالى وشكلى فى علاقة التوكيد.

وقد أكد الباقلانى أن "التذييل - وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه - ضرب من التأكيد مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ**

---

(١) السابق، ص ٤٩٣ .

(٢) انظر: أ - سيبوية: الكتاب، ٢/ ١٢٥- ١٢٦ .

ب- ابن جنى: الخصائص، ٣/ ١٠٣ وما بعدها.

ج- الجرجانى: المقتصد فى شرح الإيضاح، تحقيق د. كاظم المرجان، سلسلة كتب التراث، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٢م، ٢/ ٨٩٦- ٨٩٧ .

كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، إلى قوله: ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ القصص/ ٤: ٨" (١).

والنعت والتوكيد كلاهما مستخدم بكثرة فى القرآن الكريم، وكما سيظهر فى التحليل بعد قليل.

أما الإبدال فقد عنى به القدماء والمحدثون على حد سواء؛ القدماء تناولوه بوصفه تابعاً من التوابع، والنصيون تناولوه بوصفه وسيلة من وسائل التماسك النصى. مع ملاحظة اختلاف الإبدال عند النصيين عن البدل عند النحويين العرب.

فقد عنى النحويون بتقسيم البدل إلى عدة أنواع منها بدل الكل من الكل "البدل المطابق"، وبدل البعض من الكل، وبدل الاشتمال، والبدل المباين، ويقسم إلى بدل الغلط، وبدل النسيان وبدل الإضراب(٢).

وكذلك أفاض علماء النص فى الحديث عن أقسام البدل، على وجه الخصوص ما ذهب إليه هاليدى ورقية حسن من تقسيمه إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) الباقلانى: إعجاز القرآن، ص ١٠٢ – ١٠٣ .

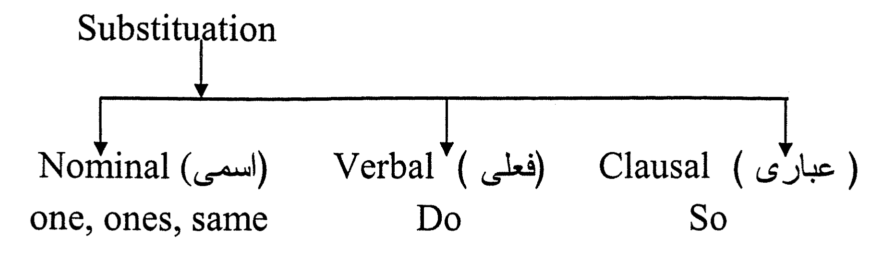
(٢) ويندرج تحت هذه الأقسام أقسام أخرى ذكرها د. محمد عضيمة، منها:

- بدل الذات من المعنى.
- البدل التفصيلى
- بدل نكرة من نكرة
- بدل معرفة من نكرة
- بدل ضمير من اسم ظاهر
- بدل الفعل من الفعل
- بدل الجملة من المفرد.
- بدل اسم الزمان من أسم الزمان
- بدل معرفة من معرفة
- بدل نكرة من معرفة
- بدل ضمير من ضمير.
- بدل ظاهر من ضمير
- بدل الجملة من الجملة

انظر التفصيل: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القسم الثالث، المجلد الرابع، ص ٣٦: ٦٢

2- Halliday & Hasan, Cohesion in English, from p. 9. to p. 141.

حيث ذكرا أمثلة لكل قسم، ودور كل قسم فى تحقيق التماسك النصى، وغير ذلك من القضايا المتعلقة بالإبدال. وهذه التقسيمات توجد فى كتب النحو مفصلة.



والاختلاف القائم بين البدل فى النحو العربى والإبدال فى علم اللغة النصى لا يمثل مانعاً من الاعتراف بأن البدل فى النحو العربى يحقق التماسك، لكن على مستوى الجملة الواحدة فى الغالب(١). ومن هنا سوف يكون تحليلنا، بالنسبة للبدل، مقصوراً على نماذج قليلة.

وترجع أهمية الاستبدال فى تحقيق التماسك إلى ملاحظة "العلاقة بين العنصرين المستبدل والمستبدل منه، وهى علاقة قبلية بين عنصر سابق فى النص وعنصر لاحق فيه ... (٢).

فهذه العلاقة تمثل الامتداد أو الاستمرارية القائمة بين المبدل منه والبدل، وكذا فى بعض أنواع البدل مثل بدل البعض لا يعرف المقصود بالبدل دون معرفة المبدل منه مثال ذلك قوله تعالى:

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ المزمل/٢،٣ (٣).

---

(١) فالجملة التالية أصلها ينقسم إلى جملتين "فإذا قلت: مررت بعبد الله زيد، فهو مواز لقولك: مررت بعبد الله مررت بزيد، وقد عدل عن هاتين الجملتين إلى جملة واحدة دفعاً للبس؛ فنطقهما معاً يجعل المخاطب يظن أنهما شيئان أو شخصان والحقيقة أنها شخص واحد. وهذا الذى يعنيه النحاة بقولهم: "إن البدل على نية تكرار العامل " د. محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، ١٥١- ١٥٢ .

(٢) د. محمد خطابى: لسانيات النص، ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) وأمثلة هذا كثيرة، عند سيبويه منها:

- رأيت بنى زيد ثلثيهم
- رأيت بنى عمك ناساً منهم
- ضرب عبد الله ظهره وبطنه
- قلب عمرو ظهره وبطنه

وقول الجعدى من بحر (الكامل) :

ملك الخورنق والسديد ودانه   ما بين حمير أهليها وأوال

يريد: ما بين أهل حمير، فأبدل الأهل من حمير" الكتاب، ١/١٥٠ وما بعدها.

فالعلاقة مستمرة بين المبدل منه والبدل. ومن هنا نلاحظ التماسك القائم بين البدل والمبدل منه من خلال هذه الاستمرارية، ومن خلال ذكر الضمير العائد على المبدل منه. ومن خلال الدلالة أيضاً.

والبدل على نية تكرار العامل، وهذا التكرار يمثل وسيلة أخرى من الوسائل التى تحقق التماسك فى جملة البدل. على الرغم من عدم ظهور هذا العامل. المكرر مطلقاً؛ لأنه خيالى على حد تعبير أستاذنا الدكتور عبده الراجحى(١). ونلاحظ أن الإبدال يرتبط بالمرجعية من ناحية كونه يشير / يرتبط بما سبقه [المبدل منه]. وإحالة البلد تكون داخلية كذلك(٢). إذ إن المبدل منه يجب ذكره حتى لا يحدث الغموض فى معرفة البدل.

وبعد هذا العرض النظرى الموجز لدور التوابع فى تحقيق التماسك النصى، نحاول التعرف على دورها من خلال التحليل لبعض السور المكية.

---

(١) د. عبده الراجحى: فى التطبيق النحوى والصرفى، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٩٢ م، ص ٣٣٨ .

وانظر علاقة الإبدال بالتكرار:

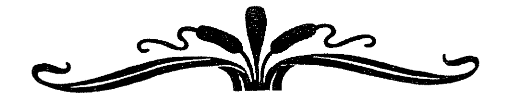
أ – ابن الناظم: شرح ألفية ابن مالك، ص ٥٥٣ .

B) Halliday & R. Hasan, *Ibid* p. 89.

(٢) *I bid*, p. 9. .

المبحـــث الثـالـث

التحليل النصى للسور المكية



يبدأ البحث فى تحليل سورة "الفاتحة" ليوضح أن بها ثلاثة أنواع من التوابع التى يتحقق التماسك النصى من خلالها، وهى :

١- العطف.　　　٢- البدل.　　　٣- النعت.

أما العطف، فقد عرفنا أنه يشترط وجود جهة جامعة بين المعطوف والمعطوف عليه، والجهة الجامعة هذه تمثل الرابط الدلالى والرابط الدلالة يمثل - فيما نرى - وسيلة غير شطية، تسهم فى تحقيق التماسك النصى. وهنا تحققت هذه الجهة فى الآيتين الخامسة والسابعة، يقول تعالى:

- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ /٥
- ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾/٧

فشبه كمال الاتصال أدى إلى وجود هذه الأداة؛ وذلك لأن حذفها يؤدى إلى اللبس؛ فالآية سوف تصبح: إياك نعبد إياك نستعين.

فالجملة الثانية تصبح توكيداً للأولى، وهذا يغير من الدلالة المقصودة للآية، ومن ثم كان من الواجب ذكر الأداة للجمع بين هاتين الجملتين، فالعبادة غير الاستعانة، لكن يجمع بينهما كونهما موجهتين إلى الله تعالى من عباده المؤمنين.

وفى الآية السابعة أسهمت الأداة فى الجمع بين صفتين من صفات الذين أنعم الله عليهم. والصفة الأولى متقاربة من الثانية؛ فعدم الغضب يكون من الله، والهداية كذلك من الله تعالى. كذلك الصفتان لموصوف واحد يتمثل فى الذين أنعم الله عليهم. وهاتان جهتان جامعتان تبيحان العطف.

أما كمال الاتصال فإنه يتحقق فى البدل كما فى هذه السورة الكريمة، فى قوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ /٢

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ٦/٧



فمن المعروف أن البدل هو المبدل منه فى المعنى غالباً، ولشدة هذا التماسك بينهما دلالة، استغنى عن الأداة اللفظية الرابطة. فالرابط بين البدل والمبدل منه دلالى والبدل يحقق التماسك على مستوى الآية الواحدة كما فى ٢، ٧ . وكذا يحققه على مستوى أكثر من آية كما هو بين الآيتين ٦، ٧ .

والبدل كذلك يمثل المرجعية السابقة فى ضوء التماسك؛ فهو يرجع فى دلالته إلى المبدل منه السابق عليه. ولهذا نمثل تلك العلاقة كالتالى :

المُبْـــــدَل منه	**مرجعية داخلية سابقة**	**البـــــدل**
الله	←	رب العالمين
الصراط المستقيم	←	صراط الذين
الضمير فى (عليهم)	←	غير المغضوب عليهم

فالتماسك إذن ناشئ من وجود التماسك المعنوى بين عنصرى البدل، ووجود المرجعية السابقة. هذا عكس علاقة العطف التى تكتفى بكونها جامعة فقط بين المعطوف والمعطوف عليه.

وكمال الاتصال يتحقق كذلك فى جمل النعت، كما هو وارد فى السورة كما يلى:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾/١

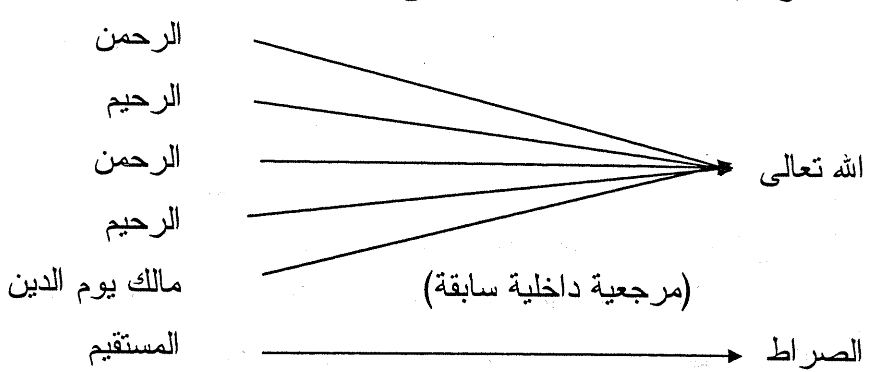
﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾/٣

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾/ ٤

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾/٦

فنلاحظ عدم وجود أداة عطف رابطة بين الصفة والموصوف؛ لأنهما واحد فى المعنى، فالصفات الخمس ﴿ الرَّحْمَنِ – الرَّحِيمِ – الرَّحْمَنِ – الرَّحِيمِ

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ صفات لله تعالى. و"المستقيم" صفة للصراط. وكلها تمثل كذلك مرجعية سابقة يمكن تمثيلها كالتالى :



فهذه النعوت أسهمت فى تحقيق التماسك النصى بين آيات السورة عن طريق الرجوع إلى لفظ الجلالة المذكور فى الآية الأولى. مفتاح السورة الذى يرتبط به ما جاء بعده وهذه - كما يلاحظ - مرجعية داخلية. وهذه المرجعية متمثلة فى البدل، والنعت، إذ من المعلوم أن البدل لا يُقَدَّم على المبدل منه، وكذا النعت إذا تقدم فإنه إذا كانا - النعت والمنعوت - معرفتين أعرب النعت حسب موقعه الجديد بعد التقديم. وإذا كانا نكرتين أصبح النعت حالا منصوباً.

العلاقة الأساسية التى تحكم هذا التماسك إذن هى علاقة الإسناد بين المنعوت والنعت. وبين البدل والمبدل منه غالباً.

ومن ثم تحقق التماسك النصى فى هذه السورة عن طريق وسائل عدة، ناقش البحث منها، حتى الآن، أربع وسائل :

١- المرجعية ٢- العطف

٣- النعت ٤- البدل

وسوف يناقش وسيلتى (الحذف- والتكرار) فى الفصول التالية. هذا إضافة إلى وسائل أخرى تحقق التماسك مثل الإضافة فى قوله تعالى:

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، صِرَاطَ الَّذِينَ ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾،

والتعدية بين الفعل والمفعول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾. مع ملاحظة كونهما على مستوى الجملة الواحدة. وكذلك عبر الجمل التفسيرية.

"سورة الأنعـــــــام"

أما سورة "الأنعام"، فقد عرض الفصل السابق لكيفية اتحاد الضمائر المتنوعة فى تحقيق تماسكها؛ فقد وصل عدد هذه الضمائر إلى (٨٦٩) ضميراً، منها ما يعود إلى الله تعالى، ومنها ما يعود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنها ما يعود إلى المؤمنين، ثم منها ما يعود إلى المشركين[1]. وعلى الرغم من اختلاف العناصر التى تحيل إليها الضمائر، فقد رأينا اتفاقها جميعاً فى إبراز قضية أساسية؛ هى قضية العقيدة. وقد كانت دلالة الأرقام بارزة كذلك فى هذا الفصل، كما عرض من قبل، مما أسهم كثيراً فى تحليل تلك النصوص الكريمة.

وإذا كان للأرقام دلالة، فإن تتبع الإحصاء يبرز الأرقام التالية:

- ورود أدوات العطف فى السورة (٤٨٤) مرة.
- ورود النعت (٧٨) مرة.
- ورود البدل (٢٩) مرة.
- ورود التوكيد المعنوى (مرتين).
- عدد مرات ورود الضمائر والتوابع (١٤٦٢) مرة.
- الواو كانت أكثر انتشاراً فى السورة عن غيرها من أدوات العطف خاصة، وعن غيرها من التوابع عامة، فقد تكرر ورودها (٣٨١) مرة.
- وردت الواو عشر مرات فى الآية ٨٤ . ووردت تسع مرات فى الآية

(١) هذا العدد يقتصر على المحاور الأربعة فقط، دون بقية الضمائر التى تحيل إلى غير هذه المحاور.

١٤١. ووردت سبع مرات فى الآيتين ٥٩، ٧٠. ووردت ست مرات فى الآيات ٧٣، ٩٣، ٩٩، ١٥١، ١٥٢. ووردت خمس مرات فى الآيات ٨٦، ٨٧، ٩١، ٩٢، ١٠٠. ووردت أربع مرات فى الآيات ١٤، ١٩، ٢٥، ٢٦، ٣٤، ٤٨، ٨٥، ١٠١، ١١١، ١١٢، ١٢١، ١٣٠، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٦ والآيات التى وردت فيها الواو بعد مرتين أو مرة واحدة كثيرة جداً، وهى واضحة من خلال الجداول.

نلاحظ أن هذه الأعداد الكبيرة وردت فى آيات أو فى سورة آياتها (١٦٥) آية فقط. ولهذا الأمر دلالته الواضحة، وتتمثل هذه الدلالة فى التأكيد على قوة تماسك آيات هذه السورة، وعلى دورها المؤكد فى التحليل النصى.

وهذا التماسك من الملاحظ أن دور الروابط، على مستوى التوابع، يسير على ثلاثة مستويات:

الأول: الروابط بين الكلمات داخل الآية والواحدة.

الثانى: الروابط بين العبارات والجمل داخل الآية الواحدة.

الثالث: الروابط بين الآيات داخل السورة(١).

والمستويان الأول والثانى يمثلان الأساس الذى يقوم عليه المستوى

(١) من بين الآيات التى بها روابط من المستوى الأول: ١، ٤، ٦، ٧، ١٠، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٩، ٢٣، ٢٩، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٥٣ ،٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٨، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩ ،٩١، ٩٢، ٩٣، .... إلخ.
ومن الآيات التى بها روابط من المستوى الثانى: ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٨، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨١ ، ٨٢، ٨٤، .... إلخ.
ومن الآيات التى بها روابط من المستوى الثالث: ٣، ٥، ٨، ٩، ١٣، ١٨، ٢٣، ٢٦، ٢٩، ٤١ ، ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٦، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٩٢، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٣، ١٠٩، ١١٠، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٧، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٣، ١٦٥. وهذه الروابط تتمثل فى العطف والنعت والبدل والتوكيد.

الثالث. ونحاول إبراز دلالة هذه الأرقام من خلال التحليل لنماذج من هذه السورة المباركة.

فإذا كانت الضمائر فى الفصل السابق، فى الآيات الأولى من هذه السورة، قد ركزت فى الإحالة إلى الله تعالى، فإننا نلاحظ هنا أن التوابع تربط بين الأفعال المسندة إلى الله تعالى غالباً على سبيل المثال قوله تعالى:

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ(٦)﴾.

فنلاحظ الربط بين المفردات كالتالى:

"السموات والأرض، الظلمات والنور، وأجلٌ مسمى، من آية من آيات ربهم، وأنشانا من بعدهم قرناً آخرين".

والربط بين العبارات والجمل كالتالى:

"وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، ثم قضى أجلاً، ثم أنتم تمترون، وفى الأرض، سركم وجهركم، ويعلم ما تكسبون، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً"

والربط بين الآيات كالتالى:

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾

ولا نستطيع القول هنا إن المرجعية سابقة أو لاحقة. لكن نقول إن التوابع ربطت بين السابق واللاحق دون وجود ما يحيل إلى السابق من ناحية اللفظ. ومن الدلالة كذلك. فلا يمكن تصور هذه المفردات، والعبارات، والجمل، والآيات دون وجود هذه الروابط؛ فمحاولة قراءة هذا النص بدون هذه الأدوات يؤدى إلى غموض شديد، وإلى تفكك واضح بين عناصر النص، وهذا ما يتنزه عنه النص القرآنى الكريم. بصفة خاصة، والنص بصفة عامة كى تتحقق نصيته.

ومحاولة النظر إلى نص هذه السورة بصفة عامة تؤدى بالبحث إلى ملاحظة أن الأفعال المسندة إلى الله تعالى، عبر هذه السورة، ترتبط فيما بينهما من خلال عطف النسق. وهذا يتضح -أى التماسك- إذا حاولنا وضع هذه الآيات متجاورة لأدى ذلك إلى تكوين نص متكامل يتحدث عن هذه الأفعال المسندة إلى الله تعالى. من هذه الآيات قوله تعالى:

- ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾/١٣
- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ /١٨
- ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ /٥٩
- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ .... ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ /٦٠.
- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ /٦١
- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ /٧٣
- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ / ٩٧
- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ /٩٨
- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا

مِنْهُ خَضِرًا﴾ /٩٩

- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ / ١٤١
- ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ / ١٥٤
- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ / ١٦٥

فقد ذكرنا، فى الفصل السابق، دور هذه الضمائر، الشخصية، والموصولة، فى الربط بين هذه الآيات عن طريق الإحالة إلى لفظ الجلالة المذكور فى الآية الأولى.

وهنا ترتبط هذه الآيات، على الرغم من عدم تجاورها؛ فهى موزعة على أركان السورة. وهذا التماسك ناتج عن عدة وسائل هى:

١- الضمائر.

٢- أدوات العطف، كما هو واضح فى حرفى الواو وثم-

٣- علاقة الإسناد؛ فهذه الأفعال كلها مسندة إلى الله تعالى.

فأدوات العطف تحقق التماسك النصى لاعتبارها وسيلة من وسائل التماسك، وكذلك فهى تمثل امتداداً متلاحماً لعناصر النص المختلفة.

وتوزيع الواو بهذه الطريقة يؤدى إلى نتيجة مؤداها أن العطف لا يتوقف دوره على الربط بين الجمل المتجاورة أو الكلمات المتجاورة فحسب، بل يتعداها إلى الربط بين آيات غير متجاورة، ليحقق التماسك النصى بناء عليه.

وإذا كان دور العاطف هو المشاركة بين المتعاطفين، فإن علاقة المشاركة تمثل تماسكاً دلالياً. كما أن علاقة الإسناد هى كذلك علاقة دلالية. ودلالة هذه الآيات تتمثل فى كونها مسندة للأفعال المذكورة بها إلى الله تعالى.

وهذا الدور ليس للواو وحدها، بل تقوم (ثم) و (الفاء) و(أو) بالعطف كذلك، غير أن الواو أكثر وروداً، ليس فى هذه السورة وحدها، بل فى السور

المكية كلها، كما هو واضح من خلال الجداول. إضافة إلى أن الواو لمطلق الجمع أو العطف، بينما نجد لكل أداة من الأدوات الأخرى معنى إضافياً غير العطف؛ فـ (ثم) للعطف مع التراخى، و(الفاء) للعطف مع التعقيب والسرعة، و(بل) للإضراب، و(لكن) للاستدراك ... إلخ. هذا مع الإشارة إلى أن المواضع التى وردت فيها الواو ليست الواو فيها كلها عاطفة؛ فقد تكون للعطف، وقد تكون للحالية(١). وقد تكون استئنافية ... إلخ. وكذلك غيرها من الأدوات مثل (بل) و(لكن) فإن العطف بهما بشروط ذكرتها كتب النحو.

واستكمال النظر إلى الآيات التى فيها إحالة إلى الله تعالى يوضح تكوين هذه الآيات من توابع عديدة بداية من الآية الأولى حتى الآية الآخيرة من السورة.

من هذه الآيات قوله تعالى :

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ /١
- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ / ٢
- ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ /٣
- ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ /٦
- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ /٩

(١) يذكر أحد الباحثين أن: " واو الحال قادرة وحدها على أن تربط جملة الحال بصاحبها فى بعض الحالات، نحو: خرجت والشمس طالعة، أو بمساعدة الضمير البارز، نحو: جاءنى زيدُ وهو ضاحك.

انظر: د. / مصطفى حميدة: نظام الارتباط والربط فى تركيب الجملة العربية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ١٩٩٧، ص ٢٠١ .

- ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ / ١٣
- ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ / ١٤
- ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٧)وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ /١٨
- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ /٢٢
- ﴿مَنْ يَشَأ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ / ٣٩
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ / ٤٦
- ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ / ٥٣
- ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ / ٥٥
- ﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ / ٦٢
- ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ / ٦٥
- ﴿وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ / ٧٢
- ﴿كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ / ٨٤
- ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ / ٨٧
- ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ / ١٥٩
- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ / ١٦٥[١].

(١) وتوجد آيات أخرى كثيرة حدث فيها الربط بين الأفعال المسندة إلى الحق تبارك وتعالى، منها ٨، ٤٢، ٥٨، ٨٦، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ١٤٦. وكذلك آيات فيها الربط بالنعت مثل ١، ٤٥، ٦٢، ٩٦، ١٦٣ . وأيات حدث فيها الربط بالإبدال مثل ١٤، ١٧، ٩٥، ١. ٢ . =

وإعادة النظر إلى هذه الآيات يظهر أنها - تدور حول ثلاثة محاور تتماسك فيما بينها عن طريق العديد من التوابع، وهذه المحاور هى:

الأول: آيات توضح نعم الله على خلقه، مثل خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، والخلق من طين، والتمكين فى الأرض، وإرسال السماء مدراراً، والإطعام، والهداية إلى الصراط المستقيم، وتفصيل الآيات، والجزاء على الإحسان. . . إلخ.

الثانى: آيات توضح قدرة الله على كل شىء، مثل كونه الله فى السموات والأرض، وكونه يعلم السر والجهر، وما تكسب النفس، وله ما سكن فى الليل والنهار، وهو السميع العليم، وهو على كل شئ قدير، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، والقدرة على بعث العذاب والبأس ... إلخ.

الثالث: آيات توضح إنذار العباد من بأسه تعالى؛ مثل علمه للسر والجهر وما تكسب النفس، والإهلاك بالذنوب، وكونه قاهراً فوق عباده، وحشره للعباد يوم البعث، والقدرة على أخذ السمع والبصر والختم على القلوب، وسرعة الحساب، وبعث العذاب والبأس .... إلخ.

والتماسك بين هذه المحاور الثلاثة، إذ إنها مسندة كلها إلى الله تعالى، يسير على مستويين؛ الأول داخلى وهو متعلق بالتماسك داخل الآية الواحدة، والثانى خارجى وهو متعلق بالتماسك بين هذه المحاور الثلاثة فيما بينها وهذا التماسك قائم، ليس على التوابع فحسب، بل يقوم كذلك على وسائل كثيرة أوضحنا منها الضمائر، وهنا نحاول بيان دور التوابع.

= فقد وصل عدد الروابط المتمثلة فى التوابع إلى ثلاثة وستين موضعاً. مع ملاحظة أن هذه الروابط تختص بالربط بين الأفعال المسندة إلى الله تعالى. وتوجد روابط أخرى فى الآيات التى تحيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى المؤمنين وإلى المشركين، بالصورة التى سوف نوضحها بعد قليل.

ومن الواضح أن التماسك يقوم كذلك هنا على العطف، والنعت، والبدل، غير أن العطف هو الأكثر شيوعاً.

وهذا التقسيم ليس معناه أن النص عبارة عن موضوعات متنوعة غير متماسكة، بل نجد هذه المحاور متماسكة فيما بينها تماسكاً شكلياً وآخر دلالياً.

أما الآيات التى تحتوى على إحالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته المتلقى المباشر للنص القرآنى، فإنها تنتشر فى هذه السورة لكن ليس بنفس قدر الانتشار الذى اتضح فى الآيات التى بها إحالة إلى الله تعالى.

وقبل هذا يؤكد البحث أن المحاور الثلاثة السابقة تؤكد الموضوع الأساسى للسورة، وهو موضوع العقيدة .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

- ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِن اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ... فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ /٣٥
- ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ /٥١
- ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ /٥٢
- ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ /٥٢
- ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ / ٥٦
- ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ /٧٠
- ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ /٧٠
- ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ /٩١
- ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢)لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ /١٦٣

وقد عرض الفصل السابق للآيات المحتوية على إحالة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ونلاحظ أنه ليست آيات إحالة الضمائر كلها تحتوى على توابع تحيل إليه صلى الله عليه وسلم. ومع ذلك فالأمثلة التى ذكرناها هنا كلها تحتوى على هذين النوعين أو هاتين الوسيلتين من وسائل التماسك النصى، الضمائر والتوابع. ونلاحظ كذلك أن النمط المستعمل هنا هو نمط العطف فقط؛ فلا يوجد نعت فى هذه السورة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كذلك لا يوجد بدل ولا توكيد.

وأدوات العطف المستعملة هنا لا نستطيع القول بأنها إحالية سابقة أو لاحقة أو خارجية ولكنها مجرد روابط تربط بين أمور مسندة إلى رسول الله، أو رابطة بين أوامر أو نواهى له صلى الله عليه وسلم ومن ثم فهى داخلية فقط.

ومن ثم فإن دور العطف هنا فى الربط ليس فى قوة دور الضمائر فى تحقيق التماسك النصى. ولهذا وجدنا كثرة الضمائر بأنواعها كما اتضح فى الفصل السابق.

ونلاحظ فى هذه الآيات أن الربط حدث بين كلمة وكلمة، وبين جملة وجملة، وبين آية وآية. ومن ثم فدوره ليس على مستوى الكلمة وحدها، بل تعداها إلى مستوى الجملة الواحدة مع قرينتها، وعلى مستوى الآية، مع الآية المجاورة لها.

أما دور التوابع فى تحقيق التماسك النصى من خلال الآيات التى ذكر بها المؤمنون، فإن التوابع التى ذكرت هى العطف والنعت، وهى كما يلى:

قال تعالى:

- ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ /٣٤
- ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ /٤٨

- ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ /٥٤
- ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ /٧١
- ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ /٧١
- ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ﴾ /٧٢
- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ / ٨٢[١].
- ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ /٨٧
- ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ / ٨٩
- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ /٩٢
- ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ / ٩٨
- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ /٩٩
- ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ /١٠٥
- ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ / ١٢٦ [٢].

والتوابع هنا حققت التماسك عن طريق محورين أساسين:

---

(١) هذه الآية إجابة عن السؤال المطروح فى الآية السابقة عليها (٨١) فى قوله تعالى: {فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون} . فتبدأ الثانية بذكر صفاتهم، ومن ثم قام النعت بالربط بين الآيتين إضافة إلى الضمائر. ولكن توجد وسيلة أخرى تتمثل فى الاستفهام والإجابة؛ فلا يخفى ما فى هاتين الآيتين من تماسك يتمثل فى السؤال المطروح والإجابة عنه وهذا تماسك دلالى. وهو كثير فى القرآن الكريم.

(٢) توجد آيات أخرى مثل: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥ .

الأول: قيامها بالجمع بين صفات للمؤمنين كما فى ٤٨، ٥٤، ٨٢ . . . وغيرها.

الثانى: قيامها بالجمع بين الأوامر الموجهة من الله تعالى إليهم، كما فى الآية ٧٢ إضافة إلى جمعها بين الأفعال المسندة إلى المؤمنين.

مما سبق يمكن جمع هذه الآيات - على الرغم من تباعدها فى الترتيب - يمكن جمعها فى نص متماسك يتحدث عن صفات المؤمنين والأوامر الموجهة إليهم وكذلك الأفعال المسندة إليهم.

أما الآيات التى بها توابع تعود إلى المشركين فإنها تحتل المرتبة الثانية من ناحية عدد مرات الورود فى سورة الأنعام. وقد ذكرنا أسباب ذلك فى الفصل الخاص بمرجعية الضمائر. ونذكر من هذه الآيات قوله تعالى:

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ /١
- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ /٢
- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾/٦
- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ(٧)وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ(٨)﴾
- ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾/ ١٢، ٢٠
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ٢١

- ﴿ثُمَّ نَقُولُ للَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(٢٢)ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾/٢٣
- ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ / ٢٤
- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ /٢٥
- ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ / ٢٦
- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ / ٢٧
- ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ /٢٨
- ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ /٢٩
- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ /٣٩
- ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ / ٤١
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ / ٤٢
- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ /٤٥
- ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ / ٤٦
- ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ / ٤٧
- ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ / ٥٧
- ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ / ٦٤
- ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ / ٧٠
- ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ / ٩٤

- ﴿هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾/ ١٣٠ (١).

والتماسك النصى لهذه الآيات التى بها توابع متصلة بالمشركين، يمكن أن يظهر إذا وضعنا هذه الآيات، أو جعلناها نصاً متكاملاً يتحدث عن المشركين. وهذا لا يعنى أنه يمكننا فصلها عن السورة، لأنه من المستحيل فعل هذا، ولكن إذا تصورنا هذه الآيات التى تتحدث عن المشركين لاحظنا أنها نصاً متكاملاً يتحدث عن صفاتهم وأفعالهم وعن أشياء كثيرة متعلقة بهم.

يمكننا إذن أن نكون نصاً كالتالى:

"الذين كفروا بربهم يعدلون - وقالوا لولا أنزل عليه ملك - ثم لا ينظرون - الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين - كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون - وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها. وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون - فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين - ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون - وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين - والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات - هل يهلك إلا القوم الظالمون - اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا - وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم - فقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون - وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا خاسرين ... ".

ولا يخفى دور التوابع هنا، وكذلك دور الضمائر كما سبق أن ذكرنا فى الفصل السابق.

ويظهر كذلك أن التوابع قامت بالربط بين الكلمة والكلمة وبين العبارة والعبارة، وبين الجملة والجملة، هذا كله ليس على مستوى الآية الواحدة فقط؛

(١) انظر كذلك الآيات: ٧٤، ٨١، ٩١، ٩٣، ١٠٠، ١١٠، ١١٣، ١١٦، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩.

بل على المستوى الأكبر، مستوى الآيتين المتجاورتين، بل على مستوى السورة كلها. ودليل ذلك وحدة المتحدث عنهم، ومن قبل وحدة المتكلم. فهذه الآيات كلها تتحدث عن المشركين. وهذا ما يمكن ملاحظته كذلك فى الآيات التى تتحدث عن الله تعالى وعن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين.

ومن الإعجاز أن التوابع إذا نظرنا إلى دورها التماسكى، فإننا نجده بين الآيات المتجاورة على مستوى السورة كلها من ناحية، من بداية السورة حتى نهايتها. وكذلك نجد دورها واضحاً من خلال المحاور الأربعة التى سبق عرضها؛ فهى تحقق التماسك بين الآيات التى تتحدث عن الله تعالى، والآيات التى تتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، والآيات التى تتحدث عن المؤمنين، وكذلك الآيات التى تتحدث عن المشركين. وذلك بملاحظة كل منها على حدة.

ومن المؤكد أن السبب فى هذا يعزو إلى وحدة موضوع السورة كما سبق التفصيل، وهذا يؤدى إلى تماسك الآيات كلها من ناحية، وتماسك المحاور الأربعة التى تتحد فى خدمة موضوع السورة من ناحية أخرى.

وهذا يجعلنا نقول بإمكانية تقسيم هذه السورة إلى أربعة نصوص فرعية، كل منها يتماسك داخلياً بين كلماته وعباراته وجمله وآياته، وخارجياً مع النصوص الأخرى.

وإذا كان هذا موقف التوابع فى سورة "الأنعام" فما موقف التوابع فى سورة من السور القصصية. ولتكن سورة "الكهف" التى تتحدث عن أهل الكهف وعن موسى عليه السلام والرجل الصالح، وعن ذى القرنين. ومن قبل عن الرجلين اللذين منحهما الله جنتين.

"سورة الكهـــــف"

ومن الملاحظ أن هذه السورة "سورة الكهف" من السور التى تؤكد قضية أساسية من قضايا السور المكية، وهى قضية التوحيد، وتسرى روح

هذه القضية من بداية السورة حتى نهايتها؛ حيث الإشارة إلى نعمة الله، والحمد لله على هذه النعمة؛ نعمة تنزيل الكتاب نذيراً وبشيراً وهذا فى بداية السورة. ثم يأتى آخرها ليؤكد جزاء العاصين وثواب المطيعين، وأن من أراد لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً؛ لأنه سبحانه واحد لم يتخذ شريكاً ولا ولداً كما ذكر فى أول السورة.

وهذا التماسك الواضح بين أول السورة وآخرها ينعكس على موضوعات السورة المتنوعة؛ تلك الموضوعات التى تؤكد هذه القضية، وأن النصر فيها دائماً للحق، كما سنوضح، تحمل هذه السورة المباركة بين طياتها تفصيلات لبعض القصص، وهى قصة أهل الكهف، والجنتين، وموسى مع العبد الصالح، وذى القرنين. وكذلك إشارة موجزة إلى قصة آدم عليه السلام مع إبليس عليه لعنة الله. إضافة إلى تعقيبات على كل قصة تتناسب مع القصة، وتربط بين القصة وما يليها. وترتيب هذه القصص كالتالى:

(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)
أصحاب الكهف	قصة الجنتين	آدم مع إبليس	موسى والعبد الصالح	قصة ذى القرنين

ويظهر التماسك بين هذه القصص بداية من إشارة الحق سبحانه إلى البأس الشديد للعاصين، والأجر الحسن للمؤمنين، وفى الدنيا وفى الآخرة. وينعكس هذا التماسك كما يلى :

فى قصة أهل الكهف نجد الأجر الكبير لأصحاب الكهف وزيادة الهدى ونجاتهم من القوم الظالمين الذين عبدوا آلهة من دون الله.

وفى القصة الثانية؛ قصة الرجلين اللذين منح الله أحدهما جنتين من أعناب، لكنه ركن إلى متاع الدنيا وزينتها ونسى الله وعصاه، فجعلها الله صعيداً جرزاً وأحاط بثمره، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها، وهى خاوية على عروشها، ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً، ولم تكن له فئة ينصرونه من دونه الله وما كان منتصراً. فالولايه ليست إلا لله تعالى. بينما الرجل

الثانى ينصح له، ويأمل أن يؤتيه الله - إن أراد الله - خيراً مما أعطى الأول. وكان هذا ابتلاءً أشارت إليه السورة فى الآية السابقة بقوله تعالى:

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

لذلك رأينا أهل الكهف ينزهون أنفسهم عن هذه الزينة ويؤثرون ما عند الله. وكذا يترفع الرجل المؤمن بنفسه عن ملذات الدنيا ويطمع فيما عند الله. وفى هاتين الحالتين انتصار للحق.

وفى الثالثة نجد إشارة موجزة إلى قصة آدم مع إبليس، واتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله، على الرغم من كونهم أعداء للإنسان! لذلك وصفهم الله بالظالمين

﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.

ومن ثم يفهم ضمنياً أن مَن لم يتخذ إبليس ولياً فإنه ليس من الظالمين، بل من الفائزين. وقد أوضح القرآن الكريم - فى مواضع كثيرة - هذه القصة بتفاصيل أكثر، أوضح فيها جزاء إبليس وتابعيه، وثواب المؤمنين. وهذا مظهر من مظاهر تماسك النص القصصى بين سور القرآن الكريم (١).

أما قصة موسى عليه السلام مع الخضر، ففيها بيان فضل العبد الذى منحه الله الرحمة والعلم. هذا الفضل الذى أدى إلى نجاة أهل السفينة من الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصباً. وأدى كذلك إلى نجاة الأبوين من الابن العاق لأنهما كانا مؤمنين. وأدى أيضاً إلى الحفاظ على كنز اليتيمين

---

(١) قصة أهل الكهف والجنتين وموسى والخضر وذى القرنين، وردت بتفصيلات كثيرة لأنها لم تفصل فى سور غير هذه السورة. بينما قصة آدم مع إبليس لم ترد إلا بإشارة موجزة؛ لأنها وردت مفصلة فى سور أخرى مكية ومدنية. كذلك كان من أغراض القصة، تنبيه أبناء آدم = = إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى وأدعى إلى الحق الشديد من كل هاجسة فى النفس تدعو إلى الشر ... ولما كان هذا موضوعاً خالداً، فقد تكررت قصة آدم فى مواضع شتى" انظر سيد قطب: التصوير الفنى فى القرآن، ص ١٥٤ .

لأن أباهما كان صالحاً. وفى هذه النماذج الثلاث أنتصار للحق كما حدث فى القصص السابقة[١].

وأخيراً تأتى قصتا ذى القرنين وأصحاب الأخدود؛ فقد أقرت هذه القصة نزول العذاب على الظالم فى الدنيا، ثم العذاب النكر فى الآخرة وكذلك الحسنى لمن آمن وعمل صالحاً.

إذن القصص كلها تؤكد انتصار الإيمان، والبشرى للمؤمنين والنذير للكافرين. وهذا ما أكدته التعقيبات التى وردت عقب كل قصة من هذه القصص[٢].

"والذى يتتبع قصص القرآن يجد عقب كل قصة تعقيباً دينياً يناسب العبرة فيها"[٣].

من هذا يتضح أن هناك تماسكاً معنوياً بين موضوعات السورة الكريمة، وموضوعها الرئيسى.

لكن ما دور التوابع فى تحقيق التماسك النصى لكل موضوع من هذه الموضوعات؟

من خلال الجداول الإحصائية المتعلقة بسورة الكهف لاحظنا أن عدد التوابع وصل إلى (٢٨١) تابعاً كما فى الشكل:

---

(١) ومن أغراض القصة هنا "بيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة" السابق ص ١٥٥ .

(٢) وهذا من أغراض القصة فى القرآن؛ "بيان عاقبة الطيبة والصلاح، وعاقبة الشر والإفساد. كقصة ابنى آدم، وقصة صاحب الجنتين، وقصص بنى إسرائيل، وقصة سد مأرب، وقصة أصحاب الأخدود" السابق ص ١٥٥ .

(٣) السابق، ص ١٦٩ .

مسلسل	التابع	عدد مرات وروده	المجموع
١	العطف	أو / ٥، ثم/ ٦، الفاء/٧٠ ، الواو ١٦١	٢٤٢
٢	النعت	٠٣٥	٠٣٥
٣	البدل	٠٠٤	٠٠٤
٤	التوكيد	٠٠٠	٠٠٠

ولنبدأ بتحليل النص المتعلق بأهل الكهف لنلاحظ بداية أن التماسك يبدأ من الآيات التمهيدية قبل القصة؛ فقد ذكر سبحانه أن السبب فى إنزال الكتاب أنه: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾/٤ . وهذا السبب الذى جعل الفتية يعتزلون قومهم لأنهم ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾/١٥ . وكذلك آخر آية فى هذه القصة ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ /٢٦

فعقيدة التوحيد ربطت بين أول القصة ووسطها وآخرها، وهذا تماسك معنوى أو دلالى بين أركان القصة. إضافة إلى وجود رابط دلالى آخر يتمثل فى وحدة موضوع هذه القصة؛ قصة أهل الكهف.

وملخص القصة كلها ذكر فى الآيات ١٠ ، ١١، ١٢:

- ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾/ ١٠
- ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ /١١
- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ /١٢

تركوا قومهم، ودعوا ربهم، ودخلوا الكهف، وربط على قلوبهم وآذانهم، ثم بعثوا فيما بعد.

والروابط الكائنة هنا تتمثل فى العطف فى الآية العاشرة بالفاء والواو، وهو ربط بين أربع جمل: أوى الفتية فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً؛ الأولى والثانية خبريتان، والثالثة والرابعة إنشائيتان

ثم يحدث التماسك بين العاشرة والحادية عشرة بالفاء التى وقعت فى جواب الطلب أو الدعاء؛ (فضربنا). وهناك تماسك دلالى كذلك يظهر فى جواب الطلب نفسه. وهناك رابط آخر يتمثل فى قوله تعالى: (سنين عدداً)؛ إذ يقدرها الأخفش الأوسط بـــ " سنين نعدها عدداً" (١). وفى هذا نعت لسنين.

ثم يربط بين الآية الحادية عشرة والثانية عشرة بالعطف بـــ "ثم"

- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾.

إذن حدث التماسك بين هذه الآيات الثلاث التى تمثل موجزاً لقصة أهل الكهف عن طريق العطف والنعت.

ثم تأتى جملة اعتراضية بين الثانية عشرة والثالثة عشرة لتؤكد أن هذه القصة حق: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ /١٣ ليبدأ بعدها بتفصيل القصة:

- ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ / ١٣
- ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ /١٤ .
- ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾/١٥ .
- ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾/١٦
- { فحدث التماسك بين (آمنوا)، و(زدناهم) فى (١٣)، ثم بين (١٣) و (١٤) بواو العطف (وربطنا)، وبين (قاموا) و(قالوا) بالفاء، و(شططاً) هى صفة لمصدر محذوف، والتقدير قولاً شططاً. ثم ينقل قول أهل الكهف فى الآية

(١) الأخفش الأوسط: معانى القرآن، ٢/ ٣٩٤ .

(١٥) ويضيفه إلى رغبتهم فى اعتزال القوم الظالمين فى الآية (١٦) عن طريق حرف العطف الواو.

والحديث كله موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو واضح فى الآيات ٦، ٩، ١٣، ١٧، ١٨ ... إلخ. فقد عطف بين ١٣، ١٧، إذ إن الحديث تغير من الغيبة فى (١٦) إلى الخطاب فى (١٧)، ليصف فى الأخيرة وضعهم فى الكهف :

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ /١٧

فقد عطف بين الجملتين داخل الآية بالواو: إذا طلعت وإذا غربت. وكذلك بين من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. مع وجود نعت فى قوله تعالى :

﴿وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ .

ثم يربط بين الآيتين ١٧، ١٨ بالواو فى قوله تعالى :

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ / ١٨

ثم يتحول إلى أسلوب المتكلم :

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ / ١٨

ثم يتحول مرة أخرى إلى أسلوب المتكلم فى الآية (١٩) ليصف مرحلة بعثهم من رقادهم الطويل :

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى

الْمَدِينَة فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا(١٩)إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا(٢٠)﴾.

ولا يخفى ما فى هاتين الآيتين من تماسك دلالى يتمثل فى وصف ساعة بعثهم. وتماسك شكلى عن طريق العطف بالواو والفاء. هذه فضلاً عن مرجعية الضمائر وغيرها من وسائل التماسك النصى.

ثم يعطف بين وصف هذه الساعة وساعة العثور عليهم، مع العلم بوجود جمل مقدرة بين هذين الوصفين تترك لخيال القارئ (متلقى النص) وهذا ما سوف نناقشه فى فصل الحذف لنبرز دوره فى تحقيق التماسك النصى. المهم أن هناك تماسكاً بين الآيات السابقة والآية (٢١) :

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا(٢١)﴾.

وتوجد كذلك روابط العطف داخل الآية نفسها.

ثم ينتقل النص القرآنى ليصف أقوال الناس عن عددهم فى الآية (٢٢) مستخدماً النعت والعطف :

﴿سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا(٢٢) وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا(٢٣)إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (٢٤) ثم يربط هذا بالحلقة الأخيرة من القصة بالعطف لما سبق بالآية (٢٥): ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ .

وهكذا تتماسك القصة نصياً عن طريق نوعين من التماسك النصى: **الأول:** التماسك الدلالى كما عرضنا **والثانى:** التماسك الشكلى عن طريق وسائل عديدة للتماسك النصى؛ يخصنا هنا منها العطف والنعت.

ثم يعقب على هذه القصة بآيات ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً، يتمثل فى العبرة من القصة؛ فى أنه إذا كان هذا موقف الفتية فى الصبر على الاعتزال عن الناس وعن الشهوات حفاظاً على دينهم، فإنه من الطبيعى أن يكون موقف الرسول صلى الله عليه وسلم ليس أقل منهم، بل :

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الآية (٢٩)

ويربط كذلك القصة ببيان عقاب الظالمين وثواب المؤمنين فى الآيات ٢٩، ٣٠، ٣١، ليبدأ من بعد قصة الجنتين ليوضح فيهما نموذجاً آخر يبين فيه عقاب الظالم وثواب المؤمن.

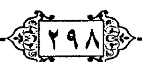
فصلت هذه القصة فى ثلاث عشرة آية، وقد استخدم فيها ستة وعشرون حرف عطف، ونعت واحد، وذلك لتحقيق التماسك بين كلمات القصة وعبارتها وجملها وآياتها. فمن أمثلة استخدامها للربط بين الكلمات قوله تعالى:

- ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾/٣٩

ومن أمثلة الربط بين العبارات قوله تعالى :

- ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾/٣٧

ومن أمثلة الربط بين الجمل قوله تعالى :



- ﴿جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾/ ٣٢
- ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا﴾/٣٣
- ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ / ٣٤
- ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ / ٣٧
- ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾/ ٤٠
- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ / ٤٢
- ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾/ ٤٣
- ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ / ٤٤

أما أمثلة الربط بين الآيات فمنها قوله تعالى :

- ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ ... الآية / ٣٢
- ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ / ٣٤
- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ / ٣٥
- ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾/ ٣٦
- ﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ / ٣٩
- ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا(٤٠)أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا(٤١)﴾

- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ... الآية(٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا(٤٣)﴾

هذه هى الروابط التى تحقق التماسك النصى من الناحية الشكلية، ومن الناحية الدلالية، فإن وحدة موضوع هذه القصة يكفل تحقيق التماسك الدلالى لها.

وقد أبانت هذه القصة، مثل سابقتها، ثواب الخير وعقاب الشر. وهذا رابط دلالى آخر، غير ما ذكرناه، يحقق التماسك بين هذه القصة والسابقة عليها. وسوف نفصل هذه الروابط أكثر فى فصل المناسبة ثم يأتى التعقيب على هذه القصة بآيتين شديدتى التماسك بها :

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا(٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا(٤٦)﴾

فهما توضحان مثل الركون إلى الدنيا، ومثل ابتغاء ما عند الله. وهذا ما حدث فى قصة الرجلين اللذين منح أحدهما جنتين وهذا تماسك دلالى واضح. مع ما فيه من مناسبة بين القصة والتعقيب، فالحياة الدنيا مثل هذه الجنة التى لم تدم لصاحبها ولم تنفعه لأنه ركن إليها وأنكر قيام الساعة وهو ظالم لنفسه. فالفناء والزوال من طبيعة هذه الدنيا.

ويتماسك هذا التعقيب من ٤٥ : ٤٩ فى كونه يعرض ليوم القيامة الذى يفرق فيه كل أمر، فترى ثواب من اعتز وتمسك بما عند الله، وعقاب من أنكر الساعة وعصى الله. وذلك كله تعقيب على القصة السابقة، وكذلك تمهيد للإشارة الموجزة لقصة آدم عليه السلام وامتناع إبليس عن السجود له.

هذه القصة تؤكد ظلم الإنسان لنفسه باتخاذ إبليس ولياً من دون الله، ولذلك كان التمهيد لهذه القصة محذراً لهم :

﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾/ ٤٩ .

ثم يعطف هذا التحذير الشديد اللهجة على القصة الموجزة لامتناع إبليس عن السجود :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ / ٥٠

ويتماسك نص هذه القصة دلالياً وشكلياً، الأول بتوحد موضوعها، أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم، ثم سجود الملائكة كلهم أجمعين إلا إبليس الذى أبى السجود وفسق عن أمر الله.

هذه هى القصة بإيجاز، وقد فصلتها سورٌ أخرى فى آيات كثيرة، كل سورة تفصل فيها القصة بالقدر الذى يتناسب مع غرض السورة ومناسبتها وعلى الرغم من هذا الموقف المتشدد لإبليس وعدم إذ عانه لأمر الله، فقد وجد له أتباع. وهذه التبعية هى التى جعلت صاحب الجنتين يطغى وينكر الساعة.

والتماسك الشكلى، من خلال التوابع، يظهر فى العطف

﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ و ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾.

ويتماسك التعقيب مع القصة، إذ يأمر سبحانه المضلين أن ينادوا شركاءهم المزعومين، وذلك يوم القيامة، ولكن هيهات هيهات. ثم يربط هذا، بالعطف بين الآيات، ليعرض مصير المجرمين. وظهرت الواو العاطفة فى بداية الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩ ثم يربط هذا كله بالقصة الرابطة؛ قصة موسى عليه السلام مع فتاه، ثم مع الخضر فى الآيات من ٦٠ : ٨٢ . والتماسك النصى لهذه القصة يظهر على محورين :

الأول : الدلالى، وهو بدوره يظهر على محورين :

١- محور الحوار بين موسى وفتاه، ثم بين موسى والخضر، ويظهر هذا فى (قال) أو لفظ القول الذى تكرر فى هذه القصة سبع عشرة مرة. وهذا من المحاور التى تحقق التماسك الدلالى فى القصة.

٢- محور وحدة موضوع القصة، فهى تصف رحلة موسى عليه السلام مع فتاه، ثم لقاءه مع الخضر ليدور بينهما هذا الحوار.

الثانى: التماسك الشكلى، وذلك عن طريق وسائل كثيرة، المرجعية، العطف، الحذف، التكرار، المناسبة.

وما يخصنا هنا هو دور التوابع فى تحقيق هذا التماسك. خاصة إذا علمنا أن هذه القصة لم تذكر فى القرآن إلا هذه المرة، ومن ثم فينبغى أن تكون قصة كاملة.

وقبل عرض دور التوابع فى تحقيق تماسكها نؤكد أن "قصة موسى مع العبد الصالح، ترتبط فى سياق السورة – بقصة أصحاب الكهف فى ترك الغيب لله، الذى يدبر الأمر بحكمته ... "(١).

فالتوابع تحقق التماسك بين كلمتين، وبين عبارتين، وبين جملتين أو جمل، وبين آيتين أو آيات.

فمن نماذج الربط بين كلمتين أو أكثر قوله تعالى :

- ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ / ٧٤

- ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ / ٧٧

- ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾/ ٧٩

-﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ / ٨٠.

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن، ٤ / ٢٢٨٢ .

- ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ /٨٢

ومن الملاحظ أن التماسك بين كلمتين لا يتحقق من خلال العطف وحده، بل يتحقق أيضاً من خلال النعت.

ومن نماذج الربط بين عبارة وعبارة قوله تعالى :

-﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ / ٧٨

ومن نماذج الربط بين جملة وجملة قوله تعالى :

- ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ / ٦٠

- ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ / ٦١

- ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾/٦٣

- ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ / ٦٤

-﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ / ٦٥

- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ / ٦٩

- ﴿قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ / ٧٣

- ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ﴾ / ٧٤

- ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾/٧٧

- ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ / ٧٩

- ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ / ٨٠

- ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾/٨٢

من الواضح أن أدوات التماسك بين الجمل أكثر من أدواته بين الكلمات وبين العبارات. وهذا طبيعى، إذ إن الجمل تصلح للتعبير عن الأحداث أكثر من غيرها من الكلمات والعبارات، ولا شك أن هذه السورة تقص أكثر من قصة ومن ثم كانت فى حاجة إلى الربط بين الجمل. ونرى أن أدوات التماسك بين الكلمات أو العبارات تكتفى بتحقيق التماسك على مستوى الجملة فقط على حين وجودها بين الجمل يحقق التماسك بين أركان النص. وكذا وجودها بين الآيات؛ فالتماسك النصى يظهر أكثر حينما تلاحظ أدواته بين الجمل وبين الآيات. ونلاحظ أنه كلما طال النص، كثرت أدوات التماسك النصى.

أما الأدوات الرابطة بين الآيات ففى قوله تعالى :

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ / ٦٠
- ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ / ٦١
- ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ﴾ / ٦٢
- ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا(٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا(٦٥)﴾
- ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ / ٧١
- ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ / ٧٤
- ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾/ ٧٧
- ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾/ ٨٠
- ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾/ ٨١
- ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾/ ٨٢

وكثرة هذه الأدوات تعكس التماسك النصى القائم بين جزئيات هذا النص الكريم الذى يتحدث عن قصة موسى مع فتاه ومع العبد الصالح.

ثم يربط مباشرة بين هذه القصة وقصة ذى القرنين وأصحاب الأخدود بحرف العطف الواو :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ / ٨٣ .

وهى تستمر من الآية ٨٣ إلى الآية ٩٩ .

والخطاب فى هذه السورة – كما هو ثابت فى كتب مناسبات النزول – موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك عندما سئل عن أهل الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح. ومن ثم بدأت هذه القصة بالفعل {ويسألونك}، هذا بالإضافة إلى ضمائر الخطاب الموجهة إليه صلى الله عليه وسلم فى السورة كلها.

وهذه القصة مثل سابقتها فى أنماط التماسك بين الكلمات، وبين العبارات، وبين الجمل، وبين الآيات. وفى نهاية التحليل نجد نمطاً آخر من أنماط التماسك، وهو التماسك بين الفقرات أو النصوص الفرعية المكونة للنص الرئيسى، كما يتحقق هذا فى العلاقة بين هذه القصص الخمس.

ومن نماذج النمط الأول قوله تعالى :

- ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ / ٨٦
- ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ /٨٧
- ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾/ ٨٨ . أى :عمل عملاً صالحاً.
- ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ / ٨٨ . أى : قولاً يسراً
- ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾/ ٩٠
- ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ / ٩٣

- ﴿الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ / ٩٤

ومن نماذج النمط الثانى قوله تعالى :

- ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ / ٩٤
- ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ / ٩٥

ومن النمط الثالث قوله تعالى :

- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ / ٨٤
- ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ / ٨٦
- ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ / ٨٦
- ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ / ٨٧
- ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾/ ٨٨
- ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ / ٩٧

أما نماذج النمط الرابع فمنها قوله تعالى :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ / ٨٣

ويلاحظ أن قصة الرجلين، وقصة آدم وإبليس، وقصة موسى عليه السلام مع فتاه والعبد الصالح، وقصة ذى القرنين. كل واحدة منهن تبدأ بحرف العطف {واضرب لهم مثلاً رجلين}، {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم}، {وإذ قال موسى لفتاه}، {ويسألونك عن ذى القرنين}. على حين قصة أصحاب الكهف لا تبدأ بهذا العطف، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ترابط القصص الأربع مع القصة الأولى. وكذا يدل على تماسك هذه القصص الخمس داخل النص الأساسى للسورة.

ومن بين نماذج النمط الرابع كذلك قوله تعالى :

- ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ / ٨٥
- ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ / ٨٨
- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ / ٨٩، ٩٢
- ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ / ٩٧
- ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ / ٩٩

ويتماسك نص هذه القصة دلالياً من خلال محورين، كما حدث فى قصة موسى مع فتاه والعبد الصالح.

الأول: محور الحوار القائم بين الذين سألوا رسول الله عن ذى القرنين، ورد الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بين ذى القرنين ومحاوريه.

الثانية: محور الوحدة الدلالية الموضوعية لهذه القصة، إذ إنها تتحدث عن ذلك الرجل الذى طاف المشرق والمغرب وبين السدين.

ونظراً لأن هذه القصة قد أبانت ما يحدث للظالمين، وللمؤمنين، فقد كان التعقيب المباشر عليها وحتى نهاية السورة مرتبطاً بها. وهذا التماسك يبدأ من الآية (٩٩) :

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا(٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا(١٠٠)﴾

ثم يتوالى وصف مصير هؤلاء الظالمين حتى الآية (١٠٦) :

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ .

ثم يليها مباشرة وصف حال المؤمنين، وقد سبق وصفهم فى القصة :



﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ / ٨٨ . ثم يؤكد هذا الوصف من الآية ١٠٧ : ١٠٨ ولا شك أن هذا التقابل الدلالى يسهم فى الربط بين المتقابلين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً(١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً(١٠٨)﴾ ثم تختم السورة بقوله تعالى :

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ / ١١٠.

ويلاحظ أن نهاية السورة يؤكد قضية السورة الأساسية "التوحيد" ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

وقد تأكد هذا المضمون كثيراً فى السورة وسوف يفصل أكثر فى فصل المناسبة.

وهكذا تلتقى القصص الخمس مع موضوع السورة حيث تؤكد هذه القصص طبيعة الطرفين المتضادين؛ طرف المؤمنين، وطرف العاصين أو الكافرين، لتؤكد أن الفوز دائماً مع الطرف الأول. وهذا وجه من وجوه التماسك الدلالى فى السورة. وكذلك تأكد دور التوابع فى تحقيق التماسك النصى داخلياً على مستوى كل قصة، وخارجياً على مستوى العلاقة بين هذه القصص على مستوى السورة.

"ســـورة القصـــص"

ومن السور المكية التى تتضح فيها معالم التماسك النصى بصورة جلية، سورة "القصص"؛ فالربط بين أولها وآخرها، ثم بين موضوعاتها وما يليها من تعقيبات، بل بين أولها وآخر سورة "النمل" التى تسبقها فى الترتيب المصحفى، كما سيأتى فى باب المناسبة، ثم بين الآيات والجمل والعبارات والكلمات. مع ما فيها من تماسك دلالى واضح.



وتكمن وحدة هذه السورة وتماسكها فى كونها تناقش قضية واحدة عبر موضوعين، أما القضية فهى قضية هيمنة الله وسيطرته وقوته التى لا تعادلها قوة وظهرت هذه القوة عبر موضوعين؛ الأول موضوع موسى عليه السلام مع فرعون الذى علا فى الأرض وأفسد فيها واستضعف أهلها وذبح أبناءهم ... إلخ من الأفعال التى لا يظن معها أن هناك أقوى منه، معاذ الله. ولكن تظهر قوة الله فى نصرته لموسى عليه السلام والفئة المستضعفة التى معه، وهزيمة فرعون وجنوده بالغرق فى اليم.

أما الموضوع الثانى فهو موضوع قارون وأمواله وغروره بماله وعلمه على الرغم من نصح الناصحين. ثم تظهر قوة الله التى لا تغلبها قوة لتخسف به وبداره وأمواله الأرض.

ويذهب الأستاذ سيد قطب إلى أن هذه السورة "نزلت والمسلمون فى مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان ..."(١). وهذا يؤدى بنا إلى الربط بين هاتين القصتين، وما كان المسلمون فيه آنذاك من ضعف، وأن بشرى النصر لهم سوف تتحقق. والقرآن والسنة والسيرة، كل منهم قد أكد هذا النصر لهذه الفئة المستضعفة، والهزيمة لأعداء الله والدين.

وتتعانق أدوات التماسك النصى كلها لتبرز تماسك هذه السورة المباركة، ونخص منها هنا دور التوابع؛ فالجداول تظهر الإحصاءات التالية فى السورة :

مسلسل	التابع	عدد مرات وروده فى السورة	المجموع
١	العطف	أو/ ٢، ثم / ٢ ، الفاء / ٧٠ ، الواو/ ١٤٥	٢١٩
٢	النعت	٣٥	٠٣٥
٣	البدل	٠٥	٠٠٥
٤	التوكيد	٠٠	٠٠٠
المجموع الكلى			٢٥٩

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن، ٥/ ٢٦٧٣ .

ويلاحظ أن هذا الكم الكبير من عدد مرات ورود التوابع قد جاء فى سورة عدد آياتها ثمان وثمانون آية فقط. وهذا العدد لوسيلة واحدة من وسائل التماسك النصى. وهذا يعكس قدر تماسك نص هذه السورة.

وتستغرق قصة موسى ثلاثاً وأربعين آية من السورة، ثم يعقب عليها بآيات موجهة إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم حتى الآية الخامسة والسبعين.

ثم تبدأ قصة قارون، وقد كان من قوم موسى كذلك، من الآية السادسة والسبعين إلى الآية الثانية والثمانين. ثم يعلق بآيات تتناسب وتتماسك مع هاتين القصتين لإظهار العبرة منهما، وذلك من الآية الثالثة والثمانين إلى آخر السورة.

وهذا التقسيم للسورة يجعلنا نحلل قصتين، ثم نربطهما معاً بموضوع السورة، لنحاول فى النهاية إبراز التماسك النصى للسورة كلها[1].

فى بداية القصة نجد وعد الله لعباده المستضعفين بالاستخلاف فى الأرض والتمكين فيها:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾/٥

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ / ٦

ثم تأتى نهاية القصة لتؤكد هذا الوعد بشأن فرعون وجنوده، وبشأن الفئة المستضعفة. غير أن وعد الفئة المؤمنة ورد فى نهاية السورة :

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ /٨٣ .

(١) جعل د. خطابى "تعالق الوقائع التى تشير إليها القضايا - [أو ترابطها] - " شرطاً من شروط الترابط. انظر: لسانيات النص ص ٣٣. وهذا ما سوف نحاول تحقيقه أو إثباته فى هذه السورة. وغيرها من السور.

وهذا تماسك على مستوى القصة من ناحية وعلى مستوى السورة من ناحية أخرى.

أما الوعد الخاص بفرعون وجنوده.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٤٢) .

ففى الوقت الذى جعل الله عباده المؤمنين أئمة للخير، وجعلهم الوارثين، نجده سبحانه وقد جعل فرعون وجنوده أئمة يدعون إلى النار.

هذا فضلاً عن التماسك القائم بين أول السورة وآخرها فى الحديث عن الكتاب:

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٢) . وفى نهاية السورة :

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ... الآية (٨٦)

وقصة موسى عبارة عن أحداث متتالية، بالطبع ليست هذه القصة كلها.

لكنها تمثل مراحل معينة من قصته، تبدأ من قبل ولادته بموقف فرعون من ميلاد كل ذكر بالمدينة، وذلك بذبحه، ثم تمر بعدة أحداث، تنتهى هذه الأحداث بغرق فرعون وجنوده فى اليم ونجاة موسى والمؤمنين معه.

وتماسك هذه الأحداث، كما سنرى، فيما بينها، تماسكاً دلالياً، وآخر شكلياً.

أما الدلالى، فيتمثل فى الوحدة المعنوية للقصة، إذ إنها تعبر عن مواقف متتالية بين فرعون وموسى عليه السلام. وتعاقب الأحداث، وتوقف بعضها على بعض يُعد نمطاً من أنماط التماسك الدلالى.

أما الشكلى، فيتمثل فى الروابط الشكلية التى تربط بين الكلمات، والعبارات، والجمل، والآيات، بل الفقرات كذلك.

من هذه الروابط العطف والنعت والبدل. ومن نماذج التماسك بين

الكلمات قوله تعالى:

- ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ /٣
- ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ / ٦
- ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ /٨
- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ /٨
- ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ /١٤
- ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ / ١٥
- ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ /٢.
- ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ /٢١
- ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ / ٢٣
- ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ / ٢٥
- ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ / ٢٩
- ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ / ٣.
- ﴿مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ /٣.
- ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ / ٣٢
- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ /٣٢
- ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ /٣٥
- ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ / ٣٦
- ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ / ٣٨
- ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ / ٣٩

- ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ / ٤٠
- ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى﴾ / ٤٣
- ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾/٤٣

فلا يتصور كون هذه الكلمات متجاورة دون وجود هذه الروابط، إذ إنها تصبح كلمات متراصة لا دلالة تامة لها؛ فلا يجوز مثلاً، فى غير القرآن، فأخذناه جنوده " على أساس أن "جنوده " معطوفة على الضمير، دون وضع الرابط بينهما. وكذا لا يحدث هذا مع العبارات المتجاورة.

ومن نماذج العبارات قوله تعالى :

- ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ / ٩
- ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ / ٢٨
- ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ / ٢٩

أما نماذج الجمل فقوله تعالى :

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ / ٤

فقد اشتملت هذه الآية على هذه الروابط الأربع، وكلها تحيل أو تربط بين أفعال مسندة إلى فرعون. وتوالى هذه الروابط فى آية واحدة يعكس شدة الأذى من فرعون لقومه؛ فلم يقف الإيذاء عند نوع واحد؛ بل تعدد كما هو واضح فى الآية. وقد حققت مرجعية الضمائر كذلك فى هذه الآية تماسكاً؛ حيث إن الأفعال (جعل، يستضعف، يذبح، يستحى" تشتمل على ضمائر تحيل إلى فرعون المذكور فى أول الآية، وهى مرجعية سابقة. ومن ثم تعاونت الضمائر مع روابط التوابع فى تحقيق تماسك هذه الآية.

ومن بين هذه النماذج كذلك قوله تعالى :

- ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً

وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ /٥

- ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ /٦

وهاتان الآيتان وكأنهما تعقيب على الآية الرابعة؛ فالرابعة تظهر قوة فرعون، بينما الخامسة والسادسة تظهران قوة الله سبحانه وتعالى التى لا تقابلها قوة، وتظهران كذلك وعد الله للفئة المستضعفة. ولذلك تطلب هذا الأمر وجود روابط تحقق التماسك النصى للأفعال المسندة إلى الله تبارك وتعالى. وهاتان الآيتان كأنهما آية واحدة، فبينهما تماسك دلالى فى وحدة الموضوع، ففيهما الرد على فرعون. وكذلك التماسك الشكلى؛ فقد حدث التماسك بين الخامسة والسادسة بواو العطف التى فى أول السادسة.

ومن بين نماذج التماسك بين الجمل قوله تعالى :

- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ /٧
- ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ / ٩
- ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ / ١١
- ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ / ١٢
- ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ / ١٣
- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ / ١٤
- ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾/١٥

- ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ / ١٩
- ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ / ٢٣
- ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ / ٢٤
- ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ / ٢٥
- ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ﴾/٢٥
- ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ / ٢٩
- ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ﴾ / ٣١
- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ / ٣٢[1].

والملاحظ أن هناك تسعة وأربعين رابطاً فى آيات هذه القصة وحدها تربط بين الجمل، بخلاف روابط الكلمات، والعبارات والآيات، وهذا يعكس قدر التماسك النصى القائم بين مكونات هذه القصة؛ فدلالة الإحصاءات واضحة، وهذا ليس على مستوى سورة القصص فقط، بل على مستوى سور القرآن الكريم كلها.

أما نماذج الروابط بين الآيات، فقد لوحظ أن عدد الآيات التى بدأت برابط يربطها بسابقتها هو اثنتان وثلاثون آية، كلهن تبدأ برابط نصى. مع ملاحظة أن الآية التى لا تبدأ بهذا الرابط الشكلى، فإنها تتماسك مع سابقتها دلالياً فى مثل آيات الحوار؛ قال وقلت، فى مثل ١٦، ١٧، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٣، ٣٥. وهذا يعطى، مع ما سبق بيانه، دلالة واضحة على تماسك مكونات هذه القصة فيما بينها. هذا إضافة إلى الروابط الدلالية والشكلية التى تحقق

(١) انظر كذلك الآيات ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٢.

التماسك بين مشاهد هذه القصة وأحداثها المتنوعة، والتى تبدأ من قبل ولادة موسى عليه السلام وحتى نجاته وتابعيه من فرعون وجنوده.

ولنعرض بعض نماذج التماسك بين الآيات مثل قوله تعالى :

- ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ /٥
- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ / ٧
- ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ /٨
- ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ /٩
- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ /١٠.
- ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ / ١١
- ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ /١٢
- ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ﴾ /١٣

إلى هنا تنتهى الآيات من الحديث عن فترة الرضاعة والطفولة لتترك لنا نصاً متماسكاً عن هذه الفترة، لكى تصل إلى فترة الشباب. "لما بلغ أشده"، ويترك لنا النص هذه الفترة من حياته من بعد رجوعه إلى أمه إلى أن بلغ أشده وبدأ رحلته الثانية فى المدينة.

ونلاحظ دور روابط العطف بين هذه الآيات من ٥: ١٣ دون حذف أى رابط خلال هذه المسافة. ليتحقق التماسكان الدلالى والشكلى؛ فلو تخيلنا هذه الآيات بجوار بعضها، دون وضع فواصل الآيات، واستخدمنا هذه الروابط. لوجدنا كيفية تماسك هذا النص من خلال وحدة الفترة، ومن خلال استخدام الروابط.

ولا يخفى ما بين هذه الآيات من أحداث حذفت لتترك لعقل المتلقى

للنص فرصة التفكر والتخيل لأحداث هذه الفترة، وهذا – فيما نرى – من أساليب الترابط بين قائل النص والنص والمتلقى، وسوف نوضحه بصورة تفصيلية فى فصل الحذف.

ثم تبدأ حلقة جديدة من حلقات القصة تبدأ من الآية "١٤" حيث بلغ موسى أجله وآتاه الله الحكم والعلم، إلى أن تنتهى عند الآية "٢٨" عندما تزوج إحدى الفتاتين ووعد بقضاء أحد الأجلين.

ونماذج الروابط المستخدمة بين الآيات قوله تعالى :

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ / ١٤
- ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ... الآية ﴾ / ١٥

ثم تأتى آيتان تنقلان توبة موسى عن هذا العمل، ومغفرة الله له. ولكن لم تستخدم روابط شكلية للربط بين هاتين الآيتين والآية السابقة عليها ومع ذلك يتحقق التماسك النصى ولاليا، لأن هاتين الآيتين تعبران عن توبته،وهذه التوبة مسببة عن العمل الذى اقترفه وذكرته الآية السابقة على هاتين الآيتين.

ثم يأتى دور الروابط الشكلية مرة أخرى فى قوله تعالى :

- ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾/ ١٨
- ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾/١٩
- ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ /٢٠
- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ /٢١

- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ / ٢٢
- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ... الآية﴾ / ٢٣
- ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾/ ٢٤
- ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ... الآية﴾/ ٢٥

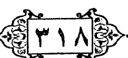
ثم تأتى الآيات من ٢٦ : ٢٨ دون استخدام الروابط الشكلية، لكنها تتماسك دلالة من خلال استخدام لغة الحوار؛ قالت وقال، وهذه اللغة – فيما نرى – تمثل نمطاً من الأنماط التى تحقق التماسك النصى.

ويلاحظ فى الآيات السابقة شيوع استعمال أدوات الربط بينها بصورة واضحة تعكس قدر تماسكها فيما بينها، وتعكس كذلك الأهمية الكبرى لهذه الأدوات فى تحقيق التماسك النصى[١].

ثم تأتى المرحلة الأخيرة من هذه القصة والتى تبدأ من شاطئ الوادى الأيمن، حيث تلقى التكليف بالدعوة، وتنتهى بنجاته من فرعون وغرق الأخير وجنوده فى اليم. وتتناول السورة هذه المرحلة من الآية ٢٩ : ٤٣. ومن نماذجها.

- ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ... الآية﴾/ ٢٩
- ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ / ٣٠
- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ... الآية﴾ ٣١

(١) هناك جوانب كثيرة فى تحليل القصص، لكن هذه الجوانب من اهتمامات دارسى النقد الأدبى، وهى لا تتصل بموضوعنا.



ثم يأتى أمر ثان من الله أن يسلك يده فى جيبه وأن يضم إليه جناحه من الرهب، وذلك دون استعمال روابط شكلية، ومع ذلك يحدث التماسك نظراً لوحدة الموضوع؛ فهذه الآيات تتناول الأوامر الموجهة من الله تعالى إلى نبيه موسى عليه السلام. ثم يكلف بالذهاب إلى فرعون لدعوته :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرًى ...﴾ الآية / ٣٦

- ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ... الآية﴾/٣٧
- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ... الآية﴾ /٣٨
- ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ﴾ /٣٩
- ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ... الآية﴾ / ٤٠
- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ﴾ / ٤١
- ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ / ٤٢
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ... الآية﴾/٤٣

وهكذا تتماسك الحلقات كلها لتخرج لنا نصاً متماسكاً شكلاً ودلالة عن طريق الروابط الشكلية والدلالية.

ونلاحظ أن التابع المستعمل للربط بين الآيات على وجه الخصوص هو عطف النسق. بل عطف النسق هو أكثر التوابع استعمالاً فى القرآن الكريم كله. ومن المعلوم أن من أهم وظائف عطف النسق هو الربط بين المعطوف والمعطوف عليه إضافة إلى الوظائف الأخرى التى فصلتها كتب النحو والبلاغة.

أما التعقيب على هذه القصة، فإنه ليس تعقيباً واحداً، بل عدة تعقيبات

وذكر فى تفسيرها أنها توضح "أين يكون الأمن وأين تكون المخافة، وتجول مع المشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمعاذير، تجول معهم جولات شتى فى مشاهد الكون، وفى مشاهد الحشر، وفيما هم فيه من الأمر ..."[١].

وأن هذه التعقيبات كذلك "طوفت بالنفوس والقلوب فى تلك الآفاق والعوالم والأحداث والمشاهد. وردتها من الدنيا إلى الآخرة، ومن الآخرة إلى الدنيا. وطوفت بها فى جنبات الكون وفى أغوار النفس، وفى مصارع الغابرين، وفى سنن الكون والحياة، متناسقة كلها مع محور السورة الأصيل. ومع القصتين الرئيسيتين فى السورة: قصة موسى وفرعون و قصة قارون[٢].

وكما بدأت القصة بتوجيه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ﴾/٣ ،

نجدها بعد انتهاء القصة مباشرة بإعادة الخطاب إليه مرة أخرى :

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾/٤٤ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ / ٤٦ .

ونلاحظ بداية التعقيب بالعطف، وكأنه يعطف هذا التعقيب على القصة من ناحية، وعلى الآية "٣" من ناحية أخرى وفى هذا إبراز للتماسك النصى لهذه القصة.

والتعقيب الأول يتماسك نصياً من ناحيتى الشكل والدلالة؛ فمن ناحية الشكل يتماسك عن طريق استخدام أدوات الربط.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ /٤٤، ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾/٤٤ ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ /٤٥، و ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا﴾ /٤٦ .

---

(١) سيد قطب : السابق، ٥/ ٢٦٩٧ – ٢٦٩٨

(٢) السابق ، ٥/٢٧٠٩

ومن ناحية الدلالة نجد التعقيب الأول " يدور حول دلالة هذه القصة على صدق دعوى الوحى .... "(١). لذلك وجدنا بداية السورة تؤكد هذا؛:

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ /٣

ثم يردف النص القرآنى بتعقيب ثان. وقبل ملاحظة هذا التعليق، نلاحظ أن هذه التعليقات تتعلق بموقف الرسول صلى الله عليه وسلم مع الذين يدعوهم، والبشر طبيعتهم واحدة فى كل عصر؛ فقد واجه الرسول كثيرُ من البشر بالإنكار والتكذيب؛ وهذا ما حدث مع موسى عليه السلام من قبل. وفى هذا تماسك دلالى بين القصة والتعقيب.

ولذلك يأتى التعقيب الثانى ليؤكد أنه إذا ازداد الالتواء والتكذيب، فإنه على الرسول أن يذكرهم بالذين أوتوا الكتاب من قبل، وأنهم آمنوا به وصدقوا، ثم عندما جاءهم القرآن صدقوا به كذلك، لأن الكتب السابقة قد بشرت به.

ويتماسك هذا التعقيب من ٥٢ : ٥٥ عن طريق استخدام روابط العطف من ناحية، وروابط الإشارة من ناحية أخرى :

- ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ / ٥٣
- ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ... الآية﴾/ ٥٤
- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ... الآية ﴾ /٥٥

ويضم هذا التعقيب وحدة دلالية واحدة؛ إذ إنه يتحدث عن أهل الكتاب

(١) نزلت هذه الآيات "٥٢" إلى نهاية التعقيب الثانى، فى أصحاب النجاشى الذين آمنوا بالقرآن لما سمعوه، لأن المسيحية التى كانوا مؤمنين بها قد بشرت بهذا الرسول وكتابه القرآن الكريم، - لذلك قالوا ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾/٥٣. =

= انظر مناسبات هذه الآيات فى أسباب النزول للسيوطى، ١٥١، ١٩٠. وانظر: فى ظلال القرآن، ٥/ ٢٧٠٠.



الذين آمنوا بالقرآن لما سمعوه.

ويقابل السياق بين موقفين شبه متناقضين؛ فأهل الكتاب قد آمنوا مباشرة عندما سمعوا بالقرآن الكريم، وفى الوقت نفسه لم يؤمن أبو طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم، الذى طال ما عرض عليه الرسول الإيمان، حتى آخر لحظة من حياة عمه ومع ذلك لم يؤمن وكانت نفس الرسول تهفو لهذا الإيمان لكن الله تعالى بحكمته يقول :

﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾/ ٥٦

وفى هذا التقابل بين الموقفين نمط آخر من أنماط التماسك الدلالى بينهما ولا يخفى ما للتقابل وغيره من ألوان البديع كالجناس ورد العجز على الصدر والطباق ... إلخ من أثر فى تحقيق التماسك النصى[١].

ثم يربط بتعقيب آخر يتناسب ويتماسك مع القصة أشد ما يكون التماسك؛ فهو يعرض لموقف المشركين وخوفهم من أن تكون عاقبة إيمانهم بالرسول أن يتخطفهم الناس فى شبه الجزيرة ويعادونهم. ولذلك يوضح النص أن الأمن لا يكون إلا فى جوار الله، كما حدث مع موسى والمؤمنين به من نجاة، وأن الخوف لا يكون إلا فى البعد عن الله، كما حدث مع فرعون وجنوده من غرق لمعاداتهم لدعوة الله. ويعرض لهم مصارع الغابرين وأن هلاكهم لم يكن إلا لظلمهم وتكذيبهم لرسلهم. ويذكرهم بأن غرور الدنيا هذا لن يبقى { وما عند الله خير وأبقى}/٦٠. ويضعهم فى نهاية هذا التعقيب أمام مقابلة الذين ركنوا إلى الدنيا وزينتها بهؤلاء الذين وعدهم الله الوعد الحسن. وهؤلاء وأولئك أمام الله يوم القيامة. هل يستوون؟!

---

(١) قام مؤخراً أحد الباحثين بإجراء بحث تناول فيه العلاقة بين ألوان البديع واللسانيات النصية وكيف تسهم هذه الألوان فى تماسك النص.

انظر : د. جميل عبدالمجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٨، ص ٧٥ : ١٧٨ .



وهذا التعقيب كله فيه تماسك دلالى وتماسك شكلى. ودور التوابع فى تحقيق تماسكه ظاهر؛ فمن ٥٦ : ٦٢ استخدمت روابط العطف إلا فى آية واحدة كانت شبه تفسير للسابقة عليها، وفى التفسير نوع آخر من التماسك الدلالى.

وفى مثل هذه التعقيبات التى تتماسك مع القصة المذكورة سابقاً، نرى أنها نوع جديد من "رد العجز على الصدر"؛ إذ إن التعقيب يعرض لمثل ما عرضت له القصة؛ فالتعقيب يعرض للخوف من اتباع الرسول، وهذا ما حدث فى القصة، والتعقيب يعرض لسبب هلاك الناس، وهذا ما حدث فى القصة والتعقيب يظهر لمن يكون الأجر الحسن، وفى القصة مثل ذلك. الاختلاف الوحيد هو اختلاف زمن الموقفين مع اتفاق الغاية. وهذا نمط من أنماط التماسك الدلالى كذلك.

ثم يأتى التعقيب التالى، وفيه عرض لموقف هؤلاء الذين اتخذوا شركاء من دون الله، ما موقفهم يوم القيامة ؟

ويتماسك هذا التعقيب كذلك من خلال استخدام أدوات العطف الرابطة من ٦٢ : ٦٧، ليتحقق بها التماسك الشكلى. بينما لغة الحوار؛ إذ يوجد لفظ القول فى هذه الآيات خمس مرات، تحقق التماسك الدلالى لهذا التعقيب.

ويتماسك هذا التعقيب مع القصة، فالقصة عبرت عن اتخاذ الشريك من دون الله، وعاقبة المؤمنين، وعاقبة المكذبين. وكذا عبر هذا التعقيب.

ويرجع الله تعالى هذا كله إلى مشيئته سبحانه واختياره. ثم يصل بعد ذكر هذه المشيئة إلى ذكر بعض الآيات الكونية ليظهر خلقه لهذه الآيات ثم يختمها بقضية اتخاذ الشريك من دون الله مرة أخرى، ليحدث التماسك الدلالى، وليمهد لقصة قارون مع قومه :

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ / ٧٤

ويتماسك نص التعقيب بالآيات الكونية على مستوى محورين؛ المحور الدلالى، والمحور الشكلى، الأول بوحدة موضوعه، والثانى باستعمال أدوات العطف الرابطة بين الآيات ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥ إلى أن يصل إلى القصة



الثانية الأساسية فى هذه السورة الكريمة "قصة قارون" ولا شك أنه هناك وسائل تحقق التماسك النصى غير أدوات العطف هذه.

وكما كانت قصة موسى وفرعون تمثل عنصر الخير المتمثل فى موسى وأخيه وأتباع موسى، وعنصر الشر المتمثل فى فرعون وجنوده، وما يستدعيه هذا الشر من الكبرياء والإيذاء والقتل ومعارضة الدعوة وادعاء الألوهية من دون الله ... إلخ ثم مصائر هؤلاء المؤمنين وأولئك الكافرين، وأن النصر حليف للمؤمنين. كما كانت هذه القصة كذلك. فإن قصة قارون تتماسك مع قصة فرعون من وجوه كثيرة؛ ففيها عنصر الخير المتمثل فى هؤلاء الناصحين لقارون، وعنصر الشر المتمثل فى قارون الذى آتاه الله المال الكثير، فبغى ونسى حق الله، وتكبر فى الأرض، وأنكر فضل الله عليه فى هذا الملك. وانقسم الناس إلى فريقين؛ أحدهما تابع له، وهؤلاء الذى طلبوا الدنيا. والثانى ناصح له ولهم، وهؤلاء يريدون ثواب الله. ثم يأتى أمر الله الذى فصل هذه القضية ليخسف بقارون وبداره الأرض، كما أغرق فرعون وجنوده بعد أن ادعى الألوهية. ثم يعقب على هذه القصة بأن الدار الآخرة سوف يجعلها ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ /٨٣

و﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾/٨٤ .

فالآخرة بالطبع ليست لأمثال فرعون وجنوده، وليست لقارون وأمثاله.

وقد بدأت السورة بوصف فرعون بأنه ﴿علا فِي الأَرْضِ﴾ وكذلك قارون اتبع الفساد فى الأرض.

من هذا لعرض يتضح ما بين القصتين من تماسك نصى ينعكس على تماسك السورة نفسها. وهذا التماسك تماسك دلالى.

أما التماسك الشكلى فى قصة قارون، على وجه الخصوص دور التوابع فى تحقيق هذا التماسك، فهو قائم على التماسك بين الكلمات والعبارات والجمل والآيات.

ففيه تماسك بين الكلمات مثل قوله تعالى :

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ /٧٧

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ٧٨، و ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ / ٧٩ و ﴿قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ /٧٩ و ﴿لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ /٨٠ ... إلخ.

ومن نماذج العبارات قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ /٨١ ..

ومن نماذج الجمل قوله تعالى :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ /٧٦

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾/٧٧، و ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾/.

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾/٨١ .. إلخ.

وأما نماذج التماسك بين الآيات، فإنه يسير على محورين :

الأول: دلالى؛ حيث وحدة الموضوع، ولغة الحوار بين قارون والمؤمنين الناصحين والتابعين لقارون؛ لذلك تكرر لفظ القول خمس مرات. وعدد الآيات التى بدأت بالعطف أربع آيات، كل منها يربط بين آيتين، فـــ (٧٧) ربط بين ٧٦، ٧٧ و(٧٩) ربط بين ٧٨، ٧٩ ، و(٨٠) ربط بين ٧٩، ٨٠، و (٨٢) ربط ين ٨١، ٨٢ . فربطت هذه الحروف بين ثمانى آيات من بين تسع آيات.

فهذه الأدوات؛ العطف والنعت، تسهم فى تحقيق تماسك هذا النص. وهذا واضح من دورها الترابطى، ومن تخيل هذه القصة، فيما دون القرآن، بدون هذه الأدوات!

ثم يأتى التعقيب على هذه القصة بالطريقة نفسها. التعقيب الذى ورد بعد قصة موسى عليه السلام مع فرعون، فقد بدأ التعقيبات هناك وهنا بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ / ٨٥
- ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ /٨٦
- ﴿وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾/٨٧
- ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾/٨٨

فهذا التعقيب فيه وعد بالتمكين للرسول صلى الله عليه وسلم، والعودة إلى بلده التى أخرجه أهلها منها. وهذا الوعد قد تحقق بالفعل وكذا كان نصر موسى على فرعون، ونصر الفئة المؤمنة على قارون بيد الله تعالى. فلا خوف فى جنب الله أبداً. وهكذا تتحقق العبرة من القصص.

ويلاحظ التماسك النصى بين هذه الآيات الأربع؛ ففيها وحدة الخطاب، المتكلم والمخاطب، وفيها الأوامر والنواهى فى خمسة مواضع.

وأوجه المناسبة بين هذه التعقيبات كلها والقصص سوف نعرضها فى فصل المناسبة على مستوى السورة المفردة.

وبعد هذا التماسك الدلالى فى هذا التعقيب، نجد التماسك الشكلى متمثلاً فى الروابط العطفية، فى الآيات ٨٧، ٨٨ لتربط بين الآيات الأربع إضافة إلى الربط بين الكلمات، والجمل، والآيات.

ويتأكد لنا بعد هذا العرض الموجز لدور التوابع فى تحقيق تماسك هذه السورة أن لها دوراً كبيراً فى تحقيق تماسكها، بين الكلمات والعبارات



والجمل والآيات، بل وبين النصوص الفرعية المكونة لهذه السورة[1].

وكذا يمكن تحليل دور التوابع على مستوى السور الأخرى التى تحمل قصصاً قرآنياً مثل يوسف، ومريم على سبيل المثال.

"سورة المـــــــلك"

وقد سبق أن تحدثنا عن أهمية الآية الأولى فى هذه السورة، وهو ما يقابل الحديث عن أهمية الجملة الأولى فى أى نص آخر. وقد ذكرنا أن دلالة السورة كلها قد تدور حول هذه الآية الأولى، والسورة التى نحن بصددها من هذا النوع "فمفتاح السورة كلها، ومحورها الذى تشد إليه .... هو مطلعها الجامع الموحى :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ /١ .

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التى عرضتها السورة، وسائر الحركات المضمرة والظاهرة التى نبهت القلوب إليها.

فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة، وكان الابتلاء بهما. وكان خلق السموات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين. وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها. وكان العلم بالسر والجهر. وكان إمساك الطير فى السماء. وكان القهر والاستعلاء وكان الرزق كما يشاء. وكان الإنشاء وهبة السمع والإبصار والأفئدة. وكان الذرء فى الأرض والحشر. وكان الاختصاص بعلم الآخرة. وكان عذاب الكافرين. وكان الماء الذى به الحياة وكان الذهاب به عندما يريد ....

---

(١) أكد علماء النصية أن "الشرط الأدنى لترابط القضايا التى تعبر عنها جملة أو متتالية هو ارتباطها بموضوع (موضوعات) التخاطب نفسه " انظر : د٠محمد خطابى: لسانيات النص، ص ٣٤ نقلاً عن :

Van Dijk, T. A. (1977) , text and context, Longman, london, P. 52

فحقائق السورة وموضوعاتها كلها وصورها وإيحاءاتها مستمدة من إيحاء ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير ... وهى مفسرة لمدلول المطلع المجمل الشامل .... "[1].

فالظواهر والأحداث التى فى السورة ترتد كلها إلى كون الله تعالى هو الخالق لهذا كله، والمسير له، ومن ثم ترجع كلها إلى أنها من ملكه سبحانه وأنه قادر على هذه المخلوقات كلها.

وهذا يؤدى إلى نتيجة مؤداها الوحدة الدلالية لهذه السورة. وقد كان لكل وسيلة من وسائل التماسك النصى دورها فى تحقيق هذه الوحدة وذلك التماسك.

ومن هذه الوسائل "التوابع" ، تلك التى تسهم فى إبراز تواصل الأحداث والظواهر واستمراريتها عبر آيات السورة كلها.

والمدقق فى الموضوعات التى تتناولها السور المكية بصفة عامة يلاحظ وحدة موضوعاتها غالباً. وذلك ناتج عن السياق العام المحيط بالمسلمين آنذاك إذ كان الهدف هو إرساء قواعد العقيدة وترسيخها، وذلك قبل التشريع والتكليف.

والسياق كما ذكرنا يمثل مبدأً مهماً من مبادئ التماسك النصى، بل من مبادئ التحليل اللغوى بصفة عامة [2].

وقد رأينا كيفية تماسك هذه السورة عن طريق مرجعية الضمائر. أما عن طريق التوابع، فأول ما يلاحظ فى هذا التحليل هو انتشارها فى السورة ومقدار هذا الانتشار. وهذا يتضح من الجدول التالى :

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ٦/ ٣٦٣٠ - ٣٦٣١

(٢) انظر د. محمد خطابى: لسانيات النص، ص ٥٢ وما بعدها.

مسلسل	التابع	عدد مرات وروده فىالسورة	المجموع
١	العطف	أو /٣، ثم / ١، الفاء/ ١٢، الواو/٢٨، أم /٤	٠٤٨
٢	النعت	٧ مرات	٠٠٧
٣	البدل	٦ مرات	٠٠٦
٤	التوكيد	-----	٠٠٠
المجموع			٦١

وتقسيم هذه السورة المباركة إلى مقاطع، كل مقطع يحمل وحدة معنوية معينة ترتبط بموضوع السورة، كما حدث فى السور السابقة، هو أمر غير متاح هنا؛ لأن السورة كلها تدور حول محورها الأصيل المتمثل فى اسمها "الملك"؛ فكلها تدور حول ظواهر وأحداث مرتبطة بهذا الملك.

وتظهر وظيفة التوابع بين الكلمات المفردة، والعبارات، والجمل، والآيات فمن نماذجها بين الكلمات المفردة على مستوى السورة كلها قوله تعالى:

- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾/١
- ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾/٢
- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾/٣
- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾/٥
- ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾/٩
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾/١٢
- ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾/٢١
- ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ /٢٢

- ﴿فَمَنْ يُجيرُ الْكَافِرينَ مِنْ عَذَابٍ أَليمٍ﴾ /٢٨
- ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبينٍ﴾ / ٢٩
- ﴿فَمَنْ يَأْتيكُمْ بِمَاءٍ مَعينٍ﴾/ ٣٠.

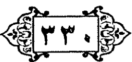
ومن الأمور اللافته أن النعت قد يربط بين كلمة وعبارة معاً، مثال ذلك قوله تعالى :

- ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُم مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾/ ٢.

ومن نماذج التماسك عن طريق التوابع بين الجمل وبعضها. وكذلك بين الآيات وبعضها قوله تعالى :

- ﴿الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزيزُ الْغَفُورُ﴾ / ٢
- ﴿الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُور(٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسئًا وَهُوَ حَسيرٌ(٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا للشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعيرِ(٥) وَلِلَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصيرُ(٦) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ(٨)﴾ .
- ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبيرٍ(٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ(١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعيرِ(١١)﴾.

ونلاحظ كذلك التماسك النصى عن طريق وحدة الآيات من ١٦ إلى نهاية السورة، وذلك من خلال الاستفهام الاستنكارى والتعجبى من لدن رب العزة. هذا إضافة إلى وجود روابط التوابع فى الآيات ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩



والمتأمل لهذه السورة المباركة يجد أن التماسك النصى تحقق من خلال محور مهم هو كون الآيات كلها من ٢ : ٣٠ مفسرة للآية الأولى؛ فهذه الآية تمثل الجملة أو الآية النواة للسورة ومثل هذا النوع من التماسك يندرج تحت التماسك الدلالى. ومعلم من معالم التحليل النصى(١).

هذا إضافة إلى قيام الكثير من العوامل مثل حروف الجر، وأدوات الشرط، ... وغيرها بالربط بين عناصر الجمل، ثم بين الجمل وبعضها، مما يثير قضية دور هذه العوامل فى تحقيق التماسك النصى. وهذا أمر يتطلب بحثاً مستقبلاً ليس المجال مجاله هنا.

وقد ربط الموصول "الذى" بين الآيات ١، ٢، ٣ إذ إنه نعت لله تبارك وتعالى. والتماسك عن طريق النعت نابع من كون المنعوت هو النعت فى المعنى. وهذا التماسك تعدى الكلمات والجمل والعبارات إلى الآيات. ثم يأتى دور العاطف "ثم" ليربط بين ٣، ٤ . وهو "الواو" للربط ين ٤، ٥، ٦ . ونعد الآيتين ٧، ٨ من قبيل النعت لجهنم التى ذكرت فى "٦"؛ فمن صفتها:

- ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ /٧
- ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ /٨

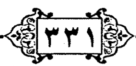
وكذلك نعدهما من قبيل الجمل المفسرة لما ورد فى الآية السادسة :

- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ /٦

هذا إضافة إلى وجود الضمائر التى تحيل إحالة سابقة إلى المذكور سابقاً "جهنم" فى الآية السادسة "تكاد – تميز – فيها – خزنتها" وهذه الضمائر فى الآية الثامنة أما السابعة: "فيها – لها – وهى تفور". ومن ثم تلتقى الإحالة السابقة مع التوابع فى تحقيق التماسك النصى.

---

(١) من السور التى تعد متماسكة عبر الإيجاز والتفصيل، سورة الواقعة؛ فالسورة كلها تفسر اسمها "الواقعة"، وسورة القارعة والزلزلة. وهذا سوف يناقش فى فصل المناسبة بين اسم السورة وموضوعها.



ثم تأتى الإحالة عن السؤال المطروح فى "٨"، فى الآية التاسعة ليحقق التماسك بين ٨، ٩. إضافة إلى الإحالة، والتكرار، والتوابع. ثم يأتى دور "الواو" و"الفاء" للربط بين ٩، ١٠، ١١ .

ومن الأنماط التى تحقق التماسك النصى كذلك المقابلة الواضحة بين دلالة الآيات ومن ذلك ما حدث بين ١١، ١٢ . فنلاحظها كما يلى :

- ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ /١١

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ١٢

بالإضافة إلى وجود روابط النعت داخل هاتين الآيتين ثم تربط الواو بين ١٢، ١٣ ثم تأتى الدلالة، والإحالة، والتوابع، والتكرار، لتربط بين ١٣، ١٤، ١٥ . ثم تأتى الآيات من ١٦ : ٣٠، حيث نهاية السورة ليتماسك النص من خلال الاستفهامات القائمة كما ذكرنا، وعن طريق التوابع، والتكرار، والإحالة.

والمدقق يلاحظ أن أبواب النحو العربى تكاد كلها تسعى لتحقيق التماسك النصى؛ فالاستفهام، والشرط، والجزاء، والجر، والابتداء، بل والنواسخ الحرفية والفعلية، إضافة إلى الأبواب التى ركزنا البحث عليها. هذا كله يسعى لتحقيق التماسك، وكأنى بالعرب حينما استخدموا هذه الأبواب فى استعمالاتهم لم يريدوا الصحة النحوية وحدها؛ بل أرادوا كذلك تحقيق التماسك بين مكونات الجملة والنص أيضاً.

ومن جوانب التحليل النصى، العلاقة بين المتكلم والسامع/ المتلقى والنص. ويظهر هذا فى الآية الأخيرة، على سبيل المثال، إذ يقول تعالى :

- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ /٣٠.

فمن الواضح أن المتلقى لا يملك إلا أن يجيب: الله رب العالمين فقد تركت الإجابة للمتلقى. وفى هذا إظهار لدور المتلقى فى استقبال النص وتأويله. وهذا من الجوانب النصية الواضحة فى النص القرآنى كله.



* ثم تأتي سورة أخرى من سور القصص القرآنى؛ سورة "نـــوح" التى تعرض لجانب كبير من الأحداث التى تعرض لها نبى الله نوح عليه السلام أثناء دعوته الطويلة لقومه. وهذه تمثل الوحدة الدلالية للسورة.

ولطبيعة الدعوة، من العرض والرد عليه، تجد طابع الحوار يطبع هذه السورة بين قال، وقلت، وقالوا، وغيرها من المترادفات مثل جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم، وأصروا، واستكبروا. وقد عرضنا لدوران هذه السورة حول محاور ثلاث؛ تكليف من الله، وطاعة من نوح، ورفض من قوم نوح(١).

وهذه السورة – مثل سابقتها – تتماسك كلها مع الآية الأولى، مفتاح السورة، ففى الآية الأولى الإرسال والتكليف بالدعوة والإنذار بالعذاب الأليم:

– ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ / ١

والآيات كلها من ٢ : ٢٨ تقص طبيعة دعوته، وإصراره على الدعوة، وكذا إصرار قومه على الرفض والكفر. وهذا يحقق التماسك الدلالى للسورة. وسوف نفصل هذا حين العرض لفصل التكرار، لنرى كيف يسهم تكرار فعل القول ومترادفاته فى تحقيق هذا التماسك.

أما التوابع، فنلاحظ أنها تنتشر فى السورة تبعاً للجدول التالى :

مسلسل	التابع	عدد مرات تكراره / وروده	المجموع
١	العطف	ثم / ٣ ، الفاء/٤، الواو/٣٥	٤٢
٢	النعت	٦ مرات	٠٠٦
٣	البدل	مرة واحدة	٠٠١
٤	التوكيد	–	٠٠٠
المجموع			٤٩

(١) انظر الفصل الثالث من الكتاب.

ومن نماذج الربط بين المفردات قوله تعالى :

- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ /١
- ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ /٤
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ /٥
- ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾/١٢
- ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾/٢٠.
- ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ /٢٢
- ﴿وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ /٢٧

ومن نماذجه بين العبارات قوله تعالى :

- ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾ /٢٨

ومن نماذجه بين الجمل قوله تعالى :

- ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ / ٣
- ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ /٤
- ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾/٧
- ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ /٩
- ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ ١٢
- ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ /١٦
- ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾/١٨ (١).

---

(١) انظر كذلك الآيات ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٨ .

ومن نماذجه بين الآيات قوله تعالى :

- ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا﴾ /٦
- ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ... الآية﴾ /٧
- ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾/ ٨
- ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ /٩
- ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ١٠

وتوالى الأدوات الرابطة بين هذه الآيات المتجاورة يعكس تنوع وسائل نوح عليه السلام فى دعوته، وإصراره على تبليغ هذه الدعوة بهذه الوسائل؛ فقد كانت فى الليل والنهار، وفى الإعلان والإسرار. وأيضاً كانت متتابعة أحياناً ومتلازمة أحياناً أخرى.

ثم يحدث الربط بين الآيات التى تعبر عن اتباع نوح عليه السلام لوسيلة أخرى تتمثل فى تذكيره لقومه بآلاء الله عليهم :

- ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ / ١١
- ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾/ ١٢
- ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا(١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾
- ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا(١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا(١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا(١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا(١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا(١٩)﴾

ثم يعرض لموقف قومه من الدعوة :

- ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾/٢١
- ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا(٢٢) وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا(٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ... الآية ﴾

ثم يعرض النص لدعاء نوح على قومه مبتدءاً الدعاء بالربط بين آيات الدعاء ٢٦، ٢٧ والآيات التى سبقت، التى أظهر فيها موقفهم المسبب لهذا الدعاء ثم يردف بالدعاء بالمغفرة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ثم ينهى النص بدعاء نوح على الظالمين: ﴿وَلاَ تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ /٢٨

فانتشار التوابع بهذه الطريقة يعكس التماسك النصى بين مكونات هذه القصة من تكليف وعرض ورفض.

ونضيف أن الحذف له دوره الفعال فى تحقيق تماسك هذا النص، وهذا ما سوف نعرضه فى فصل الحذف، إذ تم حذف عناصر ثانوية من الحوار تعتمد على قدرة المتلقى.

وانتهاء الآيات من ٥ : ٢٨ بالكلمات المنونة بالفتح، يشعر بنوع من التواصل والاستمرارية بين الأحداث، ومن ثم التماسك النصى بين مكونات النص.

وكثرة عدد أدوات الربط من عطف ونعت وبدل لتصل إلى تسع وأربعين مرة فى ثمان وعشرين آية، هذا أمر يؤكد دورها فى تحقيق تماسك نص السورة هذا إضافة إلى ستة وتسعين ضميراً تحيل إلى محاور النص الثلاثة التى سبق ذكرها.

وهذا أمر يدعو لمحاولة دارسة اللغة من خلال النصوص لا من خلال الجمل المفردة، وذلك لدوافع كثيرة لا مجال لتفصيلها هنا. فقد سبق أن تحدثنا عن أسباب الدعوة للدراسة النصية.

والتوابع هنا قامت بتحقيق تماسك هذه السورة عبر الكلمات والعبارات والجمل والآيات. واللافت أنها انتشرت بين الآيات خاصة تبعاً لمراحل هذه القصة؛ فقد بدأ بعرض دعوته من ٢ : ١٩، قامت التوابع بالربط بين هذه الآيات، إضافة إلى وحدتها الدلالية المتمثلة فى بيانه لطبيعة دعوته لهم ووسائله.

ثم تأتى المرحلة الثانية من ٢١ : ٢٤ لبيان موقف قومه من هذه الدعوة، وقد حدث التماسك فى هذه المرحلة عبر التوابع، خاصة العطف الواضح بين ٢١، ٢٣، ٢٢،٢٣، ٢٣،٢٤ .

ثم تأتى المرحلة الأخيرة بعد تسع مائة وخمسين سنة، وقومه فى إعراض ليدعو عليهم، وذلك من ٢٥ : ٢٨ ومرحلة الدعاء متماسكة دلالياً بوحدتها دلالياً، وشكلياً عبر عدد من أنماط التماسك النصى، منها التوابع كما هو واضح.

وتكثيف ستة من الروابط فى آية واحدة، مثل الآية (٢٣) يعكس تماسكها أولاً، ثم يعكس كثرة الإعراض والصلف ضد نوح ودعوته.

وهكذا يتماسك نص هذه السورة المباركة دلالياً وشكلياً عبر الوحدة الدلالية للسورة وعبر كثير من وسائل التماسك منها التوابع.

سورة "الجــــــن"

تليها مباشرة، فى الترتيب المصحفى، سورة "الجــن" التى تعبر عن موقف نفر من الجن حينما سمعوا القرآن الكريم. والتناسب بين هذه السورة وسابقتها هو تناسب المقابلة، فإذا كان قوم نوح، بعد هذا الطريق الطويل من الدعوة، لم يزدهم هذا إلا إعراضاً واستكباراً. فإن الجن كان بالمقابل؛ فلم يملك هذا النفر، بعد سماعهم آيات القرآن الكريم، لم يملكوا إلا الإيمان به، بل الذهاب بالبشرى لبنى جنسهم. وهذه المقابلة بين الموقفين تعد وسيلة أخرى من وسائل التماسك النصى بين سور النص الأكبر "القرآن الكريم" وسوف نناقش هذا ، بإذن الله، فى فصل المناسبة[1].

وتتوزع التوابع بدورها كما فى الجدول التالى :

---

(١) هذا إضافة إلى أن عدد آيات السورتين واحد: "٢٨" آية. وكذلك نهايات الآيات فى السورتين التنوين المفتوح وغير ذلك من أوجه المناسبة.



مسلسل	التابع	عدد مرات تكراره	المجموع
١	العطف	الفاء/١٤، الواو/٣٢، حتى/١، أم /٢	٤٩
٢	النعت	٨ مرات	٠٨
٣	البدل	مرة واحدة	٠١
٤	التوكيد	....	٠٠
المجموع			٥٨

والملاحظ أن التماسك قائم بين الآيات من ١: ١٩ بالتوابع، ليحدث التماسك النصى شكلياً. ثم يحدث التماسك الدلالى عن طريق كون هذه الآيات تقص مقول القول الذى قاله الجن عندما سمعوا القرآن، وما بعد هذا السماع. ثم تنتقل الآيات من ضمير المتكلم إلى المخاطب لتخاطب رسول الله صلى الله علية وسلم بالفعل "قل" من ٢٠ : ٢٥ ثم تتماسك الآيات من ٢٦ : ٢٨ حيث آخر السورة بأدوات سوف نوضحها.

فلنبدأ بملاحظة الروابط بين الآيات، ومن خلالها نحلل الوظائف التى تقوم بها الروابط داخل الآيات؛ بين الكلمات، والعبارات والجمل. وذلك عكس ما سبق فعله فى السور السابقة عند التحليل النصى؛ وذلك لتوضيح أنه يمكن التحليل بإحدى هاتين الطريقتين، إما أن نبدأ بالتماسك بين الكلمات، أو التماسك بين الآيات والهدف هو الوصول إلى تحقيق التماسك النصى. وكيفية تحليل النص.

والسورة تتماسك أيضاً كذلك عبر قضية التوحيد، فقد آمن بها الجن، وذلك واضح من أول السورة حتى الآية "١٩" وكذلك عبر قوله صلى الله عليه وسلم.

- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾/٢.

وما بعدها من آيات تؤكد هذه القضية من حيث هو الضار والنافع وهو الذى يجير من استجار به وليس له شريك.

وتظهر قضية التوحيد كذلك فى إنذاره صلى الله عليه وسلم الذين يعصون الله، فإن جزاءهم جهنم. وغير ذلك من الوسائل التى تظهر قضية التوحيد حتى آخر السورة.

أما التوابع فنلاحظ نماذجها بين الآيات فى قوله تعالى :

- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (١)
- ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (٢)
- ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾ (٣)
- ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ (٤)
- ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (٥)
- ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٦)
- ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾(٧)
- ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ (٨)
- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾(٩) [(١)].

وإذا تأملنا العلاقات الداخلية فى الآيات نجد على سبيل المثال - أن الآية الأولى بها ثلاثة روابط من التواب: النعت "من الجن" والعطف " فقالوا، ثم النعت " عجباً" ثم يأتى النعت ليربط بين الآيتين ١، ٢ " يهدى إلى الرشد" ويأتى العطف داخل "٢" فآمنا به، ثم تربط الجملتان بالعاطف الواو " ولن نشرك بربنا أحداً" ليؤكد حقيقة إيمانهم بالله وبوحدانيته. ثم طبيعتهم بعد أن سمعوا الهدى:

- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا﴾/١٣

(١) انظر كذلك الروابط بين الآيات من ١٠ : ١٩ إذ إنها تبدأ بروابط تحقق تماسكها.

- ﴿اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا(٢)﴾ ولا يخفى ما بين الآيتين ١، ٢، والآية ١٣،

فالتكرار اللفظى والمعنوى للموقف نفسه يؤكد التماسك النصى بين هذه الآيات إضافة إلى التوابع الكائنة فى هذه الآيات، وكذلك مرجعية الضمائر، كما أشرنا من قبل، تسهم فى تماسك هذا النص؛ فقد وصل عدد تلك الضمائر التى تحيل إلى الجن ثلاثة وثلاثين ضميراً[1].

وبعد هذه الوحدة الدلالية الأولى يتجه النص إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الآية "٢٠ " مع ملاحظة أن النص بدأ فى الآية الأولى بنفس الخطاب "قل" ، لكن ما بعد الآية الأولى كان نقلاً عن الجن من أقوال وأفعال. بينما هنا من "٢٠ " الخطاب على لسان النبى صلى الله عليه وسلم :

- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ /٢٠
- ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا﴾ /٢١
- ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾/٢٢
- ﴿إِلاَّ بَلاَغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاَتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا(٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا(٢٤)﴾
- ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا(٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(٢٦)﴾ ... وهكذا.

فقد تحقق التماسك هنا على محورين :

الأول: الدلالى، وذلك لوحدة الخطاب وموضوعه، وذلك ليس على مستوى

---

(١) انظر: الفصل الثالث من الكتاب.

هذه الآية فقط، بل على مستوى السورة كلها؛ فكلها موجه بـــ "قل" إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فوحدة الخطاب من بين الأنماط التى يتحقق من خلالها التماسك النصى، فيكفى مثلاً - وحدة المتكلم والمخاطب ووحدة الموضوع. وتحت هذه الوحدة يبرز دور أدوات التماسك النصى. ونلاحظ من مظاهر هذا التماسك أن ما قاله الجن، لتأكيد إيمانهم :

﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾/٢

وأن ما قاله صلى الله عليه وسلم ﴿وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ /٢٠ وهذا تأكيد لوحدة القضية التى يتناولها النص على محوريه؛ الموجه إلى الرسول على لسان الجن، والموجه من الرسول نفسه على لسانه.

أما الثانى: فهو الشكلى مثل الذى بين ٢٣، ٢٤، وما بين ٢٥، ٢٦، وما بين ٢٦، ٢٧؛ فالاستثناء نفسه يعد رابطاً بين الآيتين؛ فالاستثناء هو إخراج بعض من كل، وهذا البعض، فى الغالب، جزء من الكل؛ فحين نقول :

جاء الطلابُ إلا محمدًا

فمحمد من الطلاب، ومن ثم يرتبط بهم لكونه من جنسهم البشرى، وكذلك فى طبيعتهم بصفتهم طلاباً. لكنه يخرج من حكم المجئ.

هذا بين الآيات. وما بين الكلمات والعبارات والجمل، داخل الآيات، فهو كثير جداً، فلا تجد آية - تقريباً - إلا وبها نمط من أنماط الربط المحقق للتماسك، وذلك ما بين عطف ونعت وبدل.

فنماذج ما بين الكلمات : ١، ٥، ٨،٦، ٩، ١٦، ١٧ .

ونماذج ما بين العبارات : ٢٧ .

وهناك ما يربط بين الكلمة والعبارة كما فى ١، ٦ .

ونماذج ما بين الجمل : ١، ٢،٣، ٦، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤ ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨ .

* أما سورة "**المزمـــــل**"، فإنها نموذج من نماذج الخطاب المباشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فتبدأ بقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً(٢)﴾

ويتأكد هذا الخطاب المباشر بتعدد صيغ الأمر فى السورة: {قم – انقص – زد – رتل – اذكر – تبتل – اتخذه – اصبر – اهجرهم – ذرنى – مهلهم}. ثم يتوجه الخطاب بالأمر كذلك إلى الجماعة المؤمنة، وهو منهم: {اقرءوا – اقرءوا – أقيموا – آتوا – أقرضوا – استغفروا} . فهذه التكليفات أو الأوامر تعكس وحدة هذه السورة؛ حيث إنها تمثل تكليفات على المستوى الفردى المتمثل فى رسول الله، وعلى المستوى الجماعى المتمثل فى الجماعة المؤمنة والرسول منهم. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يبرز التماسك من خلال وحدة السياق الذى أحاط بهذه السورة، وقد سبق أن ذكر فى الفصل السابق. فالسياق اللغوى المتمثل فى أفعال الأمر السابقة، والسياق الاجتماعى المتمثل فى مناسبة نزول هذه السورة. كلاهما يسهم فى تحقيق وحدة موضوعها، ومن ثم تماسكها الدلالى.

أما تماسكها الشكلى، من خلال التوابع، فنلمسه من الجدول التالى :

مسلسل	التابع	عدد مرات وروده	المجموع
١	العطف	أو/٢، الفاء/٨، الواو/٢٨	٣٨
٢	النعت	١١ مرة	١١
٣	البدل	٣ مرات	٠٠٣
٤	التوكيد	– –	٠٠٠
المجموع	←		٥٢

وإذا خلا العطف من كونه ذا مرجعية سابقة أو لاحقة، فإنه يمكن القول بأن مرجعيته داخلية؛ فهو يربط بين مكونات أو عناصر موجودة داخل النص، فلا يجوز العطف على شئ غير موجود أصلاً. وكذلك القول بالنسبة للنعت، غير أنه يختلف عن العطف فى أن مرجعية الأول قد تكون خارجية؛ فقد ترد صفات الله تعالى مثلاً، ولفظ الجلالة غير مذكور فى السورة، ومن ثم فمرجعية النعت خارجية حينئذ. لكن إذا كان المنعوت مذكوراً داخل السورة، فإن المرجعية إذن سوف تصبح داخلية. وكذلك قد تكون المرجعية، بالنسبة للنعت سابقة إذا تقدم على النعت، بينما تكون لاحقة إذا كان الترتيب بالعكس. أما البدل فإن مرجعيته يجب أن تكون داخلية سابقة، إذ لا يجوز حذف المبدل منه، وكذا لا يجوز تأخير المبدل منه عن البدل. وبناء على هذا يمكن إسقاط هذه العلاقات المرجعية على السور السابقة. وقد آثرنا عدم ذكرها لأن الفصل الثالث تأكد فيه دور المرجعية الخاصة بالضمائر. فأثرنا التركيز هنا على وسيلة أخرى تتمثل فى التوابع. ولا يخفى - والأمر كذلك - ما بين النعت والبدل من ناحية ومرجعية الضمائر من ناحية أخرى، من علاقة تماسكية أو إحالية، وسوف نحاول إبراز هذه العلاقة بشيء من الإيجاز فى تحليل السور التالية.

فيبدأ التماسك بعد الآية الأولى كما يلى :

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً(٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً(٤)﴾.

إذ نجد البدل يربط بين الآيتين ٢، ٣. ثم يأتى دور العطف بــ (أو) ليربط بين ٣، ٤. ووحدة هذه الآيات الدلالية تكمن فى كونها تمهد شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لتلقى القول الثقيل، وهذا يحتاج إلى شخصية ذات طاعة تختلف عن بقية البشر، ومن ثم كان الأمر بقيام الليل إلا قليلاً أو النصف أو أقل.

ثم تواصل الآيات تماسكها الداخلى من خلال العطف فى الثالثة، والرابعة، وهو من قبيل عطف الجمل داخل الآيات. ومن ثم أسهم العطف والبدل فى تحقيق تماسكها.

وتواصل الآيات من "٥" الأوامر إلى رسول الله بالإكثار من الطاعة، وكيف يمكنه التصرف مع من يرميه بالسفه والجنون. ثم يتوعدهم رب العزة بالأنكال والجحيم والعذاب الأليم، ويتابع وصف هذا اليوم حتى الآية "١٩". وتقوم التوابع بتحقيق تماسك هذه الأوامر كما يلى :

﴿إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً(٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً(٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً(٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً(١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً(١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا(١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا(١٣)﴾.

ثم يأتى دور الحذف للاستفهام المقدر بين الآيتين ١٣، ١٤؛ تقديره: متى هذا ؟ فتأتى الإجابة فى الآية (١٤) : (١).

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً(١٤)﴾

وهذا يؤكد دور الحذف فى تحقيق التماسك النصى، كما سنفصل فى فصل الحذف.

والسياق يسهم فى تحقيق تماسك هذا النص؛ فالآيتان ١٥، ١٦، يمكن التساؤل: لماذا وجدتا هنا؟ والسياق يجيب؛ فمناسبة النزول تذكر أن مناسبة هذه السورة هو تجمع الكافرين على سب رسول الله واتهامه بالجنون والسفه، فتأتى الآيتان لتأكيد نبوة هذا الرسول:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً(١٦)﴾.

ثم يواصل السياق اللغوى وصف هذا اليوم العصيب مرة أخرى لإنذار هؤلاء القوم، مع استخدام العطف:

(١) وذلك الحوار بين المتلقى والنص من الجوانب التى أكدها علم اللغة النصى، إذ فى هذا الحوار نمط من أنماط التواصل بين النص والمتلقى؛ فالأخير فى حالة استفهام شبه دائم والنص فى حالة إجابة عن هذا الاستفهام.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا(١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً(١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(١٩)﴾.

فقد ربط العطف بين ٧، ٨. وربط التكرار بين ٨، ٩. وربط العطف بين ٩، ١٠. والدلالة التفسيرية للتهديد الموجود فى "١١" ربطت بين ١١، ١٢. والعطف بين ١٢، ١٣. ثم الحذف بين ١٣، ١٤، ١٥ ثم الفاء بين ١٦، ١٧. ثم الدلالة بين ١٧، ١٨، ١٩. هذا إضافة إلى التوابع المنتشرة داخل الآيات للربط بين الكلمات فى مثل : ٥، ٧، ٩، ١٠، ١٢، ١٣، ١٤، ١٦، ١٧. والربط بين الجمل فى مثل : ٦، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٤، ١٦.

ومرجعية البدل فى "٣" مرجعية داخلية سابقة ومرجعية النعت فى ٧، ١٠، ١٣، ١٤، ١٦ . مرجعية سابقة؛ إذ إن الترتيب.

منعـوت + نعـــت

والنعت هو صفة للمنعوت، ومن ثم يحيل إليه. أما العطف فى حالاته كلها؛ بين الكلمات والجمل والآيات، فإن مرجعيته، كما ذكرنا، داخلية.

أما الآية العشرون، التى تحمل التخفيف عن رسول الله والصحابة فإن للتوابع معها شأناً؛ ففيها أربعة نعوت، وثلاثة عشر حرف واو. ونظن أن هذا طبيعى؛ فهذه الآية نزلت بعد اثنى عشر شهراً من نزول شطر السورة الأول، ومن ثم احتاجت هذه الآية أو نص هذه الآية، إلى روابط كثيرة لتحقيق تماسكها.

فهذه الآية تعد من نوع رد العجز على الصدر، من ناحية الدلالة، إذ إن الحديث فيها عن قيام الليل، وكثير من العبادات مثل قراءة القرآن، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والاستغفار. وهذه الطاعات كانت فى صورة تكليفات فى الشطر الأول، ومن ثم كانت دلالة الشطر الثانى فيها رد للعجز على الصدر. وهذا يحقق التماسك النصى بين شطرى السورة المتباعدين زمنياً

المتقاربين دلالة. ومن ثم فمرجعية الشطر الثانى كله مرجعية سابقة(١).

واحتواء هذه الآية على أنماط ثلاثة من التوابع "العطف والنعت والبدل"، وبهذا التركيز والكثرة فى العدد، يؤكد تماسكها النصى بين عناصر؛ كلماتها وعباراتها وجملها. وكذلك مع سابقتها من الآيات.

* ومن السور التى تتوجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب مباشرة سورة "**الضحـــــى**"، وهى كما علمنا تسرية عنه، بعد ما صدر من المشركين.

وقد اكتفى النص هنا باستعمال نمط واحد من أنماط التوابع؛ وهو العطف؛ إذ إنها تحتوى على أربعة عشر موضعاً للعطف. وذلك بين الجمل داخل الآية، على الرغم من قصر هذه الآيات، وهذا يدل على قوة تماسكها. وبين الآيات، إذ يظهر العطف فى ست آيات. فالآيات التى تحتوى على عطف بين الجمل مثل قوله تعالى:

- ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ / ٣
- ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾/ ٥
- ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ /٦
- ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ /٧
- ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ /٨
- ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ(٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١)﴾

(١) قضية رد عجز الآية على صدرها، ورد عجز السورة على صدرها، من الجوانب ذات الأهمية فى التحليل النصى عامة، والتماسك النصى خاصة. وهذه تكاد أن تتحقق فى سور القرآن، الكريم معظمها وسوف تناقش الدراسة هذه القضية فى فصل المناسبة.

وتعدد العطف بهذه الصورة، إضافة إلى أنه يحقق التماسك النصى، فإنه كذلك يؤكد تعدد النعم التى أنعم الله بها على نبيه صلى الله عليه وسلم.

ونلاحظ تماسك الآيات فيما بينها بالعطف كما فى الآيات٤، ٥، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١. وتختم السورة بآية تشير إلى أن ما سبق كله يعد نعمة من الله. وهى بهذا تربط الآيات كلها فى وحدة دلالية واحدة تتمثل فى كونها نعماً من الله على نبيه. وهذه الآية تمثل رداً لعجز السورة على صدرها.

ومرجعية العطف كلها داخلية فى كونها رابطة بين الآيات المتجاورة فى النص. هذا بصرف النظر عن كونها سابقة أو لاحقة. فهذا يصعب تحديده.

* وإذا كان الاستفهام التقريرى فى سورة "**الضحــى**" متمثلاً فى عرض النعم، فإن سورة "**الشرح**" تبدأ بالاستفهام التقريرى :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ /١

وذلك لمواصلة عرض نعم الله على نبيه. ومن ثم تماسكت آيات هذه السورة لتعرض هذه النعم.

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ(٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ(٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ(٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(٨)﴾

فيربط العطف بين ١، ٢. والنعت بين ٢، ٣ والعطف بين ٣، ٤ ثم تأتى ٥، ٦ لتربط كل منهما مع السورة فى الدلالة على البشرى باليسر بعد هذا العسر، وهذه البشرى من نعم الله على نبيه. مع ملاحظة انتهاء كل منهما بالنهاية المفتوحة، عكس الآيات من ١: ٤ . وذلك لتتناسب البشرى باليسر مع تركيب الآيتين – ثم يأتى العطف ليربط بين ٧، ٨ . والآيتان اللتان بهما هذه البشرى تتماسكان دلالة، كما ذكرنا، وكذلك تتماسكان بالتوكيد اللفظى؛ فالآية "٦" توكيد للآية "٥" وهذا التأكيد لليسر بعد العسر الذى يعانى منه النبى صلى الله عليه وسلم من أعداء الدين.

ويتأكد التماسك النصى للسورة كذلك بالتوازن اللفظى بين الآيات؛ فمن ١ : ٤ "صدرك – وزرك – ظهرك – ذكرك" وكلها تتحدث عن نعم الله. والآيتان ٥، ٦ اللفظ نفسه فيهما، مع النهاية المذكورة وتناسبها مع الدلالة. ثم ٧، ٨ "فانصب – فارغب" إذ فيهما الأمر بالطاعة، وتلك وحدة دلالية[1].

وتختلف مرجعية التوابع المستعملة فى السورة؛ فبينما نجد العطف بين ١، ٢ وبين ٣، ٤، وبين ٧، ٨، يمثل مرجعية داخلية لربطه بين الآيات المتجاورة فقط. نجد أن النعت فى "٣" مرجعيته سابقة؛ إذ يعود النعت "الذى" إلى "وزر" وهذه مرجعية داخلية سابقة. وكذلك التوكيد اللفظى بين ٥، ٦ مرجعية داخلية سابقة؛ إذ اللفظ والدلالة فى "٦"، يعودان إلى ما فى "٥" من لفظ ودلالة. هذا إضافة إلى كون هذا من أنماط التكرار.

* أما سورة "**القــارعــــة**"، فإنها تتماسك دلالياً؛ إذ إنها تتحدث كلها عن هذا اليوم، يوم القيامة، وموقف الناس يومئذ، وكذا موقف الجبال، وموقف المؤمنين والكافرين. ولذا فهى ترتبط كلها مع مفتاحها المتمثل فى الآية الأولى (القارعة). ويتفق التماسك الشكلى مع التماسك الدلالى فى تحقيق تماسك نص هذه السورة؛ فيوجد التكرار التوكيدى، والعطف، والنعت، وغيرها من وسائل التماسك النصى.

فالتوكيد اللفظى يربط بين ١، ٢. ثم يربط العطف بين ٢، ٣ . والنعت يربط داخلياً بين عناصر الآية الرابعة: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ويربط العطف بين ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠. ولا يخفى دور الجمل التفسيرية فى تحقيق تماسكها؛ فالآيات من ٤ : ١١ تفسير للقارعة المذكورة فى الآيات الثلاث باللفظ فى ١، ٢، ٣.

(١) يناقش هذا الأمر فى ضوء التكرار التركيبى للآيات؛ فالآيتان ٢، ٤ نمط تركيبى واحد والآيتان ٥، ٦ نمط آخر والآيتان ٧، ٨ تنتهيان بالأمر.

ومرجعية التوابع هنا تتمثل فى كون التوكيد مرجعيته داخلية سابقة، وذلك بين ١، ٢، والنعت كذلك مرجعيته داخلية سابقة ﴿الْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ و﴿الْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. أما العطف فمرجعيته داخلية فقط. ومن ناحية الدلالة فمرجعية الآيات كلها داخلية سابقة؛ إذ كلها تتحدث عن القارعة المذكورة فى الآية الأولى.

* وسورة "التكـــاثـــر" أثبتنا تماسكها عبْر مرجعية الضمائر فى الفصل السابق. أما دور التوابع هنا فنجد التوكيد اللفظى والعطف فقط؛ فالأول ربط بين ٣، ٤. والثانى ربط بين ٦، ٧، ٨. وكذلك يسهم العطف مع التوكيد فى الربط بين ٣، ٤. وبناء على السياق المحيط، الذى يشير إلى أن القبيلتين تفاخرتا فيما بينهما، ثم ذهبتا إلى المقابر كى يتفاخر كل منهما بما عنده. بناء عليه نعد "حتى" رابطة بالعطف بين ١، ٢. هذا إضافة إلى التكرار والحذف والمناسبة، وسوف نعرف دور كل منهم فى الفصول التالية.

وإذا كانت مرجعية الضمائر خارجية، كما ذكرنا، فإن مرجعية التوكيد هنا داخلية سابقة. ومرجعية العطف داخلية فقط؛ إذ وظيفة الربط بين المتعاطفين دون مرجعية أحدهما إلى الآخر.

* وسورة "قـــــريش" فيها العطف المتمثل فى قوله تعالى :

- ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ (٢)
- ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣)
- ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (٤)

فقد ربط بين المفردات كما فى (٢)، وربط بين الجمل كما فى (٤)، وربط بين الآيات كما فى (٣)؛ إذ ربطت الفاء بين ٢، ٣. كما ربط النعت بين ٣، ٤. ومرجعية العطف داخلية، بينما مرجعية النعت داخلية سابقة.

* وسورة "**الكـــــوثــر**" فيها ربط بين ١، ٢ عن طريق العطف، وربط بين الجملتين اللتين فى "٢" بالعطف كذلك. وهناك تناسب طردى؛ إذ كلما كثرت الجمل والآيات، كثرت كذلك الروابط التى تحقق تماسكها. وهذا طبيعى، فكثرة الجمل والآيات يحتاج إلى ما يربط بينها، كى لا تصبح كلمات وجملاً متراصة لا رابط بينها.

* وسورة "**الكـــافــــرون**" يربط النعت بين الآيات ٢، ٣، ٤، ٥ . كما يربط بين الجمل فى الآية السادسة. بينما يربط البدل بين عناصر الآية الأولى. ومرجعية البدل داخلية سابقة، بينما مرجعية العطف داخلية والذى يقرأ الآية الأخيرة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يحس بأنها منفصلة عن السورة، لكن التأمل، والتحليل النصى يؤكدان عكس هذا؛ فهى تُعد ملخصاً لآيات السورة السابقة من ١ : ٥، ونعدها مفتاح السورة، على الرغم من وقوعها فى نهايتها؛ إذ الآيات من ١ : ٥ تفسر هذه الآية. ولا شك أن وقوع مفتاح السورة فى آخرها مخالف لما حدث فى السور التى سبق تحليلها، والأمر يعتمد أساساً على الدلالة الكائنة فى الجملة النواة، بصرف النظر عن مكانها.

* وسورة "**المســـد**" يربط العطف بين الجمل الواقعة فى ١، ٢. ويربط كذلك بين الآيات ٣، ٤. وربط النعت بين عناصر الآية الثالثة. هذا إضافة إلى التماسك الدلالى الكائن فى وحدة موضوع السورة.

* أما سورة "**الإخـــلاص**" فهى تؤكد قضية التوحيد؛ إذ تدور آياتها كلها حول تأكيد هذا الموضوع؛ فمن ناحية الدلالة تعد هذه الآيات صفات لله تعالى: فهو "أحد، صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد "، لكنها من ناحية التقعيد اللغوى تختلف حسب اختلاف مواقعها. أما العطف فإنه يربط بين الآيتين ٣، ٤ .

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(٤)﴾

* وكذا يربط العطف، فى سورة "الفلـــق" بين ٢، ٣، ٤، ٥ :

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ(٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ(٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ(٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ(٥)﴾

ومرجعيته هنا داخلية؛ حيث إنه يربط بين هذه الآيات مع الجمع بينها.

* أما سورة "النـــاس" فإن النعت هو الذى يقوم بهذا الدور؛ إذ يربط بين ١، ٢،٣ .

ثم بين ٣، ٤ . والآيات ٤، ٥، ٦ إجابة عن سؤال مقدر؛ فمن أى شيء نعوذ بالله منه ؟

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ(٤)﴾

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ(٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ(٦)﴾

وإذا كان النعت هو الذى يقوم بهذا الدور، فإن مرجعيته داخلية سابقة، وهذا هو السر فى اتخاذنا النعت واحداً من وسائل التماسك النصى. والأسئلة التى يطرحها المتلقى على النص كما فى هذه السورة يمثل جانباً من الجوانب التى أكدها علم اللغة النصى إذ يؤكد أن النص يعدُ حواراً بين منتج النص والنص والمتلقى.

وهكذا تضافرت التوابع فى تحقيق التماسك النصى لهذه النماذج من السور المكية وقد أثبت البحث أن دورها لم يتوقف عند حد التماسك بين الكلمات المتجاورة والعبارات والجمل والآيات؛ بل ثبت تحقيقها للتماسك بين الفقرات المكونة للنص. وثبت كذلك عدم استغناء النص عن وجود هذا النوع من الروابط، على وجه الخصوص عطف النسق.

والسؤال: أيعتمد التحليل النصى على المحاور السابق عرضها فقط. أم توجد محاور أخر يفرضها علم اللغة النصى على المحلل؟ وهذا موضوع الجزء الثانى من الكتاب.